

عَدَاءُ قُرَيْشٍ

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الثالثة من سلسلة الروايات التاريخية الإسلامية

﴿ تنصمى تفصیل مقتل الحلیفة عثمان وخلافة ﴾

﴿الامام علي وما نحم عن ذلك من﴾

﴿ الفتنه وواقعة الجمل وواقعة حنين ﴾

﴿ الى فتحكم الحكمين وخروج مصر ﴾

﴿ من خلافة الامام علي ﴾



عربی زبان

(متىء الالال)

بشرت ملحمةً بالسنة السابعة من الهلال

(طاعت مطبعة الهلال شارع المحالة بمصر سنة ١٨٩٩)

السير المتصلة

❖ رواية غرامية تاريخية - الطبعة الثانية ❖

❖ تأليف مؤلف هذا الكتاب ❖

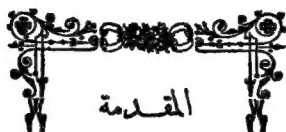
اندرجت فيها الحوادث المصرية وفي عرابي والمصري السوداني وما تخطل ذلك من الاحوال والاعمال بحيث يحفل القارىء انه شاهد تلك الاماكن عياناً وحضر كل الوقائع وقد دخلت في هذه الرواية ايضاً حادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق الشام ومن ابطالها عرابي وكيف ننأ والمصري وكيف ظهر وميكس باشا وكيف نكب وغوردون باشا وكيف قتل والمخروطوم وكيف سقطت وتفصيل الحوادث الغرامية من اولها الى آخرها - ثمن النسخة عشرة غروش مصرية واجرة البوسطة غرشان (تحت الطبع)

المحبين جهد المحبين

❖ رواية ادبية غرامية ❖

❖ تأليف مؤلف هذا الكتاب ❖

تشتمل على حوادث غرامية ادبية حدثت وقائعها في العهد الماضي من هذا القرن في مصر والاسكندرية وفيها ما يدل على اسماها ما يقاسو المحبون جهاداً في سبيل الحب - ثمن النسخة ٦ غروش مصرية او فرنك ونصف واجرة البوسطة غرش ونصف



✽ عذراء قريش ✽

هي الحلقة الثالثة من سلسلة الروايات التاريخية الاسلامية التي نشرها تباعاً في الهلال بسط فيها تاريخ الاسلام على اسلوب الرواية تشويقاً للمطالعة وتميلاً للعوادث حتى تقرب من اذهان القراء . فالحلقة الاولى هي « فتاة غسان » نشرناها في جزئين متلفين فيها حوادث التاريخ الاسلامي من ظهور الدعوة الى فتح الشام والعراق . والثانية « ارماتوسة المصرية » شرحنا فتح مصر بتفاصيله . واما الثالثة فهي « عذراء قريش » هذه وهي تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان وخلافة الامام علي وما نجم عن ذلك من الفتنة وواقعة الجمل وواقعة صفين الى تحكيم الحكيمين وخروج مصر من خلافة الامام . وهي اول فتنة ظهرت في الاسلام

وقد نشرنا « عذراء قريش » ملحقاً بالسنة السابعة من الهلال ولكن ما احدثته من حركة الازدهان وما آتته من استحسان القراء لما واعجبهم بها حياءنا طبعها ونشرها على حدة . ونسعين الله في مواصلة نشر هذه السلسلة التاريخية الاسلامية رواية اثر رواية الى آخر تاريخ الاسلام . واول رواية سنشرها بعد هذه تتضمن تفصيل مقتل الامام علي وخروج الخلافة من اهل البيت الى بني امية سنظهر تباعاً في السنة الثامنة من الهلال . والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل

الفصل الأول

❁ قباء ❁

قباء قرية على ميلين من المدينة (يثرب)^(١) اشتهرت بعد الهجرة بنزول صاحب الشريعة الاسلامية فيها اثناء هجرتهم الى المدينة فبنى فيها مسجداً هو اول مسجد بني في الاسلام^(٢) وله كرامة خصوصية لانه اسس على التقوى ولول من بني قيو حجة صاحب الشريعة نفسه^(٣) وكانت قباء في خلافة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين قد اشتهر امرها وعرفت كراية مسجدها على اثر انتشار الاسلام واتخاذ الخلفاء كرمي ملكهم في المدينة مع ما بذلوه من العناية في تحسين ذلك المسجد وخصوصاً الخليفة عثمان فانه وسع و زاد فيه واقف عليه الحجاب والخدمة . على ان ذلك لم يرد شيئاً كثيراً في سكان قباء نفسها

وكان لذلك المسجد في اوخر خلافة عثمان عظام طاعن في السن اسمه عامر فهد بناء المسجد بنفسه ورأى صاحب الشريعة يوم نزل هناك وأمر ببناء المسجد فاوقف حياته لخدمته فاقام في قباء هو وعياله يقضي بهارة في حراسة الجامع ويقوم بتنظيفه وسدائه فاذا فرغ من ذلك خرج مع اولاده لرعاية ال بعض اغنياء المدينة في بعض الاودية او المستنقعات التي تكثر في ذلك الجوار

ففي مساء يوم من ايام سنة ٢٥ للهجرة خرج الشيخ لرعاية الال فاوغل في بعض الاودية فاقترب الغروب وهو لا يعلم فاسرع بالرجوع فركب ناقته وارتقى لها الخطام واستخرج مسلة كان قد غرسها في شعر رأسه المتلبد وخز بها الناقة بين جتيها استعانتاً لها في السير فطارت به واولاده يتبعونه بقية الوق وقد ركب اصفرهم وهو حار على ناقة عارية وركب آخر على أخرى وامامة بعض الاخشاب او العبدان وقد جمعها من منساقطات الشجر ليقندوا نارهم بها . والجمال يحملها غفل من المعظم ابي ايها سائبة بلا ارسان . وكان الشيخ اكثر الجميع عجلة بلتمس المسجد قبل ان تقيم الشمس فينوت وقت الصلاة ورأى الشمس تسرع في الموط فحفل له انها تسابقة لفعل

(١) حم ياقوت (٢) المدينة الحلية (٣) ابن هشام

استحقت نائلة جهد طاقتو غير مال يخال تلك الساعة وفي اجل ما تكون في الصحراء وقد استطالت الاظلال حتى اختلط بعضها ببعض فلم تعد تتميز اظلال الخيل من اظلال اللسان او السط وانتزعت اظلال الاشجار باظلال الآدميين او النوق وقد غفل شيخنا بعجلته ولهو عن شذاه الریحان والقصعين وغيرها من نبات الصحراء ولم يستوقف سمعة شدو اللابل ولا تنيق الضمادع . على انه لم يكد يتعرف على قبا . من اكبة حتى سمع رغاء الجمال وصهيل الخيل بمحار المسجد فاسرع فرأى هناك ركبا ومعهم الجمال والاحمال ولم يستغرب ذلك وقد تعود ان يرى كثيرا من امثاله كل عام لان القوافل يذهبها الى المدينة كانت تمر بقباء فتتف للراحة والاستقاء . فخل لة انها قافلة اسى المساء عليها فارادت المبيت هناك والاستراحة فازداد رغبة في العجلة ليلوم بجمدة القادمين بخلافه ان ينسوي الى القصور . وحول وجهه الى الورداء فنادى احد اولاده وقال لة اسرع يا ولدي الى البيت فاحمل الماء جمع الماء لعل هؤلاء الركب يجناجون الى شرب

الفصل الثاني

❁ على فراش الموت ❁

وما زال الشيخ مسرعا وهو كلما اقترب من المسجد ويوقع ان يدين الوحي عارضا تكاثف النشق حتى اقترب قدام ركب ومعهم الافراس والجمال ونسعة رجال وفتاة وقد تجمعوا جميعا نحو ولهة حول هودج عليه الاستار وفيه مريض شديد الدف يحاولون اخراجه الى مقعد في خيمة تصورها بالقرب منه فتمرس الشيخ في اولئك الناس فعلم انهم قادمون من الشام الى المدينة فحبب لمروهم بقاء . وفي ليست في طريقهم اليها . ونظر الى كبيرهم فاذا هو كهل عليه لباس عرب الشام من القباء والرداء والعمامة وبجانبه شاب حسن البزة عليه عباءة من القصب وسبعة مرصع ووراءه خادم يحمل لة الرمح والنبال . وعلى مقربة منها فتاة غضة الشاب قد اشرق وجهها صحة ونشاطا على رأسها كوفية مشدودة بعقال وقفا . ارسلت اطرافها الى ظهرها حتى تجلي نور وجهها

بما أكسبه من الثور على أثر التعب وركوب الجواد أياً ما في طريق الصحراء فلما رآها الشيخ اجتذبت نظره واستلشت انتباهه لما آتته فيها من الاهتمام بامر ذلك المريض وتسلسلها على أذهان رفقائها لأنها كانت ترتد في كيفية حملها ومداراتها في ثقل ووضعها فتجزل الشيخ عن نائقه وصاح يا هلا بوجه العرب وتقدم لما أعدتهم وتفرس في المريض فإذا من امرأة في حدود الأربعين قد ملفت حد التلف وتولاهما الصعف حتى لا ينجأها الناظر الأمانة . فعرض عامر مرة للخدمة فأشارت إليه العاتة ان لا يدنو من المريضة لأنهم انما يريدون حملها باسمهم على اذرعهم فتقضى وامر اولاده ان يساعدوا الخدم في نصب الخيم وانزال الاحمال وسقاء الخمال والافراس وغير ذلك وسار هو الى المسجد للادان والصلاة

فاستغل الركب في قتل المريضة وأكثر من عناية في ذلك القاتلة واسمها اسماء فاني لم تغفل عن اعداد كل وسائل الراحة في قتلها حتى حملتها على ذراعها . ولا عجب فان المريضة والدمع قد شبت على حياها . ولما الكمل فهو زوج المريضة واسمها يزيد وكان قليل العناية في امرها إلا بما نوحوا اليه القاتلة . ولما التاب الحسن الذرة فاسم مروان وكان الاعجاب ظاهراً على وجهه لما يعلم من نفوذه لقراجه من الحليفة عثمان بن عمان

الفصل الثالث

❁ عذراء قرش ❁

فلما قتل المريضة الى فراشها جلست اسماء الى جانب رأسها وأخذت تمسح لما العرق عن وجهها بمدبها والام عاتية عن الصواب واسمها شاختة اليها والدموع مله عنينيها ولكنها كانت تتجلى وتصبر مسها فحرق أسنانها لئلا يغلب البكاء . عليها تسمع والدمع غيبيها فيزداد تألماً . فكانت تمسح دموعها بالمديل خلعة ونظرها لا يحوّل عن وجه المريضة لحظة لا تلتصق بمة ولا يسرع . وكان الليل قد سدل قاتبة فجاءهم عامر بمصباح أدخلوه الخيمة والقاة لا يبهما إلا النظر الى والدمع لعلها تنقح عينيها أو تحرك شفيتها

أو تلتبس أمراً فتقدم اليها لا نعيماً بل الدهاء ولا بذلك الشاب الذي قطع البراري والقفار في خدمتها لعله يكتسب قلبها وهي تكرة أن تراه . وكان قد طلب الاقتران بها منذ كانا في الشام فرضي الوالد ولم ترض الوالدة ولا العتاة . والوالد انما رضي بذلك رغبة في الدنيا وطعماً بمنصب بنانة من الخليفة عثمان بواسطة مروان اذا صار صهراً له . ولم يكن فيه حق الوالد لانه يعلم كما تعلم امرأته نفسها ان تلك العتاة ليست ابنته ولكنه لم يكن يعرف والدها لانه تزوج أمها سبعة من سبائا مصر يوم فتحها عمرو بن العاص سنة ١٨ للهجرة واساء في السنة الثانية من عمرها . فلم يكن بينهما معرفة والدها وبعد فتح الاسكندرية عاد الى الشام فأقام فيها مع أناريو من بني أمية فلم تلد له أولاداً

وكان يزيد كلاً أتمط الشعر قصير القامة خفيف العضل متبعد الوجه غائر العينين طامعاً يحب المال فوق كل شيء سيء الخلق لا ذمة له ولا ذمام . وكان أهل الشام يعتقدون ان اماء ابنته ولكن الناقد يرى لاول وهلة انها تختلف عنه خلقاً وخلقاً فقد كانت من الهبة والجمال على جانب عظيم جمعت لطف النساء وحرم الرجال وشبابهم لا يستطيع الناظر اليها الا ان يجترها وإذا خاطبها آس فيها رقة وإفنة ودعة وعزة . وكانت ربعة القوام ملائمة الجسم حنطية اللون سوداء العين حادتها طويلة الاهداب مقللة الحاجبين صفيرة النم سهلة المجرى عظيمة الهبة لا يستطيع الناظر اليها أن يتفرس في ملاح وجها لعظم هيبتها فاشتهرت بين أهل الشام بكل خلق حسن فأحبها مروان وجعل يتقرب منها وهو يحسب تقربه منه وكراً وكان يظنها لا تلبث ان تعلم بميلو حتى تظهر فرحاً لأن حالها من الدنيا ينحط عن حاله كثيراً فهي من طامة الناس وهو ان عم الخليفة عثمان . وكان هذا الخليفة كالابن يوثر ذوي قرابته من بني أمية ويقدمهم في مناصب الدولة ويضع لهم أبواب الرزق الا المر الذي آكل الى قيام المسلمين عليه حتى تمردوا في عزله وكانت الفتنة المشهورة . وما زال مروان يتردد الى منزل يزيد وكلأها من بني أمية فيجئفل يزيد ويودلو أنه يتزوج ابنته فيحظى لدى الخليفة بمنصب رفيع حتى حدث مروان في ذلك فاجابة وأكد له انه نائل العتاة لا محالة اعتماداً على عادة تلك الابام في أمر الزواج فقد كان الرأي راجعاً الى الوالد في كل شيء

ولكنه ما لبث ان خاطب امرأته في الامر حتى آس منها اعراضاً وإباء ولكنها لم

تكن تعارضة دفعة واحدة بل كانت تدافعة ومطاطلة . وإدركت الفتاة ما بينها من أجلها
فاظهرت نفورها من مروان لأنها لم تكن تعدّه بزخارف الدنيا ولكنها كانت يهوى الشهامة
وكرم الأخلاق فلم يقع مروان من نفسها موقعاً مقبولاً فتمكنت الوالدة من الرفض ويزيد
يزداد الحاحاً . فخافت ان يستعمل العنف في تنفيذ ما ربه فوقعت في حيرة ولشدة ما
قاسته من المقاومة أصبحت بالحصى وهنت قواها فخافت الموت فطلبت ان يحملوها
الى المدينة فجهيم الى طلهم هناك فجهيم لتفصدها أما مروان فسرّ لذلك السفر لأنه
اذا جاء المدينة كان بالقرب من ابن عمه الخليفة عثمان فاذا طادت الوالدة الى التردد
هددها بنضو . فجاء في قافلة ومعهم الخدم من رجال مروان فكان ذلك السفر سهلاً
في اشتداد المرض واساء لا تعلم السر في ذلك الاثقال . فخلت ذات يوم والديها
وعاتبها على ما حملت نفسها من المشقة فأسرت اليها انها انما تنوي الالتجاء الى علي بن
أبي طالب لعله يقضها من أيدي الظالمين لما اشتهروا من غوث المظلومين وماله من
المكانة عند الخليفة وغيره من المسلمين . وما زال المرض يشتد بها يوماً عن يوم وزوجها
ومروان يودان ان تقضي نحبها قبل الوصول الى المدينة لأنها تنمأ شيئاً من حقيقة
غرضها فكانا يطيلان مدة السير ويقودان القافلة في طرق طويلة وفي جملة ذلك
مرورهم بقباء وهي في الجنوب الشرقي من المدينة ^(١)

فبعد وصولهم اليها اشتد المرض عليها حتى غابت عن الصواب وكان النهار قد
انقضى فارتلوا هناك كما تقدم

الفصل الرابع

— سرّ ذاهباً الى القبر —

وكانت تلك المريضة كهلة في نحو الاربعين من عمرها بيضاء اللون رومانية
الملامح كبيرة العينون اسمها مريم وقد زادها الضعف جموحاً وما افكت منذ نقلوها الى
الفرش وهي في سبات عميق واساء الى جانبها ويدها المندبل تمسح بوجين والديها
ونستلقي به دموعها لا تأذن لاحد ان يأتي بحركة لتلاّ يزعم النائمة . ولكنها لم تكن

تستطيع الفرس في ذلك الوجه المتع وتبتك العينين المجاحظتين والشفتين المكمدتين والعنق المستدق وقد غطاه من الجمانين شعر اسود بمحاطة بعض النوب فلما بلله عرق الحمى تجمع خصلًا متلاصقة . وما كان يجنيها بنوع خاص ذلك الصدر الذي يكاد يكون غائرًا لفرط الضعف وذلك الدم الذي اتسع واستطال حتى برز فكاه واستدق الانف وظهر مارزًا . فلم تكن اسماء تتأمل ذلك حتى يخنلج قلبها وتخاف الموت على والدتها في تلك الربة فكانت تعد الى يدها فقيسها لتتحقق حرارتها فتري العرق البارد ينسكب عن اناملها فتزعد فرائصها . وما زادها بلاء وشقاء ان والدها ما برح منذ زولم هناك عنفًا يمرطان في خيمته لا يدخل خيمة امرأتين الا قليلاً فاذا دخل تظاهر بالاهتمام وسأل عنها والمكر والرياء ظاهران على وجهه . ولما مرطان فكان اذا دخل الخيمة دخل متجترًا لا بدنوم من العرائش ولكنه ينظر الى اسماء ويبتسم كأنه يداعبها وهي لا تستطيع الا بتسام ولا تطيق النظر اليه

فلما كان العشاء حركت النائمة رأسها وفحمت عينيها وحولت حديقها نحو اسماء وقد بهتتا من شدة الضعف فهتت الفناء واقفنة وكلها آذان انتلقت أوامرهما وسألتهما اذا كانت تحتاج الى شيء فاشارت بطلب الماء فاسرعت الى قدح فيه ماء ادعته من شبعها فشربت منه قليلاً فانبط وجه اسماء وعاد أمها اليها واحصت تنتظر ما تأمرها به فلما لم تقل شيئاً انصت على جيبها فقلته وامسكت يدها بلطف وقالت لما هل تريدن شيئاً يا أماء

فاجابتها بصوت ضعيف وعيها شاخصتان اليها قائلة « لا لا اريد شيئاً غير سلامتك ولكنني اراني لا استطيع الوصول الى المدينة ولا اعطني اعيش الى الغد فقد شعرت بدنو الاجل » قالت ذلك والدموع تساقط من عينيها فتخلط بعرقها فلما سمعت اسماء كلامها ورأت دموعها اقتعرت جسمها وخنق قلبها ولكنهما محادثت وقظاهرت بالانسام قائلة لا سمح الله سوء يصيبك يا أماء فمالك سنصعبين في خير مركب معاً الى المدينة ماذن الله

فبسمت تسمًا يمازجه بكاء وقالت « لا يا ولدي لا ارجو فناء الى الغد وما اما آسفة على هذا الدنيا ولكن في عسي أمراً اود قضاءه قبل الوفاة »
قلت اسماء وما هو ذلك الامر يا أماء

قالت هوان التي بعلي بن ابي طالب فاختاطبة دقيقتين قبل الموت

قالت غداً ملني في المدينة فاختاطبة

قالت « قلت لك اني لا ارجوان اري صباح الغد يا ولدي »

فهت اما والدتها لثقلها وهي تحاول حس الدمع فضمتها مرم الى صدرها
بنوع لم تكن اساء تهادها فيها وعاقبتها فتساقطت دموع اساء بالرغم عنها ثم احست
بدموع اساء تساقط على عنتها فحنه تمازج ذلك العرق الدارد . فاوغلت ككثامها في
البكاء . واكن اساء خافت على والدتها من الاذى فنهضت وتظاهرت بالتجملد وقالت
لا بأس عليك يا اماء فهل تعالين علياً لتخاطبو بشاً في

قالت نعم وبشأن آخر هو سر حفظه في ضميري اعلماً طويلاً وقد ان لي

ان ابوح به

فقالت ما العمل اذا

قالت استقدموني اليّ فقول لي له ان امرأة على فراش الموت تلتمس لثياله ليهلك

مرراً وتلكم لك امرأة

فنهضت اساء الى الخارج فرأت والدتها ومروان واقفين باراء فخلت في الظلام
كأنهما يساران فلما رأيا ما حارجه اسرعا نحوها معاً وقالا كيف والدتك لثيلها في خبر
فاجابت انما قد افادت وطلبت ان ترى علي بن ابي طالب

قال والدتها وكيف يمكن ان تراه الآن وهو في المدينة

قالت لقد طلبت استقامة اليها ماحتاج

قال مروان استقامة !! ومن يستطيع ذلك

قالت اظنه لا بأبي الهبي . اذا قبل له ان امرأة في حالة التلف تلتمس مقابلتك

وهو في ما اشتهرو من كرم الاخلاق

قال لا امكر كرم اخلاقه ولكنه الآن في شاغل كبير من حال المسلمين واخلاقهم

على المخيلة

قالت واي اختلاف

قال سمعت قبل خروجا من الشام ان اهل الاعمال مايقومون على عمان لانه يؤثر

ذوي قراجه فيوالي العمال منهم ويعزل الذين ولاهم اسلافة . وبلغني ان اهل

مصر خرجوا يلتمسون المدينة ليشتكوا امرم الى علي لعله يتوسط في ما بينهم وبين عثمان . وكذلك فعل أهل البصرة وأهل الكوفة وأظنهم وصلوا المدينة الآن فانذا وصلوها كان علي في شاطئ لا يأذن له بالخروج

قالت وقد ملئت الجدل ان والدي تطلب علياً بالخاح فما عليها الا ان يبعث في طلبه قال فليست واحداً من رجالي وادهب أنا في أثره استجلة في اعاد المهمة . قال ذلك وأمر واحداً منهم ركب واسرع نحو المدينة ثم ركب مروان في أثره وعادت ابيه الى والدها فانما هي قد عادت الى الغيبة واستغرقت في السبات

فكشفت ساحة في انتظار الرسول فلما استبطأته رحلت الحجة ونظرت نحو المدينة والظلام حالك فلم تر احداً فصعدت الى مرتفع اشرفت منه على ابيه المدينة عن بعد فلم تر منها الا المسجد السوي لما فيوس الاوار التي تشعشع في بعض جوانبه ولولم تصعد الى ذلك المرتفع لم تشرف على المدينة لانها قائمة في مسيط من الارض تحدى بها جبال تعذر منها السبول على اثر الامطار فيصبح السهل الجاور لها مستنقعات وأمارة تجنح فيها المياه مدار السنة ونمو حولها انهار الصراف واللسان والحيل وكثير من الاعتناء فلما اطلت ابيه على المدينة ظهر لها ما فيها وبين قباء من مخيمات المياه وقد انعكس على سطحها اشعة الكواكب ضئيلة لعد المسافة هيران ذلك لم يكن ليتعلها عن هولائها في مرض والدها فصادت مسرعة الى الحجة فرأت بريقاً قد نوسد الارض خارج الحجة وام فاستت لما رأت من قلة اكثرائه وضعف احساسه لكما لم تستعرب ذلك والدها صرحت امامها غير مرة ان هذا الرجل ليس والدها الحقيقي وكانت ابيه تلج في استطلاع اسم والدها وأنها ندها بالجناب من وقت الى آخر فلما رأت ما بلغت اليه والدها من الضعف في تلك الليلة خافت اذا اصحابا سوءه ان يبقى والدها الحقيقي مجهولاً عدها قدمت من فرائدها وهي لا تزال عاتية فامسكت يدها الباردة وليست جبينها الرطب بما يتساقط منه من العرق فاضطربت جوارحه وخافت ان يصبب والدها سوءه وهم في ذلك التمر واستكسبت ان تخاطب والدها في الامر احتقاراً له فبعثت بالخروج لاستخدام سادس الجابع لعلها تشاهد عند امرأة امتا من ما فرأت والدها تحرك رأسها وترفع يدها كما بها ابيه اليها ان تدنو منها فدنست وجهت بها فقلتها وقالت ماذا تريدن يا أماء

قالت ألم يأت علي بعد

قالت لم بعد رسولنا

قالت أخاف أن لا يعود وقد مد صري وطارث فواي . استقدموا علياً قبل أن

تلت العرصة

فقلت لا يلبث علي أن يأتي . ألا نوحين لي بما تريدن أن تقولي له . ألم يأن

لي أن أعرف من هو والدي

قالت سنعرفه متى جاء علي . ثم تهتدت وقالت آه متى يأتي

الفصل الخامس

المدينة المنورة

فلما سمعت أمه ذلك ثارت الحسبة في رأسها وملت الانتظار مع ما نطقت من
غرض مروان فحامت أن يكون دهاة في أنرا الخادم سباً في ذلك التأخير والوقت
تمن فعولت على المسير مسها وهي لم تدخل المدينة قبل ذلك الحين ولكنها استسلمت
كل صعب في سبيل مرضاة والدتها مع شدة رعبها في استطلاع ذلك السر فقدت
الكوفة حول رأسها وتامت بها حتى لم تبق طاهراً إلا عباها وترملت بالصباة فوق
بهاها ما خست رداءها السائي وركت جلودها وكان لا يزال مسرجاً وانقطعت
الدعا وأوصت بالدعا خيراً وقمت بالخروج فلم يطاوعها قلبها خوفاً على والدتها
موقست مخيرة ثم تذكرت خادم الجامع فسارت اليه وكان قد فرغ من الصلاة فسألته
عن أمرأتها فقال هي في خدمتك وبأدائها لجماعت فاداعي عجزها ولكنها نشيطة سمحة
الوجه فارصتها أن تساعد والدتها في السهر على والدتها في أثناء غيائها وخرحت ولم
تجر والدتها للآتمها من الذهاب واتخذت إوار المحمد السوي وحيبتها وهربت الخواد
وكان من اصائل حبل محرق وهيتارة يمحس في مستنقع وطورا . صعد على اكة وهي
لا ترى شيئاً لمرط قلبها واضعراها إلا اصاح الحبل واللسان وربما حسنها لسرعة جري
الجراد انما سافرة محوها وكانت كلما سمعت قرعة او صلا لأحسب رسولها طائفاً لم لا

ترى أحداً وفي الحقيقة لم تنع الأ فوق الضفادع وصرير الصراصير ووقع حوافر الفرس حتى دنت من سور المدينة وأحدثت إلى مايا فدخلت منه إلى أسواق صيقة منجزة لا يكاد الفرس يستطيع المرور فيها^(١) فرأىها على ضيقها مزدحمة بالناس وأكثرهم من الغرباء فعملت أن ما قاله مرطان صحيح فسال رجلًا بيع الثمر عن منزل علي فدلها عليه وهو يحبسها رجلاً فهزمت الجهاد طارعت فلم تبلغ باب المنزل حتى كما جوادها فسطت وكادت تصيب جنبها فاستلفت الأرض سديها وأصاب رأسها غلة قائمة أمام الباب فنهش قليلاً ولكنها لم تال بل نهضت وانست باب المنزل ولم تكن تدركه حتى سمعت صريراً فوفقت فتتفرقة فخرج إليها منه شاب طويل القامة لم تشين وجهه لهذا الظلام وكان قد سمع كوا الجهاد فاسرع لحن فرأى فارسة قد وقف وهو لا يزال ملأفاً فاستنقه وسأله عن عمره وهو يظنه رجلاً

فقال أماء العلاء مولانا علياً في المنزل

قال كلاً ليس هو هنا الآن ماذا تبغي منه وارى من همتك وهجنتك انك آت في

أمر ذي مال فما حركه

قالت نعم لقد جئت بأمر هام ولكني لا افولك إلا لعلي بنفسه . أين هو

قال انه خرج في الدروب إلى المسجد وقد مضت صلاة الغروب وصلاة العشاء

ولم يعد بل تذهب معي للفتيش عنه هناك

قالت نعم هلم بنا والجامع على مقربة منها فمتبنا وكل منها يتوقع الوصول إلى باب

المسجد ليرى وجه رفيقته في الضوء لعله يعرفه . وكان الشاب أكثر رغبة في ذلك لأنه

استغرب صوت أماء . ولم تشين شيئاً من تباها لالتعادها بالصلاة والكوفة أما هي فمشيت

نفوذ جوادها وراءها حتى وصلا الجامع فادا هو مردح بالناس بين جاثٍ وواقف

ولم يبق موقف لعليل وكلهم صامتون وقد تكاثرت أعاسهم وأبعثت من باب الجامع

حارة ممزجة برائح أجسامهم وأنوابهم حتى لقد بشمر المار بالازدحام وإن لم يزل الناس

فلما وصل الرفيقان إلى الباب واستأارا بمصاحح الجامع نظر كل منها إلى زميله لعله

يعرفه فرائت أماء أن رفيقها رجل حسن اللباس يظهر من مجمل حاله أنه من كبار

الصالحين وبعض أولادهم . أما هو فلم ير غير اللثام فاستغرب ثنيتها والخشبة منقطة عن القري

الفصل السادس

— عثمان بن عفان —

وارادت اماء الدخول الى الجامع فامتنع عليها المرور لكثرة الازدحام وجمية
 الاجتماع فوقفت عند الباب وهي على مثل الجمر والرفيق الى جانبها وقد تدمر من ذلك
 الانتظار فارتاحت لما آمنت من شعوره معها وعلت ان الدخول الى علي يستحيل
 اذ ذاك فدعاها الرجل للاجتماع على البعاء وهي مقاعد من الحجر أو الخشب أنشأها
 عمر بن الخطاب خارج الجامع يجلس عليها الناس للاستراحة او المعادة أو الماشة فلم
 تستطع اماء جلوساً لعظم قلعها ولكنها البست مكأاً تربط فرسها فيه اذا اضطرت
 لدخول الجامع فأمر رفيقها علاماً من يلتقطون السوى في اسواق المدينة وهم كثيرون^(١)
 ان يمسك الفرس فاسكته وسار به الى مواقف الدخول بن الانتظار هناك
 أما اماء فنظرت الى صدر المسد فرأت على صدر رجل أربعة ليس بالطويل
 ولا القصير حسن الوجه لولاً ما عليه من اثار الحدري كبير اللحية عظيمها وقد صرعا
 بالحاء امر اللون اصلع الرأس عظيم الكراديس عظيم ما بين المكين وكان واقفاً
 على المدر^(٢) وقد نوكأ على سيف واجال نظره في الحضور ثم بالكلام . فنظرت
 اماء الى رفيقها مستبهمة عن الرجل

فقال انه الخليفة عثمان بن عفان يجلب في الناس

فقال العله هذا الجميع كله من اهل المدينة

قال كلاً بل هم وفود اهل مصر والصرة والكوفة وقد جاؤا يتكون عفان هذا
 ويتدمرون من تصرفهم معهم فشكوا الى علي فأنة علي في هذا الصباح فاستدعاهم الى
 هذا المسجد ليحطب فيهم واظنة سلتهم ليسو عذراً فسمع ما يقوله

فنظرت اماء الى الخليفة وعياها لاقنان عده لتصمغ حواسها فرأت مجاهو
 رجلاً عرفت انه صاحبها مروان فقالت في مصها من الشاب هو لقد جاء الى ابن
 عمو وسي المهمة التي جل بسنة متدبراً في انعامها . وجالت بطرها في الجمع متعسة لعلها

نرى عليها على اهلها لم تكن تعرفه فقالت لرفيقها ألا ترى عليها بين المجموع
قال اظنني رأيتها - نعم اني اراها جالسا جثوا بقر المذبح وقد أطرق بفكر -
فظننت اليو فانذا هو فوق الرصة ضخم الفضل جميل الخلفة وقد وحطه الشيب فلم
يصبح شعرة وانست فيو على شدة هواجسها ابتساما ظاهرا في وجهه ففجرت عند رؤيته
بارتياح^(١) واستأنت بطلعتو وحدتها نفسها ان تخترق الجماهير اليو فارقتها الحياه
وعطت اهلها اذا فعلت ذلك شوش الاجماع فضلا عما في هذا العمل من الوقاحة -
فلبثت تتنظر فروغ الخطيب من خطايو وفي كآتها على البحر

أما عثمان فانه انتصب كما تقدم ويثاء على السيف وفي ترنمش لعظم تأثره ثم
مسح لحية يسراه ومشط شعرها باصابعه والارتعاش ظاهر عليه لعظم الاضطراب -
فحمدا لله واثني عليه وصلى على الرسول ثم قال وصوته يتقطع :

« يا اهل الامصار قد جئتم من البلاد البعيدة تطالبوني بامور لم اكن انا الذي
ارتكبها وحدي فان صاحبي اللذين توليا اموركم قبلي (يريد ابا بكر وعمر) قد
ظلموا انفسها - وان رسول الله (صلم) كان يعطيني قرابة - وانا في ريعط اهل عملة
وقلة معاش ففسطت بيدي في شيء من ذلك لما اقوم يو فيو فان رأيت ذلك خطأ
فردتو فامري لامركم تع - ولما ما تريدونه من الفتنة او المخلع فانكم قد اسرعت في ما
هزمتم والله لئن فارقتكم الا لتتمنوا ان همري كان عليكم مكان كل يوم سنة لما سترون
من الدماء المسفوكه والاحن والاشرة الظاهرة والاحكام المفوتة^(٢) »

وكان علي في اثناء الخطاب مطرقا مصغيا لا يبيدي حراكا حتى اتي عثمان على
الفقرة الاخيرة فحرك علي حاجبيه وحنى رأسه تصويبا لقوله « لما سترون من الدماء
المسفوكه الخ ... »

ولما اساء فلا تسل عن قلقها ومللها وكان رفيقها واقفا الى جانبها وقد شغل عنها
بما ثار من عواطفها عد ساعه كلام عثمان ومال بكليته الى انهام رفيقو المثلث جليلة الخبر
تدفقا من عثمان - ولكذا اراد قل ذلك ان يعرف من هو - فتقدم اليها ان تحسر
اللاثام فاجاست انها تحسره بعد تنذر - فتشم من لهجتها صوتا سائما ولكذا استكران يظهر
في الساء مثل هذه الهمة - فصر نغمة ريثما يقضى الخطاب وقال لها « اراك يا سيدي

خالي الذهن من مغزى كلام الخليفة ولكي تفتحه اوضحه لك باختصار . فاعلم ان
خليفتنا هذا هو ثالث الخلفاء الراشدين تولى الخلافة منذ بضع عشرة سنة وحالما تولها
هرل الولاة الذين كانوا قبله من ولائم الامام عمر (رضه) وولى مكانهم رجلاً من
بني امية اي من اقارب ووسع ابواب الرزق لاهله وضييقها على سواهم فثار المسلمون في
الاعمال (الولايات) وم اهل مصر والكوفة والبصرة اما اهل الشام فانهم على دعوة
عثمان لان عاملهم هو معاوية بن ابي سفيان من اقرباء الخليفة واما اهل الاصمار
الثلاثة الباقية فتقبلوا على هذا الرجل وجاراً في رحابهم يطالبون بما اقتروا ويطلبون
خليفة وتولية غيره مكانه . ولا يلحق بالادب . هؤلاء جميعهم اتوا في ابي طالب
فانه ابن عم النبي (صلم) ووسيلة . في الصلاة الذي يسمون بالخلافة .
اثني آخرين ما طلعه والوزير . فانه اذا خلع عثمان تارعهما ثلاثة علي وطه
والوزير فوفد مصر يريدونها علي وفود الكوفة يريدونها للزبير وفود اهل البصرة
يريدونها لطلحة ولكنهم متفقون جميعاً على خلع عثمان هذا . واما علي فلا رغبة له في
الخلافة وكذا يخاف الفتنة بين المسلمين بسبب ذلك الخصام »

وكانت أسماء تسمع كلام ربهما وهي لا تفهم منه شيئاً لعظم اضطرابها ولكنها لم تكن ترى بداً من الصبر لان عفان لا يزال يتكلم . وما اتم عفان كلامه حتى ضج الناس فسلمت ائمه خارجون فحمدت الله على مراغم فضلت ربهما فخرج الجميع وقد شاعت حينها وهي تفرس في المجاهر لعلها ترى علياً خارجاً معهم . فخرج الكل ولم تر علياً بينهم فقولت نحو الجميع وكان ربهما قد سمعا اليه فوقفت تنتظر فعاد وحده فلما استقبلها سألتها هل رأت علياً خارجاً فقالت ايها لم تره فعمل بيوت بين الامه وسألم عنه فلم يجبه بجبهه احد

الفصل السابع

—*— الحجرة النبوية *—

نعداد الى التجميع ومن خلال من "أبديت" في "التي" - مع فائدة
المع ان يسموها من الدخول ويكتبه ن - تم - ثانيا - لت أن من كبار م

فدخلوا من الجامع ومنه الى المسجد - فرأت المكات خالفاً فوقف الرجل ووقفت
اسماء وجعلوا يفكران وبعد برهة قال الرجل « أظنه دخل حجرة امرأتو فاطمة بنت
النبي (صلم) فاعيا مدفونة في حجرة بازاء هذا المسجد وكثيراً ما كنا نراه يدخلها
لزبارة ذلك الاثر الشريف فلا بد من الاحتظار ربنا يخرج »

فقلت لا صبر لي يا مولاي على الانتظار دعني أدخل اليها وحاطبة فان الامر
الذي جئت من أجله يستدعي العجلة وهب اني اسأت الادب في استجماله فتى عرف
السبب عذرتي . دعني أدخل الحجرة

فاجابها بصوت خافت « تمهل يا صاح لتأكد دخوله اليها » ومشيا الموبنا وما
حافيان لا يسمع لمشيتهما وقع حتى انفصلا من المسجد الى الحجرة من باب صغير . والحجرة
بناء مربع واطى السقف في وسطه ضريح السيدة فاطمة . وكان شديد الظلام الا مصباحاً
ضعيفاً كان منيراً فوق الضريح . فدخلوا الحجرة بتلّسان والرجل ممسك يد اسماء
وما داخلان طعنهما محملقة يتفرسان وقد أصغيا والسكوت سائد على ذلك المكان
مع ما يملو من الهيبة وقد زاده الظلام رهبة فوقها لحظة لعلها يسمان خطوة او نطقاً
او يريان شيئاً فلم يسمعا شيئاً . فهالما الموقف ولم يجرأ احد منها على الكلام ولكنها
تتاها بالاشادات على الرجوع وفيها ما يحولان سمعا صوتاً عميقاً كأنه خارج من القبر
فاقصر بدناهما ووقف شعراً سبها والرجل لا يزال قابضاً على انامل اسماء فلما سمعا
الصوت شعر بارتعاش تلك الانامل شعوراً امتد الى كل جوارحه فأوما اليها ان
تصت فاصتا فاذا بالصوت خارج من حجرة الرسول بالقرب من حجرة فاطمة وبينها
حائط واصفها فاذا هو صوت علي بن ابي طالب بناجي الرسول بصوت يتخلله تحرقق
وزفير . فوقنا وقلباها بمخنفان وما يسكان انفسها كأنها يخافان ان يختلط زفيرها
بما يسمعان . واليك ما سمعاه :

« قم يا رسول الله تعهد أمتك وانظر الى ما آلت اليه حالها من بعدك لقد
بعثك الله تنذيراً للعالمين طمينا على التنزيل وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ولا
يتدى نبوة وقد كانوا على شر دين في شر دار يشربون الكدر وبأكلون الجشب
ويسدون الاصنام ويسكنون الدماء ويقطعون الارحام . فسنت الناس حتى بن آئهم
محلهم وناختهم مناجيهم فاستقامت دينهم واطمت صمايهم . وجعل الله الاسلام أمناً لمن

عطية وسلمًا لمن دخله وبرهانًا لمن تكلم به وشاهدًا لمن خاص به ونورًا لمن استضاء به
وفها لمن عقل ولبا لمن تدبر وعبدة لمن انتعظ ونجاة لمن صدق وثقة لمن توكل . فقام
ببصره قوم دُعوا الى الاسلام فلبسوا وقرأوا القرآن فاحكموا . قوم لا يبشرون
بالاحياء ولا يعززون بالموتى . مره السبون من البكاء خص البطون من الصيام ذبل
الشفاء من الداء صفر الالوان من السهر على وجوههم غبرة الخاشعين . وقد كنت
يا رسول الله تأكل على الارض وتجلس جلسة العبد وتخضع نعلك بيدك وترقع
ثوبك بيدك وتركب الحمار العاري ولقد يكون السر على بابك عليه التصاوير
فتقول يا فلاة من ارضك غيبه عني فاني اذا نظرت اليه ذكرت الدنيا وزخارفها .
وكنت يا رسول الله اذا احمر لباس طاحم الناس تقدم اهلك فني هم اصحابك
حتى قتل عبيدة بن الحارث يوم بدر وقتل حمزة يوم احد وقتل جعفر يوم
مؤتة ^(١) . هه هي سلكك وتلك هي قدوتك . فلما فارقتنا خلفك شيخ (ابي
بكر) حارب المرتدين طأ به الدين القوم وعلمته رجل فبح الامصار ودوت
الدوليين وشاد للعدل منارًا فاعتز به الاسلام وامتدت رايته الى العراق وفارس
ومصر والشام وفرن وجنوب كسرى وقبصر . والناس يؤمنون مجتمعون حول الدعوة
أخذون بناصرها بقلب واحد ورأي واحد حتى تولام عثمان وهو شيخ صادق الاسلام
ولكنه استأثر بالسلطة وأكتر اهله على سائر المسلمين فقاموا عليه قومه رجل واحد ^(٢)
وتجمعوا على نذ طاعته وأقره على علمه لا تريمهم خلافة ولا يجشون سطوته . كأن
الناس انما أذعنوا لأهل السابقة من الصحابة لما كانوا فيهم من الذهول والدهشة لأمر
النبى وتردد الوحي وتنزل الملائكة فلما انحصر ذلك العباب وتوفي الحال واستفحل
الملك أمنت نفوس المسلمين من غير قریش وهان عليهم نذ طاعة الصحابة ^(٣) حتى
بلغ من جرأهم التمرد على الخليفة فعظمت الفتنة وخبت ما خوفتني يوم سألك عن
الجنة قلت لي « يا علي ان القوم سينتفون بعدي باموالهم وعيون مدبهم على رءسهم
ويؤمنون رحمة وبأمنون لسطوتهم ويحفلون حرامه بالشبهات الكاذبة والاهواء
الساخية » . آه يا رسول الله ولقد طالما نصحت لهذا الخليفة ان لا يكون امام هذه الامة
المفتولة فانه كان يقال « يقتل في هذه الامة امام يفتح عليها القتل والقتال الى يوم

فظهر علي* اليها فعلم انها متكررة لا مردي بال فقال لها ما عرضك يا اخا العرب
قالت لقد جئت ادهوك لغوث امرأة مريضة في حالة الخطر الشديد تلهس ان
تراك لتبث لك سرا ضمنت يوطينا جميعا
فقال ومن تكون هذه المرأة

قالت هي والدي واما والدي فهو من بني امية وقد جئنا بها من دمشق ففعلت
مضايق السفر والمرض علي أمل ان تلغ المدينة فتطعلك علي ذلك المرافقة عليها
المرض حتى لم تعد تستطيع الوصول
قال اين هي الآن

قالت هي في قباء علي مقربة من هذا المكان
قال فما بنا اليها . هل ترافقنا يا محمد
قال اني في خدمتك حيثما سررت واذا رأيت ان اقوم بهذا الامر دونك لما انت
فيه من الشواغل الكثيرة ففعلت ففتي انت هنا

قال لا بأس من ذلك ولكنني اخشى ان يكون حضوري عندها ضروريا وهي
يا محمد امرأة في حالة المرض الشديد يجب عليها غيبتها . قال ذلك ومضى ومضى
الاثنان في اثموم ومحمد ينظر الي اسماء خلسة لعله يستطلع شيئا من امرها . وفي طلب
الي الله ان يجعل علي* في الخطى ولكنة لم يمض قليلا حتى لقيه رجل مهول وطويل
امارات الشعة . فقال له علي* ما وراءك يا غلام
قال لقد حاد المصريون اليها بعد خروجهم

فقال وكيف حادوا وقد عهد ام راضين بها وعدم مخالفتها من الاصلاح
قال لا ادري الا انهم حادوا اليها غضابي وم يتظروني في قباء دارك
فقال علي* لا حول ولا قوة الا بالله . وسار وهو يهرأ رأسه وينظر الي محمد وكان
محمد في مثل حاله من الحجب لما سمعه . فقال علي* ما بال هؤلاء القوم لا يرمون لنا
بالا اني ارى مشكلتهم هذه لا تصل الا بقية تأويل الي النسل فوالله انهم يرمون امرأ
عظيما اخشى عليه اختلال الحال

فقال محمد لا يخلو رجوعهم من امرني بال . وأسرعا حتى أنها يبت علي فرأيا
الاسم عند بابو زرنات ووجدنا من فارسي وراجل وقد علت ضوضاؤهم فلما

أشرف علي^١ عليهم ترجل^٢ الراكبون وهروا^٣ الواقفون نحي^٤ وفي مقدمتهم رجل لا يزال
بجانب السرفمخا علياً فرد^٥ النحية وقال له ما الذي عاد بك اليها وكنا قد فوضنا
الخلاف بينكم وبين عثمان ووعدكم خيراً

قال انه لم يعدنا الا خداعاً . قال ذلك ومضى فاستخرج انبوبة من الرصاص
فصاها علي^٦ وبشى الى مصباح مضيء عند باب الدار ونظر فرأى فيها صحيفة من
جلد استخرجها وقرأها فاذا هي كتاب من عثمان الى عامله بصرياً من فيها يجلد زعماء
المصريين الذين قدسوا المدينة لاطاليلهم وحسبهم وهاقي لحام وروثهم وصلب
بعضهم^(١) ففت علي^٧ لذلك وتأمل الصحيفة فاذا في ذيلها ختم عثمان وكان بينهم
كلمة هذه العبارة « لنصبرن اولئذمن » ففتق انه ختمه فقال وما الذي اظنركم
بهذا الكتاب

قال رحبا المدينة بالاسم علي ما وعدنا هذا الرجل من الاصلاح وصدعنا بامرك
لم تكذ فخرج حتى لينا غلام عثمان علي بصور من اهل الصدقة فتفتشنا متاعه فوجدنا فيه
هذه الانبوبة وفيها هذه الصحيفة

فقال علي^٨ انا لله واما اليه راجعون . ما بالناس لا تكاد يرقن نقفا حتى يرى غيب^٩
ما الذي غيبر عثمان وحمله على هذا العمل

فقال محمد بن ابي بكر انها فعال مروان بن الحكم ان هو قد كان عائداً في
الغام ولم يأت المدينة الا في غروب هذا اليوم ونظفته هو الذي اخرج عثمان
على ذلك

فتأفف علي^{١٠} وقال تامل هذا الغلام انه لا يدل الا الى شر
فلما سمعت اسماء ذكر مروان عرفت انه هو طالها ورفيق سفرها فازدادت كرهاً
له وقالت في نفسها قبحه الله انه لا يبرح عثرة في طريقنا وانفتحت ان ذلك سيكون سبباً
في عدول علي عن السير معها فكلمت محمداً

فقال لا تخف يا صاحب انا مفيدوك . وخطب علياً بدأ بها فقال له الي
اخاف اذا برحت المدينة في هذا الليل ان يقع ما ندمنا يوم سرت يا محمد مع هذا
الزبل وانامل ما تراه ورمي في كل غور يرجوه وعد الي بالخبر

فلم تعد تجرأ أسماء على الالتحاق ففست بما وقع مخافة أن يقع ما هوشتمته فالتفتت إلى فرسها فإذا بالفلام يقوده وراءها فتبهأت للركوب . وبست محمد فاستقدم فرسه وركب الاثنان ومحمد ينظر إليها وهي تركب لعله يرى بعض ثيابها تحت العباءة أثناء الركوب فلحق من ثوبها شيئاً أحمر اللون يشبه ثياب السماء ولكنه ما زال مستبعداً صدور تلك المجساة عن امرأة

وأغار الاثنان بالتمسك قباء لا يكلم أحدهما الآخر ولكن محبداً كان شديد الميل إلى معرفة حقيقة رفيقته بعد ما اشتبه يوم من حاله . فخرجوا من المدينة والظلام حالك وبعد منهية اشرفا على قباء . فلما أطلت أسماء على خيمة والدتها عرفتها من النار المضيفة خارجها فحنق قلبها مخافة أن يكون قد وقع في أثناء غيابها ما يوجب حرماً فهزمت الجواد فطار بها حتى سبق جواد محمد فاعجب محمد بلباسها على منه . ولم يدركا الحيمة حتى خرجت امرأة خادم الجامع لاستقبالها فترجلت أسماء عدا باب الحيمة وترجل محمد فدخلت وهي تحمل خيال كوفتها وتزرع العباءة عن كتفها ودنت من سرير والدتها فإذا هي قد افافت وفقت عينها ونظرت إلى أسماء بلفه وعينها تنظران إلى باب الحيمة كأنها تنتظر دخول أحد وقالت ابن هو طي

فخافت أسماء إذا أخبرتها الحقيقة أن تحدث لما كدراً فبزيد مرصها . فقالت لما أنة آت يا أماء . وأغرورقت عينها بالدموع

أما محمد فقد كان في اثر أسماء يتفرس فيها على نور الصباح فلما زرعت كوفتها رأى شعرها من وراء طويلاً مسترسلاً ثم زحمت العباءة فان رداؤها الأرجواني اللامع وهو عبارة عن قفطان من الدباج عليه مطة من جلد عريضة تعودت لبسها في السفر فتحنق أنها فتاة فتشعر بانعجاب غريب ولم يبق بعد ذلك إلا أن ينظر إلى وجهها فأسرع في إثرها حتى دنا من السرير فاعترضه منظر والدتها . وحالما وقع نظره عليها هاله نحوها وفرط سقامها وامتناع لونها وخوص عينها ولكنه التفت إلى أسماء فإذا فيها فضلاً عن الجمال همة وجلال كأنما هي ملكة وجوار معاً فلم يتالك عن الإعجاب بها والانعطاف إليها واحص باحساس غريب نحوها

الفصل التاسع

﴿ ضیاع السر ﴾ -

اما في فقد كانت في شاغل عن حالها في فيوم من الفلق على والدتها وكانت قد تعلمت قليلاً لما رأتها صاحبة وم نمت على عودها بلا على ولكنها ابنت ان هبة لم يكن ممكناً والناس في انتظاره عند منزله على تلك الصورة . ثم حولت مريم وجهها نحو محمد وعينها شاخصتان اليه لا تحركان الا بكفة فلم تنفس فيه قليلاً حتى تساقطت دموعها على خدها . فلما رآها محمد تبكي انظر قلة غناطها قائلاً كيف انت يا خاله

فقال السائب ابن ابي بكر

فلما سمع قولها افشع رجسه واعدها قائلاً أجل اني هو وماذا تأمرين

فالت ابن هو على*

قال قد بعثني لانيوب عنه لانه في شاغل هام فأمرني بما تريدن

فالت لا اريد احداً غير علي ادركوني و . لا اريد احداً سواه . فالت ذلك

وظهر الكدر على وجهها

فجست اسماء لما سمعت والدتها تذكر اسم ابن بكر وشعرت منذ سمعت اسمها من فيها بارتياح اليه ولكنها تمررت لاصرارها على استخدام علي فالت الا تزالين علياً

فالت لا ازال اطلبه نعم لا ازال اطلبه ادركوني و فان في نفسي سرا لا ابوح
يو الآله ادركوني و قل انقصاء أجلي

فظرت اسماء الى محمد نظرة استغاثت آثرت فيه تأثراً غريباً وشعر كأن نظرها اخترق صدره حتى وقعت سهامه في قلبه فتعوض للحال وقال لاسماء اذا لم يكن بد من استخدام علي فاني ذاهب لاستخدامه وخرج فامتطى جواده وهره بئس المدينة وعول على ان لا يعود الا و

وخرجت اسماء لتنظر فسمعت وقع اقدام جواده يحترق السهل وتذكرت والدتها فبجنت عنه فاذا هو نائم في خيمة اخرى لا يبالي بشيء فلم تكتثر و

وعادت الى سرير والدتها ولها يخفق خوفاً عليها فاذا هي قد غيبت وضعها فتمسكت الي جنبها الآخر واطبقت اجانها بعض الاطباء او هي ارضها وحينها متوحشان على كينيتها لم يهدئا فيها من ذي قبل ورأت حدقتهما قد جدتا ونحستا فخافت من منظرهما فتأدت العبور وكانت قد خرجت لغرض فقالت لها ما بال أمي قد غيبت وضعها وما بالي ارى عليها شاخصتين جامدتين

فبغت العبور وقد ايقنت ان المريضة في حالة التزع وخصوصاً لما رأت كنفها يخنلق وتنفسها يصرع . فاستمع لون العبور وظهر الخوف عليها فادركت اماء خوفاً فصاحت بها ما بالك خامة الملّ والدتي في خطر

فالت عسى ان لا يكون خطرها ابتي والآنكالي على الله . وخرجت مسرعة فاضطربت الفتاة وهمت بيد والدتها فجسها فاذا هي ماردة جافة ونظرت الى عليها وقد غارتا في تجويفها وذهب لمانها فارتعدت فرائصها وخافت خوفاً شديداً وأسرعت الى باب الخيمة لتستقدم العبور

وفيا هي تقول سمعت والدتها شجرت تهرع عينة فاجلثت وعادت الى السرير وهي تحسها ستنكم . فاتحنت عليها لتفلسها في حينها فاذا هو بارد جاف فافتسر جسها وازداد خفقان قلبها واصطكت ركبتيها ولم تكن رأت ميماً قبل ذلك المحين فتأدت العبور فانت فجعلت اماء تنظر اليها وتبين عواطفها فرأها في وجل فازداد خوفاً فاعادت النظر الى وجه والدتها فاذا هي فاتحة فاهها وقد برز فكاهها وانسع شدقها واستطال وسكن اخنلاج صدرها وبرز انها واستطال وانسع مخراها وأكد استنفاع لونها . فنظرت اماء الى العبور فرأنها قد خرجت من الخيمة فتبعها فاذا هي تنادي بزيكاً وصوتها محنت ففتفت وقوع المظفور

فعدت الى السرير وصاحت يا أماء اماء فما من حبيب فصقت بدأ بيد ولطمت وجهها فاذا بالعبور حائفة وهي تلطم وتقول « حليّ شعرك يا ابتي ان والدتك قد ماتت واحسرتها »

فحلت اماء شعرها واخذت تصيح وتلطم وجاء بها العبور برماد لطخت به رأسها وكان والدتها قد افاق فجاء واخذها في العويل والنوح . فجمع اهل القرية على صياحهم وعلا النوح ولم ينزل احد منهم فعل اماء فانها كادت تقتل نفسها لفرط البكاء

والندب واللعن وعينا كما لم يحفظون عنها فكم التفت نفسها فوق والدعها وتوسدت
جنبها واخذت في تميلها وهي تقول لمن تركني يا أماء ولين اشكوهي بعدك ومن يجبر
عليها عن السر ومن يجبرها من غدر الخائفين آه من الزمان العلى أهلك قد سافنا الى
هذه الصحراء لتدفي فيها ما الفائمة من بقائي بعدك وقد اصحمت بتيمة فريدة لا سند لي
ولا معين

واما والدعها فكان يتظاهر بالبكاء ولا تدرف له دعة
وفيما هم في ذلك سمعهم اماء يقولون « جاء علي » فصاحت صيحة ارفع لها المكان
وقالت « لقد ابطأت يا ابا الحسن ان والدتي ماتت ومات سرهما معها » ثم نظرت
الى امها وكانها قد غطوها بلاءة وقالت لها « قومي يا أماء احسري فابك فقد جاء
علي قومي اليه واطلبوه على شرك . قومي اشقي على ابتك »
أما علي فترجل وقد شغلة النظر الى الفتاة عن الالتفات الى المينة . وكانت اماء
قد توردت وحتما وذبلت عيناها وتكسرت اهدابها لما السكب عليها من الدموع .
وما زادها هيبة ووقارا استرسال شعرها الاسود الى ظهرها وصدرها وحول كنفها
وقد غطى معظم وجهها ناهيك عن انكسارها وذلك من الحزن والبأس فانها يزيدان
المجال جذبا . وكان اكثر الناس تأثرا من منظرها محمد بن ابي بكر فانه لم يمالك
عن البكاء لما لقيه من المثل في سفره وقد انهك جواده سوقا واصفقت عليها على القدوم
بالرغم عما كان فيه من المشاغل ووعده بالاطلاع على سر عظيم وظن نفسه قد عاد
ظافرا فرأى النمل يتظلم هناك

وحالما وقع نظر علي على اماء شعر بانصاف غموها وتوسم في طلعتها ملامح
ارتاح الى التفرس فيها فحمل ذلك الانعطاف محبل الشفقة لما اتفق من تعاسة تلك
الفتاة وندم ندما شديدا لتفادته عن الحبي . معها واحسن بالتزامها من اسبابها جهد طاقته
فوقف وقفة معتبر لمصر الانسان ثم اجال بصره في الناس وم سكوت يسمعون وقال
« ما اصف من دار اولها عناء واخرها فناء في حلالها حساب وفي حرامها عقاب من
استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن ومن ساعاها فاته ومن قد عينا طائفة ومن
ابصرها بصرة ومن ابصر اليها اعنة . انظر الى هذا الميت فقد قبض نصر كما
قبض سمعة وخرجت الروح من جسده فصار جيفة بين اهل ولا يسعد باكيها ولا

يجب داعياً . اعطوا عباد الله انكم وما اتم فيو من هذه الدنيا على سيل من قد مضى
قبلكم من كان اطول اعماراً وايد آثاراً فاصبحت اصواتهم هامة ورياحهم راکنة
وديارهم خالية وآثارهم عافية واقاموا في منازل شيدت بالتراب اهلها لا يستأمنون
بالاوطان ولا يتواصلون تواصل الجيران على ما بينهم من قرب الجوار وكيف يكون
بينهم تراور وقد ظنهم بكلكلو البلى واكثفهم الجنادل والثرى» (١)

وكان علي بنكم والدموع تساقط من عينيه هادئة قد خرج على لحنه . فاعجب
عبد لما آتته في ذلك البطل من الحنو وافقه الحزن ما يكي الرجال

ولكن علياً تجدد واخذ يخفف هن اماء وكانت جالسة الاربعاء فتقدم اليها
وأمسكها بيدها وقال لها نصبري يا ولدي ان الحزن والبكاء لا يجدياننا نفعاً . ان
والدتك قد سقتنا الى دار اللقاء الاخير . واما ما تذكرينه من الهم فلا تخافوه لان
الله وكل بالتماني واغضبي لك والدأ ثانياً والي همك بعد الله على علي واصبري ان
الله مع الصابرين

فهمضت اماء وقد سقط منديلها من يدها فمضت دموعها بكمها المسرسل من
معصها فعلقت ازرارها بشعرها فانحسر بضه عن وجهها فاطرقت شجلاً واجابت علياً
وصوبها عفتنق وقالت « شكراً انتهاتك يا رجل المسلمين ووصي خاتمة النبيين الي لا
اشك هو اساتك ولا ارى راحة الا برضائك لان والدتي هذه (قالت ذلك واشارت
اليها وقد خففتها العبرات) قد فاضت روحها وهي تذكر علياً وتناديه وفي صدرها سر
ازمعت ان لا تنوح بو الا له فما قد ذهب سرها معها الى القبر فياليتها باحت بو
لاحد او باليتي المحنت عليك بالقدوم ولكن ما الحيلة وقد قضى الامر » . قالت ذلك
وحرقت باسنانها وعادت الى البكاء ولكنها خفتت من اللطم والندب احتراماً لعلي
اما محمد فلا تسلسل عما خالج قلبه من الانطاف وما احس بو من الجمل الشديد
الى اماء حتى شعر ان المصيبة واقعة عليه ولا يدري بماذا يعزجها ولا كيف يخفف عنها
وردة اللقاء معها لمواسمها الى ساحة الدفن ثم ما لبث ان سمع علياً يتادبو

فقال ليك

فحلا بو حانتي وقال له لا ارى ثم حاجة الي بقائي هنا وقد ماتت حاملة السر

فقال اجل يا عمة وانت في شغل هام من امر الخليفة وقد آسفت لجهنك بلا فائدة
فقال اني اذا ذهب ولو صيك باهل هذه الميتة خوفا فاطر ما يحتاجون اليو
فاذا تم الفصل والدفن اوصى الفتاة والدعا ومن معها الى مفرج واذا رأيتهم في حاجة
الى الاتفاق فادفع اليهم ما يحتاجون اليو على اني لا ارى والد الفتاة حريصا الا بالاعهاد
فقال محمد سر بمراسة الله اني فاعل كل ما تأمرني به ولكني آسف لضياع ذلك
السرفانة لا يخلو من امر هام . فقال علي* اني افكر في ذلك ولا ارى بابا لخلو

ثم تحول نحو المأمم وبأدى يريها والد اسما لجهاء ووقف بين يديه وهو لا يستطيع
النظر اليو الا غلظة فلما رأى علي* تفرقة في النظر مع رفرف اجفانه وردد بصرو
كأنه ينظر الى ما يهوى فحقق ان الرجل مرأه بفخر غير ما يظهر . لان من سلسه
سريره واحاص نعه كان بصريا با صافيا مثل قلبه ولما المرائي الخاطل فانه لا يستطيع
تلييت نظره في مخاطبه ولا يملك يرف اجفانه كأنه ينكر في حيلة بخترعها . ونظر علي*
الى يزيد فعرف انه اموي فقال لا تصبر يا اخا امية لك اصبت بها يصاب به كل ابن
ابني ولا حيلة لنا الا بالصبر

فلما قال علي* ذلك تظاهر يزيد بالبكاء

فقال علي* لقد اوصيت محمدا ان تنوي مواساتكم بكل ما يحتاجون اليو واذا نزلتم
المدينة فام في حماما وما استجتم اليو قدماء لكم
تتظاهر يزيد بالشكروم بتنهيل يدي علي

ثم تقدم علي* الى اساءوي لا تزال تبكي فعزاها واخبرها بان محمدا مات لمواساتهم
فبككت ولسان حالها يدل على الامتنان وان لم يطلق لسانها بكلمة . فخرج علي* وهو
يقول لمحمد اني لا اعجب ما بين هذه الفتاة والدعا من البون فكأنها ليست ابنته
ثم ركب جواده وودع محمدا وسار قاصدا المدينة

اما محمد فأمر خادم الجامع باحصار من يقوم بالفصل والدفن ولكنه اخفق يزيد
بعد بره فلم يبق بين الناس فتعجب لغياب وظنة في هادئ الرأي قد ذهب في حاجة
منه فلما طال غيابه اترام من امره حتى اذا اطلق الصبح رأى بين الناس فلم يسأله
من سبب غيابه لئلا يكون في سؤاله داخل في ما لا يسهه ثم غسلوا الموتة ولبسوا عليها
وهلبوها بالماء لا يملك من البكاء والغصيب جهارات يتخلف لها الصخر

الفصل العاشر

* المدينة المنورة *

فلما عادوا من الدفن تقدّم محمد الى يزيد ان يطلب ما يحتاج اليه
فعلطف في الشاء وبالغ في الشكر لما لاقاه من مؤاساة
فقال محمد اريدون الذهب الى المدينة فتتولون علينا فان علينا اوصانا بذلك
قال لقد تنعمتم بها لا طاقة بنا على شكر ولا نملك في كرم مولانا ابي الحسن
وحسن وفادى ولكن لنا اهلاً في المدينة لا بد من النزول عليهم واخاف اذا نزلت في
غير منزل ان يمشوا ذلك منا امهاتاً على انا حفا نزلنا انما نكون في حى ابي الحسن
فحب محمد لما آتاه من لطفه وكاد يهرق دموعه فقال له طين بطن
الحاربكم بام

قال م يقيمون بمرمب الروداء (١)

وكانت اساءة في اثناء الحديث جالسة تجمع ما يتولان وهي مطرفة حزنًا
وانكسارًا وقد خطت رأسها بخمار اسود زاده هبة وجمالاً فلم يتالك محمد عن الهيام
بها فلما ذكر والدها محل اقامته قال محمد وهو ينظر الى اساءة « اذا ارجوان
لا تسونا ومها عن لكم من الامور التمسوة منا فان سيدي علينا حفظه الله اوصاني
بكم خيرا » . قال ذلك ونظر الى اساءة فرأى الدمع يقطر من بين احداها ويصعد
على خديها وهي لا تزال مطرفة فازداد انعطافاً وحزنًا نحوها

اما والدها فقال له اننا لا نستغي عن فضلكم فاذا اصابنا ضيق لجأنا اليكم ولا
نبرح نذكر احسانكم الى آخر قصة من حياتنا

فقال محمد الاتحاجون الى ركائب تحمل امعتمكم
قال ان ركائبنا لا تزال عندنا وقد بعث اليها اقرباؤنا عسكاً يساعدونا في
الحمل والنقل

لوقوف محمد ووقف يزيد لودعه وودع اساءة

(١) الروداء اسم سوق المدينة ويطلق على منزل الخليفة عثمان ايضاً (مراد الاصلاح)

أما في فلما وقف لوداعها تذكرت ان والدتها عرفت وذكرت اسمها وهي على فراش الموت فنظرت اليه والدفع بتلاً في عينيها وقد ذبلتا وتكرست أهدابها وتنهدت ولم تحبب فيها وتحوّل الى جواده فركب وعاد الى المدينة وقد طلق ذهنه باسماء وانفعل قلبه بها

أما ما ظهر في حديث يزيد من الرقة فليس من عذباته ولكنه ثقلته من مروان وكان قد غافل الناس في أثناء المأتم كما تقدم وبهم المدينة ليستمر مروان في ما يمله بخلافه ان يهلكه محمد بن ابي بكر على النزول في جوار علي وهو لا يريد ذلك لئلا يضع ما أمّله من مصاهرة مروان . وكان لما توفيت زوجته قد شعر بزوال حظه من طريقه لأنّها كانت عونا لا ينفك عنها على الرقص فلما توفيت لمحقق نيل مرادها وطاف بجواره حتى فذهب ليشاور مروان لثقلته في منزل الخليفة هناك فأنهأه بوفاة مريم واستشاره في الامر فأوصاه ان يحنال في القنص من محمد وعطه ماذا يقول من عبارات الفكر والفناء وان يبتذر بالنزول عند اقاربها كما فعل

وكانت أسماء خالصة الذهن من كل ذلك لسلامة نيتها وانفصالها عن الدنيا بامهراتها وبكافها على انها شعرت بامتنان لعلي وارواح الى محمد واحسّت بأمرها عند عظيم لما عد الحاجة فاذا آتست من مروان او والدتها ما لا يرضيها استجدها ولم يكف محمد بتوازي عن قباء حتى أمر يزيد عيّدًا كان مروان قد أرسلهم لخدمته ففوضوا الخيم وحملوا الاحمال وركبوا وركبت اسماء بعد ان ودعت قبر والدتها وادّاعا بمنقت له الصخر وودعت خادم الجامع وامرأته وأكرمها فوق ما أكرمها به محمد فودعاهم وهما يبيكان ويسار الركب نحو المدينة

فلما اشرقا على المسجد تذكرت اسماء لقاءها طليًا هناك وما كان من اضطرابها وقتلتها في الليل الغابر وتاهت في بحار التأمل . فلم يبق لها شيء من ضوضاء اهل المدينة وتجمهر في اسواقها . وقبل وصولهم الى المسجد مرّوا بالبحار الزيت وهو موضع صلاة الاستسقاء^(١) بقرب الزوراء فرأى الناس هناك جماعات متكئين وم أخلاط من اهل مصر والكوفة والبصرة وفهم الامراء والفرسان والعبيد والخدم على اختلاف ازيائهم وكل جماعة في شاغل وحديث أو جدال . ثم وصلوا منزلاً وراء الجامع فنأثروا واسع محاط

بسور منيع له باب ضخم في وسطه خوخة^(١) وقد أقبل ووقف الحراس عنده فعملت ناعما دار عثمان ولم يجاوزوها حتى وصلوا الى باب وقفوا عنده فترجل والدها هناك فعملت ناعمة المنزل المقصود فرجلت وقد اعلمها النصب والنحاس لما قاسته من المجاهدة والبكاء والحزن كل ذلك الليل ولكنها لم تنك تدخل ذلك المنزل حتى لقىها مروان فلما رآته استعذت بالله وتندست على مجيئها على انها لم تر بذا من النزول مع والدها فلما شاهدها مروان وقد تسرعت بالغبوب الاسود فوقه الخمار الاسود تحته وجهه زاده انكسار الحزن جمالا واشراقا ازداد تعلقا بها فتقدم نحوها مسلما ومعربا فردت عليه رقيا ضعيفا وهي تود ان لاتراه. أما هو فبالغ في اكرامها وسار في خدمتها الى داخل الدار وكان بعض نساء المنزل قد جئن لاستقبالها فدخلن بها حجرة والدها معها وهي لا تنطق بكلمة واذا كلها أحد لم يكن غير البكاء جوابا له ولما خلت بوالدها سأله عن أهل ذلك المنزل فقال م آل حرم^(٢)

الفصل الحادي عشر

—* الحيلة *

أما مروان فرأى من الحكمة ان يتركها في الغرفة لتستريح فخرج يدبر وسيلة لامتصاصها بالمحس فخطرت له ان يوسط بينه وبينها نائلة بنت الفرافصة امرأة الخليفة . وكانت نائلة ذات مقام رفيع لتزوجها بالخليفة على انها لم تكن من قرين بل هي من بني كلب من القضاة وكان والدها الفرافصة صرايما يقيم في الكوفة^(٣) وكانت حافظة حسنة الخلق ولم تكن ترتاح الى مروان لزوجها وطيشه وكثيرا ما كانت تغالطه في مشوراتها على زوجها حتى انتهت مرارا وتقدمت الى زوجها ان لا يصفي اليه^(٤) ولكنها لم تكن تبالغ في جشاته احتراما لتراجمه . فصار مروان اليها وكانت في اضطراب عظيم لما احاط زوجها من الاخطار فلما رآته قالت ما وراءك يا مروان

(١) الاثافي جزء ١٥ (٢) ابن خلدون (٣) الاعاني جزء ١٥ (٤) ابن الاثير

قال ما ورأيتي إلا الخمر يا خالة اني اراك في وجل من أمر هؤلاء الناس الذين يحاولون نزع الملك من ايدينا ورأس ذي النورين^(١) انهم يميلون عن نيلو فقد كتبنا الى معاوية في الشام وابن طامرو وسماء الاجناد من بني أمية^(٢) نستقدمهم الى نجدتنا فاذا جاؤوا لم يستطع المصريون او الكوفيون او البصريون مناوئهم فيعترفون ايدي سبنا

فصعدت نائلة وقالت لا اظنهم يصلون اليها يا مروان ألا بعد ان تنفذ الحملة والبيعة كلها عليك فانك كبرت المحرق بعلبك
فخصك مروان ونظاير المرازح وقال سوف ترين بعينك يا خالة ان مساعي مروان هي الحق ونحفظ ان هؤلاء الاعضاء مغررون بانفسهم . لا تجري يا خالة ولا تخافي اننا القاترون بأذن الله

قالت دعنا من المرازح يا مروان ان الامر جل
قال بل هو آمن مما نظنين وما انا حاسب له حساباً وما يدلك على ذلك اني اهتم باسترضاء عروس جميلة جئت بها الى هذا المكان
قالت وأمة عروس

قال اسماء بنت يزيد الاموية انها يا خالة على جانب عظيم من الجمال وقد كانت في دمشق وكانت والدها تنفع في تزويجها فانت الوالدة بالامس في قباء فجمعت بها وبوالدها اليوم وابزلتها في دار بني حزم وهي الآن نائمة للاستراحة من وعناء السفر فاقدم اليك اذا جاءتك غدا ان تقنعها بانني كففت لها
فقالت امين نحن من الرطاج يا غلام

قال لا تقول يا غلام وانا شاب بطل كما فعلين واستطعتك برأس امير المؤمنين ان تسترضيها وهي لا شك اذا سمعت كلامك رضيت . فاذا فعلت ذلك فديتك وفديت عني الخليفة بروحي

فسكنت نائلة وهي تعجب اعطش مروان وغشوه على ان استضافته بمن احاط زوجها من المقاومين طائفاً وبرد قلبها وما زال مروان بها حتى وعدته باسترضاء اسماء فتركها وخرج الى يزيد والد اسماء فاحضر بها عزم طليو ففرح وقال حسناً فعلت

وأرى ان آخذها انا الى نائلة للسلام عليها فيكون ذلك أقرب الى طلي الحيلة
فقال مروان وهب انما لم تقع باسترضاء نائلة فاني حامل الخليفة على لزومي
بها قسراً وما انا مقبول عن عزمي لآتيها فتاة لا تعرف مصلحة نفسها ولا هي مدركة
مصلحة والدها في الامر (وقد أراد مروان بذلك ان يؤكد آمال يزيد بتولي منصب
بواسطة تلك المصاهرة)

فأبرقت أسرع يريد وقال طب نفسك يا ولدي فاني لست ناركاً هذه الفتاة ففعل
غير ما أرضاه أنا

فودعه مروان ومخرج وبانت اماء تلك الليلة لا تدري بما يصير لها

الفصل الثاني عشر

﴿ نائلة بنت الفرافصة ﴾

وفي الصباح التالي افافت اماء مذعورة وقد رأَت والدهما في الحلم فبكت بكاءً مرّاً
ولم تكد تجلس في الفراش حتى دخل والدها ومّمّ بها وقبلها فقله الوالد والرياء ظاهر
على وجهه فلم تطاوعها نفسها على تقبل يد فلبثت في الفراش صامتة كئيبه لا تبدي حراكاً
فقال لها يريد امضي يا ابني واغسل وجهك وهباً بنا الى مولانا نائلة امرأة
مولانا امير المؤمنين ولا ريب انما ستعريك في احزانك

فقالت دعني يا ابني واغلق باب الغرفة عليّ فاني لا ارى شيئاً في هذا
الكون يعزيني

قال قومي يا حبيبي فان الحزن يضربك ولا فائدة منه . وهي انما لا تقدر على
تعزيتك فالذهاب اليها واجب لاتنا في حماها . وما زال حتى امضها وفيها هي تحفز
للقيام دخل رجل فاستقبله يزيد قائلاً اهلاً بابي الجراح ^(١) فبغت اماء لما تهادتو
فابتدرا والدها قائلاً انه مولى مولانا ام حبيبة واظنه جاء لاستقدامك . فقال ابن
الجراح ان مولاتي تدعوك اليها وقد سمعت بما اصابك وعلت بتزولك عند جيراننا

أكل حرم فبعثني لاستخدامك ومعى جارية حبشية لمراقبتك اليها
 فبعثت اما لهذا الاحشاء وشكرت تلك العناية وبهضت فلبست ثوبها وسرحت
 شعرها وعقصة وارسلته الى الوراء وارخت المخار على رأسها وتزلزلت بالرداء الاسود
 وخرجت والجارية رفقها ودخلت في باب موصل بين الدارين حتى اتصلت الى دار
 عثمان فرأت فيها ما يليق ببيوت الخلفاء من الطنافس والاسرار ونحوها ولقيت في
 باحتها كثيراً من المالك والاماء فمشت حتى امت غرة نائلة
 فلما سمعت نائلة وقع اقدامها تحزرت للقاءها - وحالما وصلت اساء الى باب الغرفة
 نسجت رائحة الطيب وسمعت خضضة اساور نائلة وخلاخلها وعقودها ودماجها وهي
 نهياً للوقوف ولم يتع نظرها عليها حتى بهرها ما على انيابها من التطريز والزركشة
 بالنفضة والذهب فدخلت اساء ووقفت لها نائلة وقد اعجبت بمجالها وهيبها فمشت بها
 وضمها الى صدرها وهي تقول اهلاً بضيئتنا الحبية اهلاً بابنتنا العزيزة
 فلما سمعت اساء ذلك غلب عليها البكاء ولكنها تجلدت وقبلت يد نائلة وجلست
 الى جانبها وخرجت الجارية وبقيت في الغرفة على حدة واساء لا تتطرق بكلمة
 فصارعت نائلة في مداعبتها فقالت اهلاً بابنتنا الجديدة ومرحباً بها
 فادركت اساء مرادها فقالت وهي تشرق بدموعها اهذا الكلام تعزيني يا مولاي
 ذهني ابكي والله حنونة ففندتها بالامس واذا كنت تشفقين علي فابكي معي
 فأثر ذلك الكلام في قلب نائلة تأثراً عظيماً حتى تفرقت الدموع في عينها
 وهي تقول اني مفارقة لك في احرامك يا حبيبتي اما ترضيني بدلاً من والدتك
 فقالت ان ذلك اكبر تعزية لي على مصابي وارجو ان لا يكون مرادك ما قد
 تبادر الى ذهني

قالت وما ذا تبادر الى ذهنك

فاطرقت اساء ولم تجب

فغالطتها نائلة وتآوت لئلا يراها ثم قالت تصبري يا ولدي على مصائبك ان
 الحزن المفرط لا يجديك نفعاً ثم امرت بالطعام فتد الساط فاعتذرت اساء عن الطعام
 قائلة نائلة عليها فتناولت منه شيئاً ثم جلست تحادثها في شؤون مختلفة حتى هدا
 روعها وجعلت تتأمل ملامحها وتجب بمجالها فاذا هي لا تشبه والدتها في شيء وكانت

قد شاهدته عند قدومها

وكانت اسما في اثناء ذلك مطرقة وهي غارقة في بحار المهاجس . فقالت لها نائلة ما بالك صامتا تكلمي يا اسما واقفلي نفسك عن الحزن لعلك تنعزين
قالت لا ارى شيئا يعزيني في هذا العالم يا سيدتي ولا يملوني الحكم قط على اني
احمد الله لما لقيتك من مواسطك فقد استأنست بك كثيرا وشعرت بانعطاف نحوك
كانعطاني الى والدتي رحما الله . قالت ذلك وهي تمسح دموعها بالمندبل وتلمع
من البكاء

فتأثرت نائلة لتلك الحالة واجلست مخاطبها بشأن مروان الى فرصة اخرى .
ولكنها احسنت ان تصرف ذهبا عن الحزن فدفعها لمشاهدة ما في بيتها من الاثاث
واكبره من الطنافس والجماد وبعض الآنية ما خلفه القواد الذين فعلوا الشام والعراق
من قصور الملوك والبطاريق واغنياء الروم والفرس وفي جملتها اسلحة مرصعة واعلام
ودروع وآنية من الفضة والذهب من خناتم المدائن عاصمة الفرس على عهد همر بن
المطاطب وبها تاج كسرى مرصعا بالجوهر ولهاية ووشاحه من الديباج المنسوج
بالذهب المنظوم بالجوهر ودرع هرقل ودرع خاقان ملك الترك ودرع داهر ملك
الهند ودرع النعمان المندر وكثير من الامياف المرصعة . وادركت اسما من
تجسسها بعضها فوق بعض بلا ترتيب انها لم توضع هناك للزينة . ثم خرجت نائلة بها الى
خرفة اخرى صغيرة رأت فيها دكة عليها فرس من ذهب فوقه سرج من فضة وعلى
ثغره ولبائه الباقوت والزمرد وعلى الجماد فارس من فضة مكلل بالجوهر . وبالتقرب
من الفرس ناقة من فضة عليها شليل من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب
وكل ذلك منظوم بالباقوت وعليها رجل من ذهب . فانبهرت اسما لتلك الخف
التي لم تر مثلا ولكنها طعت لاول وهلة انها ليست من صنع بلاد العرب .

فقالت ومن اين امت هذا الخف يا سيدتي

قالت انها خناتم ابطال المسلمين ما تقوى من بلاد الفرس (١) وهي من خصائص
يمت المال ولما قلناها الى هنا موقفا لامر القضي ذلك وسعدها اليه فاحببته ان
اطلعت عليها لاما من ابداع المصنوعات ولا تظن الزمان ولا الانسان سياتيان بمثلا

فقال اسماء لقد عرفت فائز التيجان والسيوف والدروع ولكنني لم انهم فائز
هك القوس هذه الناقة

فالت نائلة لقد اخبرني بعض من شهد فتح المدائن من امرأتنا انهم لما فتحوها
ودخلوا بيوت كسرى رأوا في صدر الايمان الذكة التي كان تاج هذا الملك قائما فوقها
وطولها ان كان مركزا على اسطوانتين من المرمر المذهب وعلى قمة احدى الاسطوانتين
هذا القوس وراكبة على قمة الاسطوانة الاخرى هذه الناقة وراكبها . وكان القوس
قد نزع من هذه الخلف وحاولوا الفرار بها فعثرهم المسلمون واخذوها منهم ^(١)
فاهبط اسماء بها رأت انجاسا عظيما . وفيما هي تنظر الى صحن الدار لحض مروان ما را
فاجلست والقبضت نفسها والتمست الدهاب الى غرفتها متظاهرا بالميل الى الراحة
فوجدت نائلة وجست فدخلت الغرفة واظلمت الباب وراها وتوسدت الفراش
وهاضت في بمار الخواص

أما مروان فكان قد علم بجي اسماء الى نائلة فهذه الاستفهام عما جرى بينها لجاء
مظاهرا بمقابلة الخليفة ثم تحول الى غرفة نائلة فرآها وحدها فسلما عما جرى
فاخبرته انها لم تفارقها في شيء ولها سذهب اليها في الغد وترى ما يكون
فانزع عليها ان تستطلع ضميرها وتقصها
فوجدته بانها ستدعوها في الغد الى الافاسه عندها

الفصل الثالث عشر

﴿ مَرَّ آخِر ﴾

وفي صباح اليوم التالي بكرت نائلة الى غرفة اسماء فوجدت الباب مغلقا فلحقت
بلا استئذان فرأت اسماء لا تزال نائمة وقد اغضت جفناها وكفلها العرق ونسدت
احدى ذراعيها تحت خدها وجعلت ذراعيها الاخرى فوق رأسها فانحصر كبا عنها
فبان زندها وباست عروقة مخضرة كأنها خطوط منعرجة ريشها الجمال تحت تلك
البذرة الناعمة وحول زنده تمت عضلاة واحتدات حتى يقال لما ظن ان الصحة تدفق

منه وكانت الشمس قد أشرقت فارسلت أشعها من نافذة فوق رأس اماء فمرت
الافعة حتى اجازت قامها ولم تقع عليها ولكنها جعلت لوزدها ظلًا خفيًا وقع على
وجهها فأخى ظل أهدابها الطويلة . فوقفت نائلة تنأمل ذلك المجال المحلى بالصحة
وهي تحاذر ان توقظها فليصت على معصها ونمًا على شكل الصليب فاستغربت ذلك
لعلها اماء مسلمة ولا يتقد ذلك الرسم غير المسيحيين . فتفرست فيو فاذا هو رسم صليب
لا رب فيو ثم دنت من رأسها فرأت العرق قد كلل جبينها وزادها بهاءً وجمالاً
وكأن اماء شعرت بوقوف نائلة الى جانبها فغيرت وضعها ورفعت يدها عن
جنبها واستلقت على ظهرها فانفخ صدر ثوبها فان من تحو فلاة من فضة قد تعلق فيها
حجاب صغير أشبه تيجان مجباب المسيحيين لما طرو من الرسوم فازداد تعجبها واستغربها
وتعاضد ميلها الى استطلاع السر . وفيما هي تنكر في ذلك رفعت اماء يدها الى عينها
فمسحتها ثم فطنها فرأت نائلة واقفة عند رأسها فحبلت لتوسد لها فنهضت للحال وارسلت
كفها فوق معصها واطلقت ثوبها على صدرها وقد ظهر الخبل على وجهها . فحينها نائلة
فردت القية وهي تغمع عرقها وبهم بالوقوف فاقدمها وقالت استريحى يا ابنتى الى لا
اريد ازواجك ولم آت الا التماساً لراحك

فأثنت اماء على فضلها ودعتها للجلوس فجلست نائلة على جانب السرير وهي
ممسكة يد اماء تنظر الى رسم الصليب فيها ثم قالت لقد استغربت هذا الرسم على
معصك وعهدي بك مسلمة قبل رسمنى على سبيل الزمة
قالت لا اعلم كيف رسمت ولا اما ذاكرة يوم رسم لاني كنت طفلة وقد سألت
والدتي عن سبب فلم تخبرني

قالت وما هذا الحجاب الذي في عنقك
فدنت اماء يدها الى الحجاب فاستخرجته من بين انوارها وقالت ولا ادري ايضاً
من ألبني اياه
قالت نائلة وكنت حجاب مسيحي
قالت لعله كذلك ولكنني لست اطاعة لامر والدتي فقد اوصتني ان احفظ
منذ طفولتي

فلم تستطلع نائلة شيئاً من حقيقة الواقع وزادتها رغبة في البحث فقالت الا اخبرتي

يا اسماء كيف اتصل إليك هذا الحجاب وكيف رسم على يدك هذا الصليب أخبريني
لا تخافي فإن النصارى اهل ذمة عندنا . وزد على ذلك اني ولدت في بيت مسيحي
وكان والدي نصرانياً ^(١) فأخبريني عن حقيقة حالك وأنا أعلم ان والدك يربداً
مسلم اموي ابا عن جد

فذكرت اسماء والدتها وكنيتها اسم والدتها الخفي فتهتت وصمتت
فجئبت نائلة لسكوها وتسترها وقالت لها . ما بالك صامتة . سوي لي بسرّك ولا
تخافي فانك بمنزلة ابنتي

قالت اسماء باذا ابوح لك وأنا لا اعلم من هذا السر شيئاً واعترف لك اني منذ
نصت عيني وأنا ارى هذا الصليب وهذا الحجاب ولا اعلم من خبرها شيئاً
قالت كيف يمكن ان يكون ذلك

قالت اسماء هذا هو الواقع يا مولاتي ولا اعلم من امرها شيئاً و وصمتت
فقالت نائلة قولي يا اسماء لا تخفي سرّك عني قولي ما في ضميرك ولا تخافي
قالت ماذا اقول وأنا لا اعرف شيئاً غير ما ذكرت
قالت يظهر لي من ترددك انك تخفين شيئاً

فتهتت اسماء تهتداً عميقاً ونظرت الى نائلة والدموع ملء عينها وحاولت
الكلم ففشتها العبرات فسكنت

فضممتها نائلة الى صدرها وقبلتها وهي تزداد إعجاباً بنور طلعتها وقالت . قولي
يا ولدي قولي ما في نفسك وتبي اني حافظة سرّك عن كل اسان
فمسحت اسماء دموعها بكفها وتنفست الصعداء وقالت ماذا اقول لك يا خالة
ان سؤالك قد جدد احزائي طأ ذكرني والدي المسكين . قالت ذلك وعادت
الى البكاء

فمسحت لها نائلة دموعها وقالت رحم الله تلك الوالدة المحنونة فاعيا قد خلعت
لنا ملاكاً ساوياً . قولي ما هو سرّك
قالت ان سرّي يا سيدتي قد ذهب الى القبر مع تلك الوالدة قالت ذلك واوغلّت
في البكاء

فقلت نائلة ألعلمها كانت تخفي السرّ عنك وماتت قبل ان نوح و
قالت نعم نعم مانت وخفّنت لنا حرقة فراقها وزادت تلك الحرقة لوعة بكائها
سراً ذهب معها الى القبر ولكمها

قالت ولكمها ماذا

قالت ولكمها اخبرني ان يزيداً الذي يرم انه والدي ليس هو بالحقيقة كذلك
فبهنت نائلة وتذكرت انها توسّمت ذلك فهو مذكراته . فقلت وقد ظننت ذلك
فهو منذ رأيتك ورأيت فاخبرني ما تعلمني من تاريخ حياتك لعل استتج شيئاً منها
فقلت اعلم اني ربيت في دمشق الشام منذ طفولتي وقد احتضنتني تلك المسكنة
وزوجها يزيد هذا معها وكنت أظنه والدي ثم طعت انها تزوجته في مصر على أثر
قدوم عمرو بن العاص اليها وكان يزيد في جنس يوم الفتح فكانت والدتي نصبة
من الصبية وكنت انا بونثيرة طفلة بنت العام هذا كل ما اعلمه وقد انحصرت على
والدتي بالاستعانة عن حقيقه والدي فوجدتني وسببها اجلبها

فبهنت نائلة وظلت صامته برهة تذكر فلم تدفع فهم شيء

وفيما هما في ذلك سمعنا وقع اقدام مسرعة امام باب الغرفة فانفتحا فاذا يزيد
قد دخل مسرعاً وظل وجهه امارات البغية فلما رأى نائلة هناك تأدب في
وقوفها وحياها . فقلت ما وراءك يا أخت أمية

قال وحياء ترددان واجابها ترفه « ما ورائي الا اخبر يا مولاتي »

قالت قل ما وراءك هل من امرين

قال خرجت في هذا الصباح باكراً في مهمة بعثني بها مروان فرجعت الآن ولم
استطع الدخول الى هذا المنزل الا خلفه

فبهنت نائلة وقد خفق قلبها وحديثها نسخها بسوء كانت تتوقه وقالت ما الذي
منعك من الدخول

قال اقبام تجهيز حول منزل امير المؤمنين بجملهم ورجلهم وقد علا نهيهم
ولا ادري ما ينوون

فبهنت نائلة وقالت وماذا ينوون يا يزيد قل

قال لا ادري يا صبيتي واظنهم ينوون سرّاً

الفصل الرابع عشر

— ﴿ حصر عثمان ﴾ —

فخرجت نائلة مهرولة وبديها يندرج لفخامة أوراكها^(١) وخرجت أسماء في أثرها وقد لبست حزها وتنددت كأنها منهم بالهجوم في حرب حتى دخلتا إلى دار عثمان ونحوها إلى أول غرفة تشرف على الطريق فأطلتا فرأتا الناس جماعات وقد تجهموا بالهجوم وخوفهم وعلا صياحهم فاضطربت نائلة وامتنع لونها وأخذ الخوف منها مأخذاً عظيماً

أما أسماء فما زالت رابطة الجاش وجعلت تشجها وتقول لما لا تخافي يا سيدتي فاهم لا يستطيعون الوصول إلى هذه الدار وهي محاطة بهذا السور المرتفع وإذا هم هموا بمسلكنا فانا نسلطهم بالسبال والحرب

فجئبت نائلة لجسارة أسماء ورابطة جاشها ونشجت بها فامسكها بيدها ونحوها بها من تلك الغرفة تريد خرقها

وفياها في صحن الدار سمنا لفظاً ورأتا هاك نفرًا من المهاجرين يهون بالدخول إلى الدار وحالما وقعت عليها نائلة عليهم همست في اذن أسماء كلاماً بظلمة ارتعاش وقالت « هؤلاء هم كبار الصحابة قد أتوا ولا تدري غرضهم من امير المؤمنين » ونظرت أسماء اليهم فرأت علياً بينهم تحدتها نفسها ان تخاطبه ولكن نائلة سارت بها إلى اقرب حجر هناك الماسك للحيجاب وأغلقت الباب وراها فاذا ها في حجر بينها وبين مجلس عثمان باب مقفل ونائلة لا تزال ممسكة يد أسماء وقد احست هذه باربعاش امامها فقالت لها ما الذي أخافك يا خالة

قالت نائلة بصوت عذني لقد أخافني هيمد هؤلاء فاهم فلما جاؤونا إلى التويج أوهديد

فقالت ومن هم

قالت علي بن ابي طالب والزبير بن العوام والخطبة بن عبيد الله وهم أوجه الصحابة

ولم متاع في الخلافة كل منهم بطلبها لنفسه . وما زلنا منذ تولوا امر المؤمنين لا يهدأ لنا بال ما يهونه به من الاعمال . اما رأيت الناس محطون بمنزلنا الآن فانهم اهل مصر والكوفة والبصرة قد جاؤوا لمطالبة الخليفة بامور ما انزل الله بها من سلطان

الفصل الخامس عشر

﴿ اسباب الفتنة ﴾

قالت اساء بماذا يطالبونه

فادنت نائلة فاما من اذن اساء وقالت بصوت مخففى « م يزعمون انه استاثر بالسلطة ففضل اقاربه في مصالح الحكومة فولأَم الاعمال دون سواهم وانه اكتسب الاموال الطائلة واغنى المالك وانه يعطي المال لا قاريه ^(١) هذا ما يزعمونه ولكن الحقيقة غير ذلك

قالت وما هي الحقيقة اذا

قالت اما استنارته بالسلطة فذلك حقة من الخلافة لانه امير المؤمنين وله الامامة والسلطان . واما تفضل اقاريه فلم يكن هو اول من فعل ذلك فقد كان الرسول (صلم) يعطي قرائنه ^(٢) واما احرار الاموال والتوسع في المعيشة فانها حق هذا المنصب . وزد على ذلك ان امير المؤمنين يطعم الناس طعام الامراء . وأقسم برأسه ان طعامه لنفسه انما هو الخبز والزيت ^(٣) اتعتين من يعمل ذلك طامعاً في الدنيا قالت اساء فاذا كان الامر كذلك فما الذي دعاه الى هذه الثورة

فتنهبت نائلة ثم قالت اهم يا عزيزي اما فعلوا ذلك حسداً ولاني اعرف من زعماء هذه الثورة جماعة عاشوا في نعم امير المؤمنين اعياناً ثم وسوس لهم الشيطان . وقد اخبرني من اتقى روابطه ان الذي حرضهم على الثورة رجل يهودي اسمه عبد الله نسبها أسلم حديثاً واخذ ينقل في الحجاز والبصرة ثم الكوفة ثم الشام يريد اضلال الناس فلم

(١) ابن الاثير (٢) القزويني (٣) ابن خلدون

يصغوا له فاخرجوه من الشام فأتى مصر فاقام فيها فأتى هناك اذنا واعية فجعل يقول
لاهل مصر العجب ممن يصدق ان عيسى يرجع ويكذب ان محمداً يرجع فوضع لم
بعدة يسمونها الرجعة قبلها ذلك منه ولكي يثير خواطرهم قال لم قد كان لكل نبي وصي
وان علياً وصي محمد فمن اعظم ممن لم يحز وصية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وزعم ان امير
المؤمنين (عنه) وثب علي وصيه واخذ الخلافة بغير الحق فقال لم « انبسط بهذا
الامر ولداً طال بالطن على امرائكم واظهر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تسليطاً
يو الناس » ومث دعائه وكان من استند في الامصار وكاتبوه ودعوا في السر الى
ما عليه رأاهم وصاروا يكتبون الى الامصار كتباً يشعرونها في عيب ولاهم ولوسعوا
بذلك الارض اذاً وبدأ الفساد من ذلك الحين فغار المسلمون في كل الانحاء
الا اهل الشام والمدينة فاتهم ثبتوا علي ولاه الخليفة ^(١) . هذا هو سر الامر بما ابني وما
ما ذكره من احرار الاموال وتفضل الاقرباء فليس بالامر الهام

فما توت اساءه لذلك القول وشاركت نائلة باسئها ومالت كل الميل لصنع عثمان
ومعت الاثنان نحو الباب المغلقل بينهما وبين مجلس الخليفة وفي الباب شق يشق عن
هناك . فظفرت اساءه في الدق فرأت عثمان جالساً في صدر المجلس على وسادة مزركشة
وقد طنت البغمة وامتنع لونه وآثار المجدي لا تزال ظاهرة فيه . وتأملت جيداً فرأته
مشرف الاف عظيم الاربعة ^(٢) وقد حول نظره نحو الدار ويد البسرى على الحنو
يشطبها باصابعه يشاغل بها عن هواجبه وخاتم الخلافة في احدى اصابعها وفي يده
البهي قضيب الخلافة . وكان قد زرع العامة عن رأسه حتى بات صلته ^(٣) ومعت
في بعض جوانب الغرفة رجلاً يقرأ القرآن ولم تره . ورأت بين يدي الخليفة جماعة
من بني امية لم تعرفهم ثم سمعت وقع اقدام عند باب المجلس واذا بعثمان قد تم بالعمامة
فجعلها على رأسه ووقف لاستقبال القادمين وهو اكرام خصوصي . فكان اول من
دخل منهم علي بن ابي طالب وسماً عثمان بعمية الخلافة قائلاً السلام عليك يا امير
المؤمنين ورحمة الله وبركاته ^(٤) . ثم دخل بعده رجل مربوع الى القصر اقرب رحب
الصدر هريص المنكين اذا التفت التفت جميعاً تحم القدمين حسن الوجه ايضاً مشرب
بالحمرة كثير الشعر ليس بالجمد القلط ولا بالسبط وقد شاب شعر فلم يصبه فرأته

حماً وجلس بجانب علي فالتفت الى نائلة وسألتها عن فقالت ان طلبة من عهد الله (١) ثم دخل في اثرها رجل اسمر اللون خفيف اللحية معتدل الفضل . فقالت اسامه ومن هذا قالت هذا هو الزبير بن العوام (٢) ولما استتب لهم الجلوس قالت نائلة اجلسي يا ابنتي لنسمع ما يدور بينهم فصام ان يكونوا قد جاؤا الخبر فجلسنا وما نريان ونسمعان ولا يراها احد

الفصل السادس عشر

— ﴿ الشورى ﴾ —

فجلسوا برهة لا يطق احد بكلمة ثم بدأ علي بالكلام قائلاً « اتدري لاي شيء جئناك يا امير المؤمنين »

قال عثمان « الله اعلم »

قال « يعلم الله اننا انما جئنا يريد بك خيراً امك يا امير المؤمنين ان عم الرسول الاعلى وقد تزوجت باثنين من بناته (سلم) وتلك كرامة لم يجرها احد سواك وانت يا ابا عبد الله من السابقين الاولين وقد صليت الى القبلتين وهاجرت الهجرين طانت اول من هاجر الى المحفة وقد قال الرسول (سلم) بين اليمني هذه يد عثمان . وتوليت الكتابة له وحملت القرآن . فانت يا امير المؤمنين من غيرة الصحابة وقد توفي رسول الله (سلم) وهو عنك راض وبشرك بالجنة (٣) فلا نرضي ان تكون الامة نائمة عليك حتى يهمل بمظلمك وقتلك ونحن نعلم انهم اذا تمكلموا من ذلك كانت الفتنة نعوذ بالله منها فنقسم الامة وتكون العاقبة وبالاً عليها » وكان علي يتكلم وعثمان مطرق يقلب في صفحات القرآن

فلما اتم علي كلامه رفع عثمان رأسه وقال « اني عالم بكل ذلك يا ابا الحسن ولكن هم يقتلوني وقد سمعت رسول الله (سلم) يقول لا يحمل دم امرء مسلم الا باحدى ثلاث رجل كفر بعد اسلام او زنى بعد احسان او قتل نفس بغير حق فاننا لم افعل

(١) اسد الغابة (٢) اسد الغابة (٣) القزويني

شيئا من ذلك ولكنني اتقدم اليكم ان تعبروا عليّ»
فقال عليّ* « نرى ان تخاطب الناس فانهم قد هاجلوا واحاطوا بدارك ناخبين فقم اليهم وعدم خيرا »

قال عثمان « لقد طالما وعدتهم وطأتهم فلم يرضوا »
قال عليّ « لقد وعدتهم ثم اخلت ولا نعد ذلك اخلاقا منك ولكنك اصبحت لابن عمك مروان وهو غلام لا يفقه شيئا فاذا نحن خرجنا من بين يديك جاءك واخطم استرضاءك المسلمين وقد فاته ان في استرضائهم قطع دابر الفتنة فقم اليهم واخطبهم »
وكانت اسماء تسمع كلامها فاستحسنت انصباغ عثمان واستشرت بانفراج الازمة فلما سمعت ذكر مروان اقشعر بدنها

اما عثمان فقال « اني اقوم واخطبهم ولا يصعب عليّ ذلك ولكنني اود معرفة السبب الذي حملهم على هذه الثورة فاخبروني به فاذا كنت مخطئا استغفرت واذهنت »
فاجدته الزبير قائلا « هم يقولون انك استأثرت بالامارة واستخدمت المنفعة اقاربك وجمع الاموال والاستكثار من الماليك والضياع فانك تملك نحو مئة الف وخمسين الف دينار والف الف درهم ثودا وبطلها من الضياع وقد اقتضت الخيل والابل والماليك وقد كان الناروق (عمر بن الخطاب) يرفع ثوبه بالجلد وهذا عليّ ابن عم الرسول (صلعم) يقول يا ايضاء وياصفراء غري غيري

فالتفت عثمان الى الزبير وقد نبط كأنه شعر بان الحق في جانبه وقال « آأنت تقول ذلك يا ابن العوام المحسون حشد الاموال ذنباً يستوجب القتل ونحن فيه سواء لم تستكثر انت من الاموال الا تملك خمسين الف دينار والف فرس والف عبد والف أمة ما عدا الدور والضياع وهذا ظلمة ايضاً فان غلته من العراق الف دينار في اليوم وله الف بعير وعشرة آلاف من الفم وهذه دار في الكوفة وتسمى الكناس^(١) وهذا زيد بن ثابت وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة عديم الاموال البائرة العلكم ورشبوها عن آباءكم ام هي مال حلال لنا جميعاً وقد غنيناها في الجهاد بنعمة الاسلام

ثم وجه عثمان خطابه الى الجميع وقال
 « ألم تكن تعرف بعضنا بعضاً في الجاهلية وقد كنا نمكن ارضاً غورنات زرع ولا
 ضرع ألم يكن فيها اناسٌ يأكلون العقارب والخنافس ويغفرون بأكل وبر الابل
 يوهونه بالبحارة في السلم ويخفونه . فلما انازلنا الله بالاسلام واجتمعت عصية العرب على
 الدين وطلبنا ما كتب الله لنا من الارض بوعد الصديق فابتزنا ملكهم ^(١) واستبها
 دينهم . اليس ذلك مالاَ حلالاً لنا فكيف نستوجب القتل والخلع طيو . ولما اطاعني
 اقامني فقد كان رسول الله (صلم) يعطيني قراجه . ولكنني اراكم قد غرتكم مقالة
 ابن سبا » قال ذلك وقد أخذ منه التأثير مأخذاً عظيماً حتى رقصت لحية
 فلما سمع عليّ مقالة اغضى عن الجواب عن مسألة ابن سبا لانها تتعلق بمخافة ان
 تسبب نفوراً ولكنه قال « يحال لي يا ابا عبد الله ان سبب هذه الفتنة انما هو ما
 ذكرت من استكثار المال فانه يفرق بين الاب وابنو وهذا ما حللي على كرهه حتى
 قلت (يا صفراء ويا بياض غرمي غرمي) فيها انها قد غرتكم ولكن مالنا ولهذا الجدل فقد
 جئنا نلتبس حسم الخلاف وهو لا يكون الا بمخاطبة هؤلاء الناس المحيطين بهذه الدار
 ولا آمن ان يحمي . ركب آخر من الكوفة والبصرة فتقول يا عليّ اركب الهم فان لم
 افعل رأيتني قد قطعت رحلك واستخففت بمحك ^(٢) »

فقال عثمان « اني اول من انعط ولا احب ان يهريق بسبي محب من الدم »
 قال ذلك وبهض وهو يصلح عامته ويمكن برده على كنفه والتضيق به وخرج من
 الغرفة وتبعه علي ورفاقه . فقالت نائلة لاسماء تحمد الله ان الامر قد قضي
 قالت اسماء بورك بعليّ فان به صلاح هذه الامة ولكنني احب ان اسمع
 الخليفة يتكلم

قالت انهمي ان في غرقي نافذة تطل على المكان الذي سيفي به امير المؤمنين
 فنهضنا ولبنا برهة ريثما خرج الناس وخرجنا الى غرفة نائلة واطلنا من النافذة
 بمحبت تريان وتسمعان ولا يراهما احد . فرأنا عثمان قد أشرف على المجموع فلما رآه الناس
 حلا ضجيجهم ونظروا اليه فقال وصوته يتخلج « ايها الناس اني اول من انعط - استغفر
 الله ما فعلت واتوب اليه فملي من زرع وناب . فاننا نزلت فليأتني اشراقكم فليروا فيّ

رأهم فوالله لئن رزقني الحق عبداً لأستنّ بسنة العبد ولا ذلّ العبد وما عن الله
مذهب إلا الله . فوالله لأعطينكم الرضا ولأعفين مروان وذويوه ولا أحجب عنكم
ولم يَمْ كَلَامُهُ حَتَّى اخْتَنَقَ صَوْتُهُ وَتَرَفَرَفَتِ الدَّمُوعُ فِي عَيْنَيْهِ وَبَكَى كُلٌّ مِنْ سَمْعَةٍ
وَكَانَتْ نَائِلَةً وَأَسَاءَ أَكْثَرُهُمْ بِكَاءَ . وَلَكِنْ نَائِلَةٌ حَمَدَتْ اللَّهَ عَلَى إِتْرَاجِ الْأَزْمَةِ
وَنَحَلَتْ فِي وَأَسَاءَ عَنِ النَّافِقَةِ

الفصل السابع عشر

﴿ أسماء ومروان وعثمان ﴾

وَفِيهَا مَا تَحْوِلَانِ مَعْنَا وَقَعَ أَقْدَامُ قَادِمَةٍ نَحْوِ الْغُرْفَةِ ثُمَّ رَأَتْهَا عُثْمَانُ دَاخِلًا وَقَدْ امْتَنَعَ
لَوْنُهُ وَهَاجَتْ عَوَاطِفُهُ فَلَمَّا رَأَتْهُ أَسَاءَ قَمَّتْ بِالنَّخْرُوجِ حِيَاءً فَدَعَتْهَا نَائِلَةُ لِلسَّلَامِ طَبِو
فَتَقَدَّسَتْ الْبُيُوتُ وَهِيَ مَطْرُقَةٌ أَجْلَالًا لِقَامُو قَمَّتْ بِتَقْيِيلِ يَدَيْهِ فَنَظَرَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى جَمَالِهَا
وَهَبْنَهَا ثُمَّ نَظَرَ إِلَى نَائِلَةٍ نَظَرَ مُسْتَهْمًا

فَقَالَتْ نَائِلَةُ إِنَّمَا ضَيْفَةٌ عِنْدِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ اللَّهُ أَنْ قَدُومَهَا كَانَ خَيْرًا
فَقَدْ حُلَّ الْمَشْكَلُ . فَتَعَدَّ وَهُوَ يَحْتَمِلُ عَنْ وَسَادَةٍ يَجْلِسُ طَبِهَا فَلَمَّا جَلَسَ دَعَاَهَا لِلْجُلُوسِ
فَجَلَسَتْ وَهُوَ لَا يَزَالُ يَتَفَرَّسُ فِي أَسَاءَ وَقَدْ اسْتَفْرَبَ لِبَاسَهَا الْأَسْوَدَ ثُمَّ قَالَ مَا لِي
أَرَاهَا سُودَاءَ الْبَيَاطِ

قَالَتْ لَا إِنَّمَا فَتَدَّتْ وَالِدَتُهَا بِالْأَسْوَدِ وَهِيَ قَادِمَةٌ مِنَ الشَّامِ فَتَزَلَّتْ عِنْدَ جَوَارِنَاتِنَا بِنِي
حَرَمٍ مَعَ وَالِدَتِهَا

قَالَ وَنَ هُوَ وَالِدَتُهَا

قَالَتْ هُوَ يَزِيدُ الَّذِي جَاءَ نَا مِنْدَا يَامَ

فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَاجْتَمَعَ اجْتِمَاعًا لَمْ يَغْيُرْ شَيْئًا مِنْ مَظَاهِرِ اضْطِرَابِهِ وَقَالَ « لَقَدْ جِئْتَ أَهْلًا
وَوُطِئَتْ سَهْلًا عَزَاكَ اللَّهُ عَلَى مَصَابِكِ »

فَقَالَتْ أَسَاءَ أَنْ مِنْ كَانَ مَجْزُولَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَعَزُّبَةٍ

فَاعْجَبِي حَسَنَ اسْلُوبِهَا وَقَالَ وَمَاذَا يَتَعَاطَى وَاللَّهِ

قالت لا يعامل شيئا يا مولاي

قال ستظري ما ينفع . ولم يتم عثمان كلامه حتى دخل مروان بشفة بلا استئذان ومعه جماعة من شبان بني أمية فلما رأته أماء اجلست وانقضت نفسها وودت الخروج ولكنها استحييت من عثمان فانزوت في بعض جوارب الغرفة

اما مروان فانه دخل والسيف يجر وراءه وقد ارى رداءه بها وعجبا حتى اذا اقترب من الخليفة جلس الى جانبها وحياه تحية الخلافة ثم حياه رفاقة وجلسا وم سكوت وعثمان ساكت . فلاح من مروان الفتنة الى جانب الغرفة فرأى أماء جالسة هناك فسرق لقرعها من نائلة املا بان تعفي لتصحبها فتدعى به فاحسب ان بين لها نوده لدى الخليفة لعله ينال حذوق في عينها فنظر الى عثمان وقال « يا امير المؤمنين اتكم ام اسكت »

فاجدته نائلة قائلة « لا بل اصمت فانهم والله قاطع ومؤمنو الله قد قال بماله لا ينبغي ان يزعجها »

لمحلق مروان فيها وقال « ما انتي وذاك فوالله قد مات ابوك وهو لا يحسن يتوضأ »

فقالت « هلا يا مروان عن ذكر الآباء . تخبر عن ابي وهو غائب تكذب عليه وان اباك لا يستطيع ان يدفع عن نفسه . اما والله لولا انه عمه (عم الخليفة) والله بماله عمه لاخبرتك عنه ما لن اكلب عليه » ^(١)

وكانت أماء تسمع كلامها وهي تكاد تنفخ من الغيظ ولكنها احترمت المقام وخافت ان ينجبها عثمان فصبرت نفسها لتسمع ماذا يريد ان يقول
اما مروان فاعرض عن نائلة مخافة ان تزيده تعيضا ونظرا الى عثمان فقال « يا امير المؤمنين اتكم ام اسكت »

قال تكلم

فقال « يا بني انت وامى والله لوددت ان مقاتلك هذه التي قلتها اليوم على مسمع من المسلمين كانت وانت متبع فكنت اول من رضي بها واعان عليها . ولكنك قلت ما قلت وقد بلغ الحزام الطيبين وبلغ السيل الزبي وحين اعطى الخطبة الدليلة الدليل

ووالله لا إقامة على خطيئة وتستغفر منها أجل من توبة يخوف عليها . ولأت ان شئت
تقربت بالتوبة ولم تقرت بالخطيئة وقد اجمع بالباب امثال الجبال من الناس (١)
يريدون ان يتزعموا ملكا من ايدينا »

وكان عثمان يسمع مقالة مروان وهو مطرق بمكر طاماء تراقب حركاته وهي
تخاف ان يصفي لقول مروان فأست فيه اصفاء وشعرت ان الامر سيعود الى اعظم
ما كان فلم تعد تتالك عن الكلام فوقعت فامة تخجل البان وقد زادها العوس هبة
وحاطبت الخليفة قائلة « يا اذن امير المؤمنين لا متو بكلمة »
قال « قولني يا هبة »

وكان مروان لما رآها حول نظره نحوها وهو يوجب لشجاعها وتحولت النظر
جميع الحضور اليها يعظرون ما تقول

فلما اذن لها بالكلام قالت « لا أنكر ان وقوفي بين يدي امير المؤمنين والتدخل
في شؤونه اماروا به جسارة او غفلاً ولكني التمس لنفسي عذراً اني انما وقفت
لاقول كلمة في مصلحة مولاي الخليفة ولو أدعى بي ذلك الى احوال خضيو وتوبيخو .
الي يا امير المؤمنين اري في الاصفاء لقول ابن عمك هذا انقطاعاً للجنة بعد ان
نامت ومدتاة للقتال واثارة للحرب . فان تنازل امير المؤمنين لحسم الخلاف وتجنب
الدماء لا يحط من قدره . واما العمل بمشورة مروان فقد بأول الى شر عظيم »
فلما سمع مروان مقالها فهقه استصفاً ولم يجيبها وكلمة حول وجهة الى الخليفة وقال
« كأن هذه النساء تريد ان سمع امير المؤمنين لمشورة النساء وقد قيل امير ناقصات
المثول » . قال ذلك وأعرب في الصلح

فحسي غضب اماء واثارت الحمية في رأسها وقالت « ان النساء هما قيل في نقص
هنولن هن اكل عظام من يرى العبرة ولا يستر . لقد كفناك تغبراً بامير المؤمنين
واعلم ان الذين اشاروا عليهم با حلة اقام نغمة المهاجرين وخيرة اصحاب الرسول (صلم)
وليسوا ناقصي المثل »

وكانت نائلة تسمع كلام اماء وقلها برقص طرماً ولكنها خافت من طيش مروان
وتوقعت ان يفضب . فاذا وقد عاد الى الصلح وقال « لا تقول امهم ناقصو المثل »

ولكنهم مناظروا على الحكم يريدون اذلالا ومع ذلك فليس من شأنك المشورة على
امير المؤمنين

قالت « لم اقف في حضرة الأباذو وليس لك ان ترد امرأ امرؤ من »
فجسي غضب مروان فوقف وبت على قبضة حسامو وقال « والله اني ضاربك مجد
هذا السيف فقاطعتك نصفين »

فتبسمت اماء باستخفاف ورفضت يدعا وقد انحصر بعض كمها حتى بان ذلك
المعصم المنديع وقالت وهي تشرب اليوسجا مهادباً « لا تقضي اخاف حسامك اذا
جردته ولولا حرمة امير المؤمنين لقتلتك بسيفك فاحترم الخليفة واردد يدك عن قبضو
فما انا من يخاف السيف . ولا يهرك اني فناء واذا اردت ان تعرف من انا فليك
بالنزال في ساحة الوغى »

فجيب الحضور هذه الجملة وبهبط جميعاً لما سمعوا ما لم يكونوا يتوقعونه من
صاحبة تلك الطلعة وذلك اللد

أما مروان فنجعل من توبيتها وكظم خيطة وبظاهر الاستخفاف وعاد الى مجلسه
ضاحكاً وهو يقول « لولا حرمة امير المؤمنين لعنتك معنى النزال »

قالت « كان يجب عليك ان تحترم مجلس الامير قبل ان تقض على الحسام وما
رجوعك عن وفاحتك الا جبن وغري »

فهم مروان بالوقوف ثانية وقد امتنع لونه وارفضت امامه فامسكت عفتان وكو
واجلسه وهو يجيب لجرأة اماء وقد اعجب بها كل السامعين . اما عتبان فجل بداً على
كتف مروان وقال له « لم اكن اتوقع منك اطالة الجدل على هذه الصورة وكأني
بك اذا تركت وشأ بك جردت السيف امامي !!! »

فنجعل مروان وسكت وفي نفسهم حزازت وغمة
واشار عتبان الى نائلة فهضت وامسكت اماء ونحلت بها من الثرفة فخرجوا
والناس يبعون اماء بابصارهم ويبعون بما سمعوا وينظرون من ورائها الى ابن
قامها واستبسال شعرها وثبات قدمها

فلما خلا في حرفة اخرى همت بها نائلة وقبعتها والصنوج ملء عليها وقالت « بورك
فيك يا اماء والله انك قد شئت غليلي من هذا الغلام ولكني اعطيه انه سيبقى الجماعة

ومجئته على الرجوع»

قالت فلنلق هنا لعلنا نسمع ما يدور بينها . فوقفتا فسمعنا مروان يقول له « مالنا ولا أعمال النساء ان الامر جل ولا ادري اذا كنت قد قلت ما قلته من اجبار» قال عثمان « ومن هو الذي اجبرني عليه»

قال مروان « الا ترى في ذلك حيلة لقد ربي امية كيف تستغفرم على امر نرى لنا فيه الحق الواضح . الا تعلم يا امير المؤمنين ان بي امية تفاخر سامر قریش بل سامر العرب بجلائك فكيف تقول ما قلته على مسمع من الاولوف على اختلاف قبائلهم ويطعون . فقد اذلتنا واشمت بنا الناس . ومن هم هؤلاء الذين اعتدلت لم جهاراً ألم بطلوا طاعتك لانك لم تؤثروا على ذوي قرابتك ولانك لم تعزل اخاك عبد الله بن سعد عن مصر وتولي مكانه رجلاً يهتارونه . هل كان هؤلاء الواقفون على بابك الآن ان يلقوا موتهم هذا بين يدي ابي بكر او عمر»

فتبس عثمان الصعداء تنفساً سمعنا زفيراً فعلما انه قد هاق ذرعاً ما وركم عليه من الهواجس ثم قال « وما العمل اذا»

قال مروان « العمل ان نبين لم اتنا لسنا بجافقين من كفرهم»

قال عثمان « اما انا فلا اكلهم لاني استحي ان اقول ثم ارجع»

قال انا اخرج الهم . قال ذلك وخرج

ولم يم عشان كلمة حتى سمعنا وقع اقدام مروان في الدار فحولنا الى النافذة فرأناه قد وقف حتى اشرف على الناس من فوق سور الدار وقال « ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جتم لهب شامت الوجوه الى من اريد . جتم تريدون ان تنزعوا ملكنا من ايدينا اخرجوا عنا والله لن رمتونا ليموت عليكم منا امر لا يبرحكم ولا تحمدوا غيب رأكم ارجعوا الى منازلكم فاننا والله ما نحن بمفلولين على ما في ايدينا»^(١) ففزع الناس حتى ملا فيهم النساء .

فقالت اماء في سرها تباً لك يا مروان وصاحت نائلة فجهك الله من غلام . الله والله سيتودنا الى سر ما تنوعمه . قالت ذلك ونصت عن النافذة وساء تتبعها فاذا بجارية تنادىها الى الخليفة فاعتدلت من اماء ودخلت عليه

فسارت اسماء تروا الى غرفتها وهي تتوقع ان ياتنها مروان مهدياً او مستقفاً قد دخلت
الفرقة وهي لا تزال ترتعش من الغضب وعولت اذا جاءها مروان مهدياً ان تشدد
النكير عليه واذا تطاول فتكت به . واستحضرت خجراً كانت تملك تحت اثوابها في
الاسفار . ولم يكن والدها هناك

الفصل الثامن عشر

— اسماء ومحمد ومروان —

فاًغلقت اسماء الباب وجلست على السرير وهي تأمل في ما مرَّ بها في ذينك
اليومين من انواع القرائب . فتصوّرت والدها وحنوها وتذكرت كيف كانت تشكو
اليها ههنا في مثل تلك الحال فغلب الحزن عليها حتى بكّت . وفيها هي في ذلك سمعت
مشياً امام باب غرفتها فافتتحت الباب وتحتزرت للوقوف وقد نسيت حريها
ولبست هنيئة فلم تسمع صوتاً فظنت ما سمعت وقع اقدام مارٍ امام الباب . ثم سمعت تروا
على الباب فوثقت اليه وقضت وقد عميأت للقاء مروان . فاذا في الباب محمد بن ابي بكر
فيثقت وغلب عليها الحياء واخبط حياؤها بامارات البغلة فزاد وجهها هيبةً وجلالاً
أما محمد فلما رآها على تلك الحال اجدها قائلاً ما بالك يا اسماء ما الذي اخافك
فقالطنة وحشة ولم تجبه على مرّ الو

فردّ عليها القية ومد يده فسلم عليها وشعر عند لمس يدها ببرد اناملها وارتعاشها
فقال ما بالك ترتعدين وانت وحدك . قال ذلك وهو ينظر الى جوانب الفرقة لعله
يري احداً هناك فلم يجد فازداد تخبهاً

اما هي فجمّدت وقالت لا شيء يخيفني يا محمد وانا في حياي الحسن
قال لقد صدقت ولكنني اراك في اضطراب وهياج كأنك كسيت نخاصمين احداً
ام انت ترتعدين لقدسعي على غرة وانا انما فعلت ذلك طوعاً لا مكره علي فانه ارسلني
لافتدك لعلك تحتاجين الى امرٍ

قالت بورك فيه وفيك واشكر عنايتكما في فاني بمحمد الله في خير وعافية ادهو
لسيدي اني الحسن بطول البقاء . قالت ذلك وجلست الى السرير

أما هو فودّ أن يمكث عندها ولكنه خاف أن تستعين ذلك منه لخلو المكان من الناس فقال « وابن والدك »

فتحدثت وقالت لا ادري اين هو الآن

فقال ما بالك تتحدثين يا اماء الي اراك تكتبين امرأ هاماً

قالت لا اكتم شيئاً ولكني وسكت قال ولكنك ماذا . قولي

قالت لا أدري ماذا أقول وأنا لا انظر اليك الا وذكرتك والدتي المسكينة التي ذكرت اسمك وهي على فراش الموت . قالت اماء ذلك وترقرقت الدموع في عينيها فلما رأى محمد دموعها انقطرت قلبه لها وامسكها بيده وجوارحه تخرج وقال « رحم الله تلك الوالدة فاني ما برحت منذ رأيها وأنا في شغل لا يهدأ لي بال فلما طلع وقد كان يجب عليّ انّا افتقدك قبل الآن ولكن الشواغل المحاضرة حالت بيني وبين ما اريد فان امر هذا الخليفة قد حبرنا وشغل بالناس فلا تكاد نرتق فتقاً حتى ينتفي غيرة

وكانا يتكلمان ومحمد واقف والباب مغلق نصف انغلاق فلم يمض محمد كلامه حتى رأى مروان داخلاً وملاح الغضب تلوح على وجهه وقد حمل سيفه يساره فلما رآه محمد على تلك الحال نوح الغدر في عينيه فنظر اليه شذراً ولم يعبأ به

اما مروان فقال وقد علاه الاصفرار والبغضة « ما الذي جاء بك الى هذا المكان يا ابن ابي بكر . » فقال محمد « ما شأنك وهذا السؤال وما انا في منزلك »

قال « بلى انك في دار الخليفة وقد دخلت على نساءنا بلا استئذان »

فاستغرب محمد قوله ونظر الى اماء كأنه يستنهبها بمغزى تلك العبارة فاذا هي تقول بقلب لا يهاب الموت

« ان مروان يتكلم من عند نفسه في ما لا يناله باعة ولو مها تطاول »

فاجسم مروان اجسام الاحتفاف وقد تعاضل غيظة وقال « سبي والدك اذا كان باعي يتالك ام لا »

قالت « دع الآباء وارجع من حيث اتيت والا اسمعك ما لا يرضيك »

فضحك مروان ونوكاً بين علي سينو وقال ويده الاخرى على شاربه « اراك تفررين بنفسك كأنك نسيت ما نالك في حضرة الخليفة الا تعلمين انك اذا بقيت على غرورك تدست حين لا ينفعك الندم »

فاستغرب محمد ذلك الجدل ولكنه أدرك ما في نفس مروان فالتفت في قلبه نار الغيرة وعظم عليه ذلك الطاول وم مروان يريد ضربة فاعتزضت اماء بينهما وقالت « دعه يا محمد لأرى ما هو فاعل » قالت ذلك وتقدمت الى مروان ويدها على مخبرها كأنها تمه باستلاوه وقد اقطبت حاجبها وحى غضبها حتى كاد الشر يتطامن عن عينيها فادخل محمد لتلك النجاة ولم يكن يسهل مثل ذلك في النساء فأراد ان يقف معها وبين مروان فلم تمكنه من ذلك

اما مروان فلما رأى ما كان من اماء وأدرك ان محمداً معها خاف العاقبة وكان قد قبض على حسامو فرغ يده عن قبضته ونظاها بالضحك ومك يده يريد ان يسلك يد اماء ويخطبها فجدت يدها وقالت « اسل حسامك وأرني نجاعتك وهذا ابن ابي بكر شاهد على المغلوب منا »

فقال مروان الظنين اني اجد حسامي على فناء اما دوايك يا اماء فهو عندي . قال ذلك وخرج متظاهراً بالغضب وهو انما خرج خائفاً كائناً وعول على التمسك باساءة غيلة

أما محمد فلما خرج مروان نظر الى اماء فاذا هي قد علت وجهها هابة اعظم الابطال وذهب عنها ذل الحزن وضعف النساء فأعجب بها خصها به الخالق من المحبة والافتة فأمسكها بيدها وأرجعها الى السرير قائلاً بورك بشما منك يا اماء ولكنني أدرك قد اهتممت بهذا الشاب أكثر مما يستحق فاتركوه وشأنه

قالت وهي تحاول تخفيف غضبها « اني لا ابا لي بشقشقه والله لو انه حمل عليّ جهة رجل مثله ما حسوت لم حسناً »

قال مالك وللإقامة في هذا المكان اذا تعالي يذهب معاً الى منزل علي فتعطين ضيفة مكرمة

فقالت « أريد يا محمد ان افر من هذا المكان كلاً وترته والدتي لا ازال متعبة هنا حتى ارى ما يكون من امر هذا الغلام الفر »

قال انحصن ذلك فراراً

قالت نعم قد عني اقيم هنا لأرى ما يكون من امر

قال وما يهلك منه دعيه وشأنه

قالت وهي طيبة الذي وسع المحرق وأعجب المسلمين على الخليفة ولولا حفاضة
لاحلل المفضل وأحسن الناس من الدنيا

تصور محمد كيف يخرج بهامن ذلك المنزل وقد همة فأورها هناك غيرة طيها عما حب
ان يستطلع العلاقة بينهما وبين مروان فقال وما الذي جعل له هذه الدلالة عليك هل
تعرفني قبل اليوم

تصديقت وقد تذكرت ، يا أمها وقالت وهي تلمر « اننا عرفناه من الغلام وقد راقدنا
بميرتنا المشوية الى قفا . ثم دخل المدينة قبلنا وهو الذي كان السبب في موت والدتي
فهل وصور على

فصعب محمد وقال وكيف سبب ذلك القاتل
قالت ان حدثنا يا محمد طويل يحتاج الى شرح ولكنني اقول بالاختصار ان
هذا الشاب قد راقدنا من الغلام لمطعم كان في نفسه يقصر عن ان يباله ولولا ضعف
والذي وانما يازه له لما استطاع المسير معنا خطوة ولكن

فقال واي مطعم
فلم يجب كان الضعف والحياء قد حادا اليها فأطرفت صامتة

فهم محمد مراتها فازداد بغضا لمروان وغيرة على ابناءه ولم يعد يصبر
على بقائها هناك وحدها ونظرا لما يعلمه من نفوذ مروان لدى الخليفة خاف ان
يوسطه في اقناعها او استرضائها فتقبل هي يو ولو كرها ولما تصور محمد ذلك احسن
بديوان هبت في بدنه واذا رغبة في خلق عثمان او قتلوه . قصمت برهة يفكر ثم قال وهو
يريد ان يزيد كرها واحتقاراً لمروان « اني اعرف عن هذا الغلام ما لا يعرفه سواي
فقد سمعت من اخوتي ام المؤمنين (عائشة زوج النبي) ان النبي (صلم) لعنه وهو في
صلب ايده فقال لا يوه الحكم بن العاص « ربيلا لامي ما في صلب هذا » (١)
فاذا ترجين منه بعد ذلك فاصفي لتولي وتوالي هي فقطص من وقاحتها

قالت اما الآن فلا اخرج من هنا لان في خروجي عارا ولكنني ربما خرجت في
فرصة اخرى

فبهت محمد وهو يود ان يبينها ما خالجه تلبية من حباها ويستطلع ضميرها ولكن الحياء

والله سمعت عن ذلك فقل برهة صامتاً وهو لا يزال واقفاً ياراه السرير واسمائه تباله
 طرفة وقد خالجه صهرها مثل ما خالجه صهره وفي أكثرهما منه فقلت صامتة تنظر
 ابن يمتع هو الحديث

الفصل التاسع عشر

يزيد

فقال محمد ألي لا أرى عاراً في خروجك من هذا المكان إلى منزل علي وهو
 الذي كنتي بذلك ولا أخفي عليك أن الأمر واقع على الخليفة فهو لن ينجو من الخلع أي
 القتل وخصوصاً إذا ظل مصفياً لمشورة مروان فيها بنا
 فقلت في الجواب ولم تكلم حتى سمعت نعال والدعائم رأياً دخل بعتة
 وقد عاد من سفر فرب لما نأه محمد بعت ونهر من روثه لأنه لم يكن بحسن الظن
 فهو أما يزيد فحالماً رأى محمداً قد قدم إليه وجهاً ونظاً بالترحاب وسأله عن علي
 فاجابه محمد بمثل سؤاله

فقال يزيد كيف مولانا أبو الحسن

قال هو في خير

قال أبو بوي الحروج إلى الحج فقد آن أمته^(١) وارى الناس يتأهبون له
 قال لا أظنه يستطيع ذلك هذا العام
 فقالت أماء ولما ذا

قال لأن خروجه من المدينة قد يوجب ارتباكاً لما تعلمين من اختلال الأحوال
 ولكنه دعاني أن أحمي ودعني شفتي أم المؤمنين أن أخرج معها إلى الحج ولا
 اضطر خارجاً^(٢)
 قالت ولما ذا

فلم يجب ولكنه أشار بلام وجهه أنه لا يرتاح باله في الخروج من المدينة طالما
 كانت هي في ذلك المكان على تلك الحال

فادركت ابياء انه يجيها ويغار عليها ولكنها تجاهلت مخافة ان يدرك والدها
شيئا من ذلك

اما محمد فخطب يزيدا قائلاً . لقد جئتم مندوباً من مولاي ابي الحسن ادعوكم
للانول عنه اذا كنتم تريان في الامة هنا نعباً لجواركم من بيت الخليفة والناس
يعطون و كما ترون

فقال يزيد لا اظن عليها بأساً هنا وقد فسخ الخلاف على ما سمعت
فاجدته ابياء قائلة كيف يفسخ الخلاف وصد بك مروان واقف بالمرصاد
قال وما الذي فعله

قالت بعد ان روي الخليفة باسترضاء القافرين واستعطافهم حرّضه مروان على
الرجوع فعاد الامر كما كان طيو واظن محمداً اعلم منا بما يتوون لانه قادم من بينهم
فهزّ محمد رأسه وقال نعم ان كلام مروان في صباح هذا اليوم قد وسع الحرق
حتى استغل الخطب ولم يعد تلافيو ممكناً وهذا ما خوفي عليكما للربكما من الخطر
قال يزيد وما ذا يتوون

قال اذا لم يزل هؤلاء الناس ما يرجونه لا ادري ما تكون النتيجة كئنا الله
هرّ الله

قال واخبرت والرياء ظاهران على وجهه ارام تمصبا طيو بغير حق وم اما
جاؤن بالمعصون الدنيا وفهم من حقد طيو لمفهم فآتاه بعدلو وآخرون لحديث سمعوا
من واشر مبغض وغيرهم لغير ذلك ولكنهم جاؤوا بدعون الفرية على الاسلام
قال محمد (وقد آتيت من جدالو) «كل يعرف ما نواه» وسكت رهة . ثم قال
والآن ألا تخرجان معي الى منزل علي قال يزيد لا اري ثم حاجة الى ذلك الآن

فنهض محمد وودعها وخرج وفي نفسه حزازات وحقد على مروان وخاف من
هذان اذا بقي على منصة الخلافة ان يكون حوفاً لمروان في استرضاء ابياء
اما في فلم يكد يجاري محمد حتى تسلمت على بقائهما هناك ولكن انهما لم تكن
فأذن لها بالخروج في تلك الحال

الفصل العشرون

﴿ الحيلة ﴾

أما يزيد فاستيقظ وسواسه لما رأى من اختلاء محمد بابنته وأصبح يخاف عليها منه إذا جاءها مع أخرى ففكر في حيلة تقيها من ذلك فأحب أن يخضه إليها فقال « أرى محمداً من جملة الناهلين على الخليفة ولكنني لا اظنك تعلمين سبب تقصّي »

قالت وما ذلك

قال قد طعت عن ثقة أنه كان طامعاً في ولاية مصر وطبها عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخو الخليفة من الرضاة فلما لم يؤثّر الخليفة على أخيه لم يطب . وقد بلغني أنه كان قد ولّاه مصر ووجهه إليها لم يرجع عن عزمو وأرجسه عن الطريق (١) فعاد نالماً وهكذا شأن أكثر هؤلاء الناهلين وقد رأيته لمحمد له بذلك فلم يجب

فاستكننت أسماء من الظن بمحمد وهي تفسر بانعطاف شعور وميل شديد اليه فسكت . وفكر يزيد بعد ذلك في ما يأمن به فخرج أسماء إلى علي فلم يترجّحاً من أن ينقلها من منزل الخليفة تقيم فيه بمجورة . فتركها في الغرفة وقصد نائلة وترأى على اقدامها وبكى

فقالت ما يبكيك يا أبا أسماء

قال يبكي يا سديتي حال ابنتي من الحزن والنوح على فقد والدتها وهي وحيدتي فلا آمن إذا بقيت مقيمة وحدها أن تصاب بحزن وكثيراً ما أراها تبكي بالخروج إلى مدفن والدتها في قبا . للندب والكاء فامتصها بالحسي فلا تمتنع ولا تجنى على مولاتي حاقبة الاحزان وابنتي كما تعلمين فتاة صغيرة لا تعلم من أحوال الدنيا شيئاً . قال ذلك وشرق بدموعه مكرماً وخداً

فقالت نائلة وما ذا ترى أن تفعل بها

قال أرى أن تكون عنده وتحت جناحك

فسرّت نائلة بذلك الرأي لأنها استأنس بأسماء وأرتاحت لحديثها وأعجبت بشهامتها . فقالت لك علي ذلك فأنت بها البنا

التخلص من مروان اذا وسط الحليمة في تنفيذ ما ربه فقالت اني طوع ارادتك باسديتي
لان الإقامة تحت جاحك شرف عظيم للثلي
فوقفت نائلة واستنصت أسماء فتمضت معها وسارتا الى بيت نائلة

الفصل الحادي والعشرون

— التهديد —

قضت أسماء نوبة ذلك اليوم وهي تكرر تارة في مروان وطوراً في محمد وأوبة في
حالمها مع والدها وقد ندمت في ماطن سرها لانها لم تذهب مع محمد الى منزل عليّ على
انها استأنست نائلة وارتاحت الى مجالستها وكذلك نائلة فانها اتحدت أسماء تعزية
لها في ضيقها لما آمنت فيها من سداد الرأي وتبات الجمان وحسن الخلق وكانت قد
ادركت نفورها من مروان وهي ليست اقل كرهاً لهنها ولولا قرانة من الخليفة لقرعت
له العصا وأوقعت عدده

ولما امسى المساء وتناولنا العشاء في غرة المائة والخم والجزاري وقوت بين
ايديها والاضطراب ظاهر على وجوههم على غير المعتاد
فلما فرغنا من الطعام ونحولنا الى حمرة الرقاد ادت نائلة قيم الدار فسألته عما
هالك من الخفراً بكر اولاً ثم قال ان مولانا الحليمة لم يبق طامعاً في هذا المساء
وهو في اضطراب وارتباك شديدين

قالت وما الذي دعاه الى ذلك . قال التصديق ألم نظري الى الناس حول
الدار وعند الابواب فانه قد حاصروا وسعوا الماء عما
فبغت نائلة وصاحت « وكيف يعمون الماء فبهم الله »

قال لقد سمعوا يا سيدتي ونحس انما نستقي الآن ما بقي في الآمية من الامس ولا ندري
اذا ظل الحصار كيف نستقي . وهذا هو الامر الذي دعا مولاي امير المؤمنين الى القتلى
فلطمت نائلة كماً بكف وصاحت وبلا كيف يعمون الماء عن امير المؤمنين
ان عملهم هذا لا يشبه عمل المسلمين ولا الكافرين

فقالت أسماء لا يسوءك ذلك يا خالة اني صاء لك الاستقاء ولو مما بالغ

مؤلاء في الحصار

قالت نائلة وكيف تستطيعين ذلك

قالت يعمل الامر بأن يُحمل الماء الى بيت جيرانكم آكل حرم ونحن ننقله سرّاً الى هذه الدار^(١)

فارتاحت نائلة لهذا الرأي ولكنها ما زالت خائفة عاقبة الحصار فعصفت القيم وجلست الى اماء وهي تتهد وتثأر. واما مؤن عليها . ولم تكك تجلس حتى سمعت جلبة وقع اقدام في الدار فهضت مسرعة ولحبتها بترجرج لسمها ولم تكك تنفتح الباب حتى لقيها مروان وقد تزل بمياء تو وتلد سلاحه كأنه تأهب لسرفلما رأها سلم عليها وتقدم نحوها فاستعادت بالله من رؤيته وقالت ما الذي جاء بك يا مروان قال اني سامر في مهمة وقد جئت لوداعك . وهل تلك الفتاة الدمشقية عندكم قالت في عندي وما غرضك منها اذهب في مهمتك

قال بل اريد ان اراها قبل سفري . قل ذلك ودخل الغرفة فلما رآته اماء اجلست ولكنها لم تلبث صامتة لا تحرك فقال لما وهو يضحك « الا تزالين على قولك في منازلتي يا اماء »

قالت وهي لا تزال جالسة لا تتعباً بقوله « لو كنت رجلاً حراً لنازلني لما دهونك للتزال »

قال لولم يطرأ علي السفر المستحيل لمهلك كيف تؤكل الكنف وانتهك ان ابن ابي بكر لا يغني عنك شيئاً

فلما سمعت احتقاره لمحمد ثارت فيها الحمية وقالت « لا تذكر رجلاً في غيبتو فاذا خسر سكت ورجعت »

فاغرب في الضحك وقال سوف ترين وتسمعين ما تدمرين عليه ندماً لا يبيدك ولعوف يذوق هو مرارة الحرمان من منصب طمحت انظاره اليه فقم من اجله على امير المؤمنين وهاج المسلمين وحرّض على الفتنة

فاردت اماء ان تبيح فاشارت اليها نائلة ان تكف وقالت لمروان سافر يا بلاء لي لعل في السفر راحة لنا ولك امالم ربي اقامتك خيراً

ففضحك مروان وقد حوّل مرادها الى المزاح ولمسكها يدها حتى توارى عن ابناء
وهس في اذنها قائلاً « احفظي بها فاني عائد قريباً لكتابة الكتاب لانها طاهرة
جميلة واراني احبها واغار عليها بالرغم عني ولا ارى بين بنات قریش اجمل منها ولا
اكمل ولكم لا تزال صغيرة السن لا تعرف مقام الرجال »
فدركته نائلة وتحولت الى الغرفة وهي تعجب لطيفه وبهوه
فلما حلت باساء عادت الى هواجسها وفكرت في ما هم فيه من الحصار فلم ترّ
وسيلة للانقاذ التفت الى بوسط عليّ ولكم تذكرت مقالة يوم اجتمعهم بالامس وتحذير
زوجها من اغراء مروان ففحقت انه لن يقدم لنصرتهم فصبرت نفسها لترى ما يأتي به الغد
اما ابناء فانها سرّت لخروج مروان من المدينة لعلها تتمكن في أثناء غيابهم من
وسيلة تصلح بها ما افعل

الفصل الثاني والعشرون

﴿ التحريض على السلام ﴾

وقضت ابناء في دار عثمان بضعة اسابيع على تلك الحال كانت في اثنائها تعزية
كبرى لنائلة والدار محاطة بالرجال ليلاً ونهاراً وقد منعوا الماء عنها ولولا ما اشارت
به ابناء من الاستقاء بواسطة آل حرم^(١) لما مات اهل الدار عطشاً
اما نائلة فلم تعد تستطيع صبراً على تلك الحال فاصبحت ذات يوم وقد قضت
ليلتها باكية لما تراكم عليها من الهواجس وما آتت من اضطراب زوجها وقلقها وخوفها
ففكرت في الامر طويلاً فلم ترّ خيراً من استنجاد عليّ فشكت همها سرّاً الى ابناء
واسمعت حبيها . فاستهلت ابناء كل صعب في سبيل اخاد تلك الفتنة واغاد عثمان
من طاقمها . فقالت لنائلة اني عارضة عليك رأياً ارجوان موافقتي عليه
قالت وما من

قالت اري ان اسيرانا الى عليّ ومروان غائب وطالمة على جلبة الواقع فلعلنا

(١) ابن خلدون

يسى في اخماد الفتنة وهو رجل الخمر وبه صلاح هذه الامة
قالت لقد رأيت الصواب وانك اذا فعلت ذلك تقلدني جملاً لا انساء
قالت اني ذاهبة في مساء الليلة خفية والله ولي الامر
فلما كان الغروب تزلت بلباس الرجال وتقلدت الحسام تحت العباءة وغطت
رأسها بالكوفة والنفال وخرجت من دار عثمان الى بيت بني حرم وخرجت منه
تخترق المجموع وسارت تائمس ست علي

وكان علي* جالساً في بيت بعد صلاة الغروب وحدث طلحة والزبير وامراء المسلمين
القادمين من الامصار نعمة علي عثمان وكلمهم يحرضون الناس على الانتقام ولكنهم لم يجد
محمد بن ابي بكر منهم . وشاهدت في فناء البيت جماهير الناس من اهل مصر والكوفة
والبصرة في ضجة وغوغاه . فوقفت في جملة الراقدين ولم يشبه لها احد فسمعت الامراء
يلقون ويخبرون وكلمهم يقول يقتل عثمان او يخلع علي* يخفف عنهم ويوسعهم على
ما ارادوه من الشر وهو يقول « والله يا قوم لا ارى في مقتل هذا الخليفة الا تعاضم
الفتنة انكم والله تختلفون على من يلي الخلافة بعد فابتهوا عليها خوفاً لكم »

فانشرح صدر امساء لشهامة علي ودفاعه ولم تقالك عن الدخول فدخلت وهي
في ذلك اللباس ودنت من علي* فنظر اليها وقد عجب لجرأتها وهو يحسبها من بعض
الراقدين خارجاً . فنظر اليها مستهتماً والفتنة الامراء اليها فكشفت عن وجهها فلما
راها علي* عرفها فاستغرب دخولها وهاب منظرها وقد طامها الغضب وتجلت في وجهها
المهابة . فقال اهلاً عثماناً ومرحباً ما الذي جاء بك

فاستغرب الحضور كلامها لما ولم لا يعرفونها ولشئ يتظرون ما يدومها
اما هي فوقفت بين ايديهم بقلب لا يهاب الموت وقالت « السحون لتأق قول كلمة
في مصلحة المسلمين وتكشف لكم القناع عن حقيقة الواقع بعد ان خبرت الامر بنفسها »
قال علي* تكلمي يا سنية

قالت اعلق هذا الباب وكمل اللباس عن السماع
فامر علي* المجاهدين ان يخرجوا من الدار واغلق الباب وامرها بالجلوس فاعتذرت
بانها تنضل الوقوف بين يديه ثم قالت « يا معشر المجاهدين وخوذة اصحاب الرسول
انكم والله شاهد اذا اردتم امير المؤمنين شراً لطالمه وهو بري لا يستوجب قتلاً او

خلعاً ولا اظنكم اذا قتلتموه او خلعتكموه الا نادمين ساعة لا يرفع الدم »
فاضى الجميع وهم يحجون لتلك الجسارة من فتاة حديثة السن بين يدي احاطم
الصحابه ولبوا صامعين يسمعون ما تقول

فقال « اما اذا شتم اتحاد الفتنة فاقطعوا اصل الشر . اقطلو مروان بن الحكم فانه
سبب ذلك البلاء العظيم . ان الخليفة ايها الامراء يرى ما يفتوه الناس عنه وهو كما
تعلون من خيرة الصحابة شقوق رأوف ^(١) ورد على ذلك انه اذعن واعند جهازاً
على سمع من المسلمين وكلهم يسمعون . ولكن ان هو مروان ذلك الغلام الغر هو الذي
يفعل ما يفعل من عند نفسه فلا تقطلو الربيع بالمذهب . اقطلو مروان بن الحكم فتمتدح
الامراء اذا اصاب الخليفة ضيم فاسم المستولون امام اديان العظيم . قد كماكم انكم
منعم عنه الماء اربعين يوماً ولا يعلم ما يقاسوه من جراء ذلك الا الذين يعرفونه »
فهبت الجميع لتفاحة اماء وثبات جاشها وجسارها وجعلوا ينظرون بعضهم
الى بعض وهم يحجون

فالتفت علي اليهم وقال « هذا والله ما اراه يا اصحاب رسول الله (صلم) ان
هنا اذعن واستغفر ولولا ان هو لرقدت الفتنة وارى كلام هذه العذراء صوتاً من
اصوات الملائكة »

فقال طلحة « ولكننا لم نال جهنماً في قصور يرجع عن مشورة ابن هو وهو يصفي اليه
ويعمل بقوله اما سمعت ما قاله مروان على مشهد من المسلمين »

فقال علي « وما اذراك ان كلامه لم يكن من عند نفسه . يكفينا توبيخاً ونحن
اصحاب الرسول (صلم) ان نقف فيها النيات العذاري موقف الواعظين بمرضنا
على العمل بسنة المسلمين . ومها كان من صدرك ونصحكم فاني اكثركم صبراً عليه ولقد نصحت
مراراً وخرجت من مجلسه في آخر مرة وقد عاهدت نفسي ان لا اتوسط في امره . ولكني
لما طعت بئع الماء عنه ركبت مقاماً الى محاصره وهم وقوف على نايه ووجنهم وقلت
لم (يا ايها الناس ان هذا العمل لا يشه امر المؤمنين ولا الكافرين ولما الاسر عند
فارس والروم يظلم ويسقى) فلم اتى منهم مصفياً » . ثم وجه كلامه الى اماء وقال
والحق يقال « ان كلاماً من هؤلاء الاصحاب قد دافع عنه وسعى في مصلحة حتى ان

أم حبيبة زوج الرسول (صلى الله عليه وسلم) ركبت اليه بغلها وحملت عليها وعاء فيوماً
ونظرت أنها تريد أن تقابله وتكلمه عن وصاياها عند أبي أمية أو عمك أموال
أيتامهم وأرسلهم فقالوا لا والله وضرب بغلها ففرت وكادت تسقط عنها فذهب بها
الناس إلى بيها^(١) أما أنت فمركبة فيك يا بنية والله الملك إنما جئت لخبر ثم
نظر إلى من حوله ونادى الحسن والحسين أبنو فحشاء فقال «أذهبا إلى بيت أمير
المؤمنين ودافعا عنه بسلامة طريحا» الناس عن بابو رأت يا طلحة أرسل إليك
وانت يا زبير أرسل إليك أيضاً فنادى كل منهما ابنة ثم قال علي «يا ابن محمد»
فقالوا يا محمد تعني

قال علي «محمد بن أبي بكر ابن هو» فجعلوا يتسائلون عن مكانه فلم يترطوا
أحد فعأف علي وهو رأسه وقال «أبي والله خائف ما في نفس محمد على الخليفة»
فعلت أسماء أن يحثها حاقداً على الخليفة ابتغاءاً من مروان فلبثت تنتظر ما يقال عنه
لعلها تعرف مكرهه فلما لم يترطوا أحد ثم قال علي لأبيو ولسماء ابنة الصحابه «سوط
بهراسة الله ولا تألوا جهداً في الدفاع عن حياة أمير المؤمنين وريد الناس عن بابو
وإذا رأيتم ابن أبي بكر اسدوا إلى أبي والله خائف ما بضمه»

فقال طلحة «أنظروا حاقداً عليه منذ أرجعه عن ولاية مصر»^(٢) فنظر علي إلى
طلحة ولم يجب ففهم أنه لا يريد ذكر ذلك فسار اباء الصحابة وقد هاج الناس
وما جوا وكلمت ابنة أسماء ليرى وجهه التي تتكلم مثل ذلك الكلام أما هي ففعلت
من بين المهاجرين وخرجت ولم يعد يراها أحد

الفصل الثالث والعشرون

العقد المزور

حادثت أسماء وهي فكر في محمد وخافت أن تكون غيرته من مروان قد حملت
على العكس بعفان فعولت على مراقبة ذلك وهي في دار عثمان فإذا تحققت ما ينوي

محمد وكان فيو اذى لعثمان حائلة عن عزمها لانها أصبحت بعد سعيها في نجات عثمان
أكثر ضناً بحياتها من امرأتها نائلة

أما نائلة فمكنت في البيت بعد ذهاب اماء وهي على مثل الجبر والليل قد سدل
نقابة فجلست في غرفتها تنتظر عودها وهي تضرع لما كل خير اذا جاءها بالفرج
وفيا هي تفكر في ذلك والقضاء تتزايد حول الدار خطر لما ان سير الى زوجها
تستطلع حالة فخرجت الى الدار وتحولت الى غرفته فرأت مروان خارجاً من عند
فاستعادت بالله من رؤيته . اما هو فاعترضها قائلاً لا تدخل على الخليفة انه في
شغل ارجي الى غرفتك . قال ذلك وطى وجهه امارات الاضطراب . فلم تستطع
نائلة معارضة لانه كاتب الخليفة وحامل ختمه^(١) فرجعت وهو ينهاها حتى وصلت
غرفها فدخل هو معها ونظر في جوانب الغرفة فلم ير اماء فقال طين في اماء
قالت انها آتية قريباً

قال ألقها خرجت من هذه الدار

قالت لا ولكنها مفعولة في امر ولا تلبث ان تعود فاخبرني ما بال الخليفة وما
الذي شغله الآن

قال لم يشغله شيء ولكنه يصلي منفرداً والقرآن بين يديه فصعدته نائلة وصعدت
اما هو فكرر السؤال عن اماء فقالت قلت لك انها قادمة قريباً . فتركها ورجع
ولبث هي تنتظر عود اماء . بنارخ الصبر مخافة ان يعلم مروان بخروجها فبحال
في ضررها . ولم تك تجلس حتى سمعت ضجيجاً في صحن الدار فاطلّت من خلال الباب
فرأت جمعا داخلا وفيهم الحسن والحسين وبنو الصفاة مخافت ان يكون في قدومهم
شر ولكنهما ما لبثت ان سمعت الحسن يحاطب اهل المنزل ويطلب خاطرهم وهو يقول
لا تخافوا انما جئنا للذب عن الخليفة . فادركت امهم انما جاؤا بمساعي اماء . وبعد
هنية رأت اماء داخلة وهي لا ترال متكررة فاستقبلها باثة واستطلعها الخبر فعلمت انها
ان الصفاة انما ارسلوا اباءم للدفاع عن الخليفة وارجاع الناس عن باؤ^(٢)
فسرت نائلة وهذا روعها وشعرت بفضل اماء ورأت ان نسي في اتاذاها من
مروان فاحتالت في الدخول على الخليفة فاذا هو جالس والقرآن بين يديه يقرأ

ويصلي صائماً^(١) ولا يلبس ثياباً ولا ثياباً. فدنست منه جفنة فأتته لما فقال ما الذي جاء بك يا نائلة . قالت انما جئت اخفد امير المؤمنين وامتنع ان في الدار الحسن والحسين وسائر ابناء الصحابة وقد جاؤوا بعتهم وسلاحهم يدفعون الناس عن ماما

فقال وهو لا يزال ينظر في صفحات القرآن « لا حاجة لي الى دفاع ولا اريد ان يهريق بسبي محب من الدم » قال ذلك وعاد الى القراءة فجمعت نائلة ذلك وراحت ان تذكر اسماء لدهو فلم تر شيئاً الى ذكرها فعادت الى غرفتها وقضت تلك الليلة لم يخفض جناحها واسماء تعزبها وتنجبها ولولا ذلك لمائت قللاً ورجلاً . وقد كانت تسمع الفوضىاء حول الدار وعد بابها ولا تهرأ ان تطل

اما اسماء فلما طعت بعودة مروان من سفره نظارت بالذهاب الى الفراش فلما نزلت تلك الليلة وبات ابناء الصحابة في الدار سهارى تارة يهددون الواقفين عند الباب وطوراً يوعظونهم وكل اهل النضر في اضطراب وقلبي الا عثان فانه قضى ليلة يقرأ القرآن ويصلي

وفي الصباح التالي استيقظت اسماء على صوت مروان في غرفتها ونائلة جالسة الى جانبها فجلست في السرير واستعادت بالله

فقال لما مروان « ما الذي خرج بك من هذه الدار »

فقالت « وما شأ بك وغروحي اودخولي »

قال « كيف لا طئت امرأتى وقد كُتِبَ كتابك علي »

فأجلت اسماء ايما اجفال وصاحت « خشت يا نذل الرجال اني لا اعرفك ولا اريد ان اعرفك دع علك هذا المديان »

فمد مروان يده الى جيبه واستخرج رقاً عليه كتابة وقال « اليس هذا كتاب العهد وعليه خم الخليفة » فنظرت اسماء ونائلة اليه قرأتا الختم حقيقة فيها

اما اسماء فتبسمت وهي لا تعبأ بهديك وقالت « قد عرفناك قبل اليوم تزور الكتب على لسان امير المؤمنين ان الخليفة بريء من هذه الاعمال ولم يخطئ الا لانه جعلك كاتبه . اما كماك ما سبقت من الشر بتزوير الكتب حتى جئت تفعل كتاب العهد ايضاً فترتكب الزور في الدنيا وامخرق . ان هذا البلاء كله من تزويرك ذلك

الكتاب على لسان الخطبة الى والي مصر^(١) وكان الناس قد طاحوا الى بلادهم فارجمهم واقتطعت القننة فارجم هذا الكتاب الى جيبك واخرج من هذه الغرفة قبل ان اذيقك الموت « قالت ذلك وميت وحي تستخرج خبيرا من بين الثوبها وكان لا يفارق جنبها قط . فارادت نائلة ان تقصدها فأفلتت منها واغارت على مروان تريد قتله فاضل من ضربتها وم تجريد حسامه والهبوم عليها فسمع ضجة عظيمة في صحن الدار وصوتا ينادي مروان مروان فخرج مسرعا والسيف في يده

الفصل الرابع والعشرون

﴿ مقتل عثمان ﴾

ولم يلبث ان رآط الدخان تصاعد من جهة باب الدار فظنوا الحريق قد لعب فيها فاجلوا وماجلا واقتتل كل بنفسه فصاحت نائلة وبلاء قد احرقوا وقتلوا ومرولت مسرعة الى غرفة زوجها

اما اسماء فاطلت من نافذة الغرفة الى باب الدار خارجا فرأت الناس قد تجمعوا هناك وعددهم يزيد على الف نفس وجعلوا يرمون الدار بالنبال حتى اصيب بها كثيرون^(٢) ورأت بعضهم فحقوا الخوذة وهموا يريدون الدخول معها وابناء الصحابة وفيهم الحسن والحسين يدافعونهم . ورأت آخرين يرمون الاسراس لينزلوا بها الى الدار وآخرين قد اوقدوا النار في السقفة فوق الباب ليجرقوها ويجرقوا الباب معاً . وسمعت الجماهير يصيحون بصوت واحد « ادفعوا اليها مروان فتقتله وكفى »^(٣) فاضطربت اسماء وتحولت عن النافذة وخبرها لا يزال في يدها وسارت نحو غرفة عثمان لعلها تقنعه بتسليم مروان فينبهوه . فرأت الدار ملاء بالناس وقد دخل معظمهم من جهة دار بني حزم ورأت مروان في جملتهم ويده السيف يريد ان يدفعهم ففهم طبعه احدم وضربة بالسيف على عنقه فداردورة ووقع فصاحت اسماء « يورك فبك اذا قتلتها فانه اصل الشر كله » ولكن الضربة لم تكن قاضية بل قطع احد طلوه فعاث مروان بعد ذلك اوقص^(٤) ولكن اسماء ظنته

(١) ابن خلدون (٢) العقد الفريد (٣) مروج الذهب (٤) ابن الاثير

مات فتركته وسارت بين المهاجرين الى غرفة الخليفة فرائه جالساً والقرآن بين يديه
وعنده نائلة واقفة والسموع ملء عنقه فتأثرت لمنظرها

ولم تكن تلف حتى دخل الحسن والحسين واولاد الصحابة وفي ايديهم السيوف
مسلولة ورأت ثياب الحسن مصبوغة بالدم^(١) وكان عثمان لما سمع بدفاعهم عند باب
داره خاف عليهم فبعث يستقدمهم اليه ليردعهم عن ذلك فقال لهم «اغمدوا السيوف
وارجعوا فان الله قد عهد الي عهدنا صابر طويـه وقد علمت ان الناس قد احرقوا
السيفه فلم يجرعوها الا وهم يطلبون ما هو اعظم » ثم وجه خطابه الى الحسن قائلاً
« ارجع يا بني ان اباك الان في شغل عظيم من امرك فاقسمت عليك لما خرجت
اليه » اما الحسن وسائر ابناء الصحابة فلم يصغوا لقوله فعادوا للدفاع وظل هو
جالساً على مقعده يقرأ ولا يبالي بالفوضىاء وليس عنده في الغرفة الا نائلة^(٢)

وكانت أسماء واقفة هناك على حدة وقلوبها يخفق خوفاً طويلاً فابلت ان رأت رجلاً
من قریش دخل طويلاً وقال له « اخلصها / اي الخلافة) وتذعك » فقال عثمان
« ويحك والله ما كشفت امرأة في جاهلية ولا اسلام ولا تغيب ولا تميت ولا وضعت
يمني على هورتي منذ بايعت رسول الله (صلم) ولست خالفاً قميصاً كساهه الله تعالى
حتى يكرم اهل السعادة ويهين اهل الشقاوة » فخرج الرجل . ثم رأت رجلاً عرفته
بعد ذلك انه عبد الله بن سلام فوقف في الناس وقال « يا قوم لا تسلبوا سيف الله
فوقكم فوالله ان سلبتموه لانتقموا ويحكم ان سلطانكم اليوم يقوم بالدره (السوط) فان
تسلموه (أي الخلافة) لا يقوم الا بالسيف . ويحكم ان مدينتكم مخوفة بالملائكة
فان تسلموه لتتركها »^(٣) فصاحوا فيه « ما انت وهذا يا ابن اليهودية » فسكت
كل ذلك واسماء واقفة مضطربة القلب لا تدري ماذا تعمل وكانت قد تعاطت
بما اصاب مرطان لظنها انه قتل ثم ما لبثت ان رأت محمد ابن ابي بكر دخل مسرعاً
وراء جماعة ولم يتبها لما وما زال حتى دنا من عثمان . فاجسست من قدومها خوفاً
لعلها بما في نضو فقال له عثمان « وبلك اعلى الله نقضب هل لي اليك جرم الا حقة
اخذت منك » فاسمكت محمد لمجيئته وقال « قد اخزاك الله يا عثمان » (وكان عثمان
لقباً يلتقون به عثمان) فقال عثمان « لست بعثل ولكنني عثمان وامير المؤمنين »

قال محمد « ما اغنى عنك معاوية وفلان وفلان »
فقال عثمان « يا ابن اخي فما كان ابوك لينقض عليها » اي على لحمه
فقال محمد « لو راك اني تعمل هذه الاعمال انكرها عليك والذي اريد بك اخذ
من قبضي عليها »

فقال « استصر الله عليك واستمعين و »
فلما رأت اماء ما دار بينها خافت ان ينتك محمد بالخليفة فيكون ذلك
نقطة سوداء في تاريخه . فدنست منه ووقفت بحيث يراها واشارت اليه ان يكف
عما هو فيه وان يتبعها حالاً . فلما رآها محمد ترك لحمه عثمان وخرج يستنهم اماء عا
نريده . فانفردت به جانباً وقالت له من اين دخلت الدار
قال دخلت من دار بني حرم^(١)

فالتت وانت ايضا على عثمان . واخبرته انه بري وما ينسبونه اليه
ولم تنك تبين له ذلك حتى سمعت صياح نائلة فاسرعت اليها فاذا هي قد حلت
شعرها ونشرت عثان يقول لها « خذي خمارك فلهبري لدخولك علي اعظم من حرمة
شعرك »^(٢)

ثم رأت رجلاً من دخلوا مع محمد بن ابي بكر م بعثان ويدع حديقه ضربة
بها على رأسه فقال دمه على المصحف فتيمة آخر لضربة السيف فاكتت نائلة عليه
والثقت السيف بيدها فقطع اصابعها^(٣) . ففارت الحمية برأس اماء فهتت بمنجرتها
نريد قتل ذلك الرجل فامسكها محمد عن ذلك ولم تمض لحظات قليلة حتى قتل
عثان وفر قاتلوه

فلما رأت نائلة مقتولا حملت يدها والدم يسيل منها وخرجت من الغرفة وهي تبكي
ونادت الحسن والحسين فدخلوا فرأيا عثمان مذبوحاً يجنط بدماء^(٤) فصاحا قاتلينا
كيف يقتل عثمان ونحن في داره ما الذي نوله لوالدنا اذا سألنا عن ذلك
اما اماء فلم تتالك عن الكاء ولكنها لطمها على القاتل حملت تنظر منه ويسرع
لعلها تراه فاذا هو قد فر وهافت الناس على بيت عثمان للهب والسلب وطلت
الغوغاه واشتغل كل بنفسه

(١) العقد الفريد ج ٢ (٢) الاغانى ج ١٥ (٣) ابن الاثير ج ٢ (٤) العقد الفريد ج ٢

الفصل الخامس والعشرون

﴿ محمد واسماء ﴾

أما محمد فهم باسماء وامسكها بيدها وقال اتبعني فتبعته حتى خرج بها من الدار وهي تود البقاء لتري ما يكون من حال نائلة ولكنها رافقت محمداً طويلاً لميل قلبها . فلما رأت نفسها خارجاً ومحمد ممسك بها تذكرت ليلة خلت في قبر النبي ولم تكن تعرفه فهاجت اشجانها فوفقت بشفة فجذبها محمد فتبعته حتى وصلا الى خلوة بازاء نخلة عطيفة فوفقت في ظلها وجذبت يدها من يده وقالت الى ابن نهن ذاهبون يا محمد قال هل ترين لك ما رآنا في دار عثمان بعدئذ . لقد نصحت لك ان تخرجي منه منذ ايام فلم تقبلي حتى رأيت قتلة بعينيك وهذا ما كنت اخافه عليك

فالت انكم ظلمتموه يا محمد ولو استطعت انقذه من ايديكم لعلت ثانياً لمروان انه سب هذا اللاء . قالت ذلك واغرورقت عينها بالدموع فقال محمد دعينا من الظلم والعدل فقد قتل عثمان ولا خوف في الواقع ولم يعد بقاؤك في دار ممكنا والناس قد دخلوها وهبوا منها . فافصلي الآن عن رأيتك ان الوقت ضيق والامر جل ولا استطيع البقاء معك الا قليلاً

قالت وماذا تريد مني

فامسكها بيدها وضغط على امامها وقال ألا تعلمين ما الذي اريد

قالت نفسي تحذيني وسكنت

قال ارجوان يكون قلبك يحدتك لا مسك . قولي حالا

قالت يظهر لي ان مقتل عثمان لم يهلك . اني والله لا استطيع تذكر حاله وقد

فارقناه والدم يجري من عقه

فتنهذ محمد وقال أنظيري لم آسف لموتو

قالت لا اظلك آمناً وانت المادى بالقتل . والله لو لم يسبق الى قلبي سابق

. ما استطعت النظر اليك

قال اراك توخيني وما هذا وقت التوبيخ ولو شرحت لك سبب هذه القصة

لطلال بنا المقام ونحن في حال تدعو الى المبادرة ولكنني سوف ابسط لك حقيقة الواقع
فقطعت يدي . واما الآن فاني مسرع الى منزل علي لاني اتوقع خلافاً عظيماً يقع بين
العصابة ولا بد لي من حضور محاسنهم . واما انت فلا أرى ان تقضي هنا والحال
في اضطراب

قالت اني صابرة حتى اسمع عنك في قتل خليفة الرسول فان لم ار ما تُعدّر
يو على قتلو وسكنت وهي تنظر الى الارض حياء ما كاد ينطق بلسانها
فاجتذبت حربة فمهرها وصحة مبدأها وتسم وازداد ميلها وقال « اني واثق
باني سأبرئ نفسي من تبعة القتل ظلماً فاصبري حتى نجتمع على سكونة واذهي الآن
الى ما مني »

قالت الى اين اذهب وابيعي وجوادي لاثزال في دار عثمان
قال لك علي تخليصها أما ذهابك فلا اقول الى اين قبل ان اعرف همبرك فهل
انت فاهمة مرادي . قالت وما مرادك

قال اقول لك بالاختصار اني احبك فهل انت تحبني
فعلت وجهها حرة الخجل وارتخت القاب على وجهها ولم تحب
قال انك لم تر يد يني بهذا الخجل الا ثقة بحبك . فاعلي يا اماء اني عازم على ان
ارجمك من انعابك واخلصك من والدك او الذي يدعي انه والدك . وقد
تركك منذ ايام ولا اظنك تعلمين مقري . أما مروان فلا فضل لي في اتاذك منه وقد
نال نصيبه

فلم يكذب ذكر اسم مروان حتى نهدت اسماء وقالت فبيع الله مروان انه سبب هذا
البلاء . وقد كنت اود اني قتلت يدي لاشفي غليلي منه

قال لا اظنه قتل فقد تركته في الدار يعصب عقه على أثر جرح اصابة دعينا
منه ومن اسمو . أما والدك النخ الفر فلا اظنه يجرأ على الظهور بعد مقتل عثمان
وارجوان لا تدعو والدك بعد الآن فانه بعيد عن هذا القلب بعد الارض عن الماء .
وها اني ذاهب الى بيت علي وهو الذي سبب الخلاف لانه احق بها من الجميع . ولكنني
لا اظنه يذأها الا بعد خلاف عظيم فلا آمن اذا كنت في منزل من شر يصيبك
فأرى ان اذهب بك الى ما من تبون فهو حتى يهدأ الأحوال فتعيشي معاً باذن الله

ألا ترين ذلك

فاطرت اسماء وقد هاجت اشجانها وتذكرت والدتها وهي لم تأسف لفراقه لكنها اسنت لفراقها نائلة في حال حرها واضطربها وزوجها ملقى على الارض قتيلًا . على انها شغلت بما يجالج قلبها من حب محمد وهو الذي اول ما رأته أخته بمجرد ذكر والدتها اسمًا واصبحت بعد ما طلت من منزلها عدد علي وأنه ابن اول الخلفاء شديدة الميل اليه فطلت ردة صاعقة بهم بالكلام وبنعها المحاء وقد ذهبت منها تلك الجراءة وانفادت تلك المحبة التي كانت تحمر بها اعظم الرجال وشعرت للحال بخيفان قلبها وهياج عواطفها فابرت اسرتها ولآلات عيناها وكأن لسان حالها يقول : ان الله قد قبلي ولكنه نظر الى حزني لمحبي الى خيرة ابناء الصحابة »

فأدرك محمد انها تكتم حبه فام بدأ ان يضبط على عواطفها . فقال لها قد فهمت مرادك يا اسماء وفي لبي الآن ان اذهب بك الى احدى ذوات قراني في بعض اطراف المدينة لئيمين عندها ريتا تنقضي الآلة التي نحن فيها ونعبد الخلافة الى هي فورج الامر اليها وعود السلطان الى قبضنا فقيم في رغد وهناك باذن الله . قال ذلك ومضى فمشت وفي لا تكلم حتى انتهى بها الى منزل في طرف المدينة فدخلة واذا فيها امرأة عجوز لم تك تری محمداً حتى قمت ووقبلت ورجعت و

فقال لها لقد جئتكم باعر شيء عندي ارجو ان تحفظني بها ثم حوّل وجهه الى اسماء وقال امكثي هنا يا اسماء ريثما اعود ولا تصيري اذا طال غيابي

فقالت لا تنذرني بطول الغياب اذ ربما لا استطيع صبراً على البقاء هنا فقالت العجوز أهلك خضت الإقامة عندنا يا ابني وطأته اني أكثر عناية بك من ولدي هذا — وأشارت الى محمد ثم اخبتها بيدها ودخلت بها وودعها محمد وخرج

الفصل السادس والعشرون

— مدفن عثمان —

فلما خلت اسماء بالعجوز احدثت بالوحشة فالتصت غرفة دخلت اليها لتخلو بنفسها فلم تك تقبل حتى تصورت عثمان « طروحاً رثالاً وإفنة فوق رأسه وقد جلت شعرها

واخذت تلطم خديها وتندب زوجها . فلما تصورت اسماء ذلك اقصر بدنها وندست
على مجيها ومغادرة نائلة في تلك الحال
فقضت بقية ذلك اليوم منفردة كثيبة ولما اسي السماء توسدت الفراش تلتبس
النوم فلم يغمض جفها ولا غابت صورة دار عثمان من امامها
فقضت ليلتها تنقلب على مثل الجمر تارة تمكر في محمد وطورا في والدها وهي لا
تعرف ابن هولاوة في عثمان ونائلة حتى مضى مزيج من الليل فقلب عليها النعاس
فنامت فاصبحت في اليوم التالي وضربها بكبتها على حجرها صديقتها نائلة في ساعة الضيق
وحديثها نفسها ان تسير اليها ولكنها خافت ان يجي محمد في اثناء غيابها فيغضب
فمضى النهار ولم يأت محمد فانشغل بالمالا طوي على انها التمس الفراش باكرا لعلها
نام فتعوض عن سهرها بالامس ونسى هواجها فلم تنم الا لحظات متقطعة
واغمضت جنبها عند الفجر فرأت طيف نائلة في حالة يرى لها من الكآبة والحزن
وقد احمرت عنانها وقطع شعرها من الهكاه والندب واللعن . فلما تخيلها اسماء على
تلك الحال طلب النخل عليها وشعرت ان حال نائلة يوجبها على خروجها من عندها
في ذلك الحزن فأفاقته مدهورة مأكبة وقد بلل الدمع وسادتها فنظرت الى
السماء فرأت الشمس قد طلعت فموت على المسير الى دار عثمان تنتقد حال نائلة
من بعدها ولكنها تذكرت ان محمدا اوصى الجوز بالاحتفاظ بها لحافها اذا ارادت
الخروج ان تمسها فقضت ذلك النهار قلقة مضطربة وهي تردد بين الذهاب والبقاء
حتى اسي السماء وذهبت الى منامها فجملت تنقلب على الفراش كأنها توسدت شوكا
فانقض نصف الليل ولم تطلق جنبها فلما على نائلة وحالها حتى اشتد بها القلق ولم تعد
تستطيع صبرا فنهضت ولبست ثيابها وتقلدت الخنجر كعادتها في مثل هذه الحال
وانطلقت تطلب دار عثمان على عجل وهي لا تمنع برود لان الوقت كان صيفا (١)
وجعلت طريقها في اطراف المدينة لئلا يراها احد على انها لم تكن تخاف رقيقا وقد
معتت وجهها بالقاب

ولم تكذب نهيها حتى رأت اشباحا تفرست فيهم فعرفت ان قياتهم ائيم من

(١) لان عثمان قتل في ذي الحجة سنة ٣٥ للهجرة بلا خلاف وعمره يوافق شهر يونيو

(حزيران) سنة ٦٥٦ م (الطوم الدام)

بني أمية يهرعون بين راكب وماشي فراراً من المدينة كأن أحداً بطاردم . فسارت
مهاذبة لبعض المجدران حتى مرّت بحافة أن يكون مروان معهم فيعرفها وقد طمت
بهاقوا حياً بعد تلك الضربة . فطال بها المسير ولم تصل دار عثمان لأنها كانت تجهل
الطرق فأرادت الرجوع الى منزل العجوز فلم تعد تعرف الطريق . وكان العجوز قد دنا
وطلع الشفق فجهل لما أياها اذا اشرفت على المدينة من مرتفع فكنت من تعين مكان
الجامع فاذا عرفت عرفت منزل عثمان . فتولت نحو سور المدينة في مكان خارج البقيع
وهناك ارض مهيورة قل من يثر فيها . ولم تكن تدرك المكان حتى رأت بضعة
عشر رجلاً مهولين عن بعد وفهم اناس يحملون لوحاً عليه شيء . فظنهم من جملة
المارين يحملون ائمة وانهم انما طلبوا ذلك الطريق البعيد خوفاً من الهون .
فالتفت الى زقاق ضيق واستمرت بخلة بحيث ترى المارة ولا يرونها . فلما دنوا منها
عرفت منهم اناساً في جملتهم مروان وعبد الله بن الزبير وكانت قد رأتها في جملة
من جاء للدفاع عن عثمان^(١) من ابناء الصحابة . فلما رأت مروان بالغت في الاترواح
وتصلت الى ما يحملونه فاذا هوجئة مطروحة على باب وجعلها عارية لقرع الباب
لاسرعهم في المسير من شدة الخوف^(٢) ورأت تحت العجبة لحية كبيرة غضة مصفرة
عرفت انها لحية عثمان . وتأملت الثياب فاذا هي ثياب ولا يزال الدم عليها^(٣) فلم
تفك ان الجنة جنة . فحقق قلبها وارتعدت فرائصها لما لحى بهذا الخليفة من الاهانة
بعد موته . وادركت من وجوده هناك في تلك الساعة انهم خرجوا يوليا وتكررت موت
والدها فتأست لانيها دفنت مكرمة . ولجنت مسترة وراء الخلة تنظر الى تلك الجنائز
الحزينة فاذا بهم لما وصلوا الى حائط هناك يقال له حش كوكب^(٤) حطوا له حفرة
دفنوا فيها وهم ينظرون الى ما ورائهم خوفاً ورهبة

فصبرت ريثما تفرقوا وسارت حتى صعدت الى مرتفع اطلت منه على المدينة
فاشرفت على جامعها فاذا هو بعيد عنها كثيراً فجعلته وجهها ونزلت تخترق الاسواق
فلم تجد فيها الا قفراً قليلاً تخافت ان يلاقها محمد وهي في تلك الحال . وما زالت
حتى وصلت منزل عثمان والتمس قد طلعت فرأته موصداً فالتصمت باب بني حزم

(١) ابن الأثير ج ٢ (٢) تاريخ الخلفاء ج ٢ (٣) تاريخ الخلفاء ج ٢

(٤) ابن الأثير ج ٢

فراثة مغلقة فصنعت فلم تسمع صوتاً فوقفت برهة ثم همت بالباب ففرعته فلم يجيبها احد
فأعادت القرع فأطال عليها رجل من كوة فوق الباب عرفت انه من خدم عثمان فلما
رأته اومأت اليه ان يفتح . فلما عرفها فتح لما فدخلت وسألت عن نائلة فأوما
اليها ان لا تشكلم وسار امامها فتبعته فدخل بها غرفة رأت فيها نسوة احلن بنائلة وهي
لا تزال محمولة الشعر كما رأها في منامها بالاس

الفصل السابع والعشرون

❖ قبض عثمان وأصاب نائلة ❖

فحالما وقع نظر نائلة عليها صاحت بها فائتة ما الذي جاء بك يا اماء يا حبيبي
الملك آتيت لثري امير المؤمنين . فقد فانك ما لاقاه من اكرام المسلمين بعد موتو .
قالت ذلك وأوغلت في البكاء

اما اماء فألقت نفسها على مائلة ولم تنالك عن البكاء والتهيق وهي تقول ان
خسارتك يا خالتي خسارة المسلمين كافة لقد قعد امرم بعد عثمان لانهم سفلوا دماً
برقاً يجوارقهم الرسول (صلم)

فلعلت نائلة خديها بكفها وإذا باحدى يديها معصوبة فذكرت اسماء انها اليد
التي اصببت بالسيف فقطعت اناملها . وقالت نائلة يا ضعبة تعبك يا اماء ويا خيبة
ما املناؤ من سعيك لقد غشونا والله وغدرنا بنا فارسلنا اولادهم للدفاع عنه وبعضوا
بقتلونه مع آخرين . ألم نري ان ابي بكر قبض علي لمحيو رحمة الله

فلما سمعت اسم محمد تأسفت لانه فعل ذلك ولم تجد ما تدافع بوعه فسكنت
وهي تفكر في عبارة تعزيها بها فلم يفتح عليها . ولكنها قالت اصبري يا خالته ان الله مع
الصابرين وقد كتبت بالاس تعزييني وقصبريني فأنت اولي مني بالفاس بالصر

فصاحت نائلة « اواه يا اماء كيف اصبر وقد قتلتوا عان قتلاً لم نسمع بمثله
ابن منه موت والدتك رحماً الله فقد ماتت وصلوا عليها ودغواها كريمة اما هو فقد
طعنوا في صدره ثلاث طعنات وضربوه على مقدم الجبين ضربة اسرعت في العظم
والله اني لا ازال اسمع صوته يرن في اذني وهو يقرأ القرآن لا سالي بها يفعلون

واظنك رأيي وقد سقطت علي وم يهون يو وفيه بنية والمني علي يريدون قطع رأسي
لا ادري ما ذا يريدون يو حتى أنت هذه الفتاة بنت شيبه (قالت ذلك وأشارت الى
فتاة بجانبها) فالتفت معها معي علي وكنت قد خرجت فوطاً نا وطناً شديداً وعزماً
من ثيابنا وحرمة امير المؤمنين اعظم فقتلوه رحمة الله علي في بينو وعلى فراشو (١)
ثم تنهت تنهداً شديداً وقالت « ولو اكتفى بذلك لكان خيراً ولكنهم منعوا
الناس ان يصلوا علي وقالوا لا يدفن في مدافن المسلمين (٢) كأنه كفر او كان من
المشركين . جزام الله بما فعلوا . فظل في بيننا ثلاثة ايام وجثته ملقاة بين أيدينا ونحن
نكيه ونبكي الاسلام من بعدك ولو لم تلق اخيراً نا من اهل القبرة يحملونه بعد منتصف
الليل خلسة لظل غير مدفون . وكم ساء في ما اصاب الذين قتلوا معه فقد جرؤم
بارجلهم ولعلمهم التوم على اللال لنا كلهم الكلاب وما والدك المسكين فلا ادري اذا
كان قد اصابه مثل مصابهم

فلما سمعت اسماء ذكر والدها افشع بدنها واستقع لونها وصاحت وماذا اصاب والدي
قالت أما طلت بها اصابه وقد كنت في الدار معنا . قالت لا . ما ذا اصابه
قالت سمعت انه قتل مع الخليفة في بعض جوانب الدار
فلطبت اسماء وجهها وصاحت ويلاء واأبناء . واوغلت في البكاء . وبهضت
مدعورة وقالت ابن هو الآن . ارون والدي ابن هو

ولم تكن نائلة تتوقع من اسماء حزناً شديداً على والدها لما نطقت من حديثها عنه
أما اسماء فأخذت في البكاء والنوح والنساء هناك يحضن عنها فقالت لها نائلة
نصيري يا اسني ان لة اسوة بأ مير المؤمنين وسوف يلتقيان ربهما معاً ولكن الله سيستم من
القوم الظالمين . ان للخليفة قوماً يأخذون بنارهم وثارني امية جميعاً نعم انهم لم يدركوه
حيّاً ويدفعون عنه القتل (٣) ولكنهم سوف يطالبون بشأره اذ رأوا قميصه الملوث بالدم
واصابه المطبوعة فقد ارسلت القيص والاصابع الى معاوية في الشام (٤) واصبح الامر
لبني امية وم سواد قریش . وقد ظن بنو هاشم انهم اذا قتلوا عثمان يضعف شأن بني امية
وطاؤه انهم أكثر رجالاً واوفر عدة واصعب مراساً وسوف يلقي بنو هاشم عاقبة ما جئنا
ايدهم ان شاء الله

فلما سمعت عهيد نائلة وحكاية قبض عثمان واناملها وما ذكرته من تفضيل بني امية على بني هاشم علمت انها انما ارسلت الاصابع والقبض استحقاقاً لبني امية على المطالبة بدم عثمان وتحققت انها تقصر السوء لعلي فلم تصدر على الدفاع عنه فقالت « ولكنك تعلمين ان بني هاشم كانوا اكثر الناس دفاعاً عنه فان علياً ارسل ابني الحسن والحسين لرد الناس عن باؤ ولو اذن لها امير المؤمنين رحمه الله بالقتال لجاهدا في الدفاع عنه الى آخر نعمة من حياتها . أمل هؤلاء يطالبون بدم عثمان ام يقال انهم دافعوا جهداً » قالت « واي دفاع تريدن . فوالله لو ارادوا دفاعاً ما مات عثمان لقد اخذوا الامر بالاهمال والصرحون لا ينفخ الصبر بل هو عجز وسوء نية . ولا يفررنك ارسال اولادهم » . قالت ذلك وحرفت اسنانها وسكنت

فصدرها اساءة لمهاج عوطتها على مقتل زوجها ولم تنجها . ولكنها عادت الى السؤال عن والدها . فقالت لما احدى المحصور لا شعني تمسك يا اماء ان والدك قد قتل في جملة الذين قتلوا مع عثمان وم اثنا هو ثالثهم . وقد حملوا جثثهم خلسة الى حيث لا يعلم احد . فعزى بمقتل امير المؤمنين خيفة رسول الله (صلم) بعد ان سمعت ما جرى له

وظلت اماء هناك برهة تبكي مع الباكون حتى هدأ روعها فتذكرت ان وفاة والدها خبرها في مستقبل حياتها فنظرت الى نائلة وقالت « ما الذي عزمت عليه يا خالة الآن » قالت « لقد عزمت على المسير من هذا المكان الى حيث لا ارى هاشمياً ولا اسمع بهاشمي ولكنني لا استطيع الخروج الا خلسة وما مقامنا هنا الآخية . ولو عرف هؤلاء الظالمون مقامي لادركوني وقتلوني . ولكن بني حرم اهل جوار فقد خبأوني جوارم الله خيراً » ثم تذكرت اماء انها تركت بيت العجوز على غرة فخافت اذا افتقدتها ولم ترها فالتفت عليها وبخصوصاً اذا عاد محمد ولم يجدها وزد على ذلك انها خافت عجيء مرطاف وهي لا تريد ان ترى وجهه بعد ما جرى بينها وبينه . فنهضت للحال واعتبرت انها تريد المسير الى بعض ذوي قرابتها في اطراف المدينة

فقالت لما نائلة « اذهبي حثيثاً يا ولدي ولو كان لي بيت لدعوتك اليه ولكنني اصبحت غريبة بين اهل بيتي اتوقع الخطر على حياتي . فاذهي حركك الله ووقاك واذا من الله علينا بالايجاع ارجوان اكاثك على صنعك الجميل وحبك التي لم ارمثلها . سيدي

يا ابنتي بحراسة الله « قالت ذلك وضمتها الى صدرها وودعتها وهي تبكي وبكت اسماء ايضاً وقد انظر قلبها لما سمعت من كلام نائلة وشق عليها ان تراها في هذا الحال وقد كانت بالامس زوج امير المؤمنين ولما الامسحى النبي

الفصل الثامن والعشرون

— ﴿ بيت علي ﴾ —

ثم ودعت اسماء نائلة ومن حضر من النساء وخرجت تلمس بيت الجوز وهي تحسب انها تعرفه لكنها نامت هذه المرة ايضاً لا سباً وان البيت صغير لا يرى عن بعد .
على انها وصلت في آخر النهار وقد مالت الشمس الى المغرب فوجدت الباب مغلقاً ولا نور هناك ولا حركة ففرعت الباب مراراً فلم يجبها مجيبٌ

فوقفت برهة تمكر في ما تفعله فلم تر خيراً من الذهاب الى منزل علي تتفقد محمداً فاذا لم تجد بآت تلك الليلة هناك فقد طالما دعاها للاقامة في منزل . ولكنها خافت اذا سارت بلباس النساء ان تكون موضع التفات الناس في الطريق او في فناء الدار لان بيت علي لا يخلو من القادمين والغادين . فنصّت التنكر وكانت منطقة بكوفة حلتها ولفت بها رأسها كما يفعل الرجال مسافراً وتزلت بعباءة كانت قد خرجت بها بالامس وسارت تلمس بيت علي فلم تصله الا نحو العشاء . فرأت بعض الناس في فناء الدار وكانت تتوقع ان ترى ازدحاماً . ثم علمت ان اهل البصرة والكوفة والمصريين الذين كانت تزدهم بهم المدينة قبل مقتل عفان تحولوا الى مضاربهم خارج المدينة للبيت . فسألت عن علي فقيل لها انه في خلوة مع بعض الامراء لا يدخل عليه احد فوقفت تنظر في الامر فحدثتها نفسها ان تدخل المنزل فتبيت عند بعض نساء علي ولكنها هابت الدخول طمأنينة وهي لا تعرفن قبلاً

وفيا هي في ذلك رأت محمد بن ابي بكر خارجاً من الدار فتبعته فلما رأى عباءتها ومشيتها عرفها فدنا منها وتقرس فيها فقالت « محمد » قال « اسماء » .
قالت نعم اين انت

قال « لقد شغلت بالي لغيا بك اين كنت »

قالت خرجت في حاجة سأقصها عليك الآن وابن هي عجوزك
قال انتني في صباح اليوم وهي قلقة لغيبك وقد قضينا طول هذا النهار في
البحث عنك ففشلنا عما نحن فيه من الامور العظام تعالي معي ادخلك الى والدي
قالت وهل تقيم والدتك هنا في منزل علي
قال نعم وهي زوجة^(١) بعد والدي رحمه الله واسمها مثل اسمك يورك في هذا الاسم
فسرت اسماء لمعرفة والدتي ورأت باباً للفرج بالاقامة عندها واجبت زيادة
التفصيل فقالت « وهل تزوجها علي من زمان طويل »
قال « تزوجها بعد موت والدي وكنت انا طفلاً قريباً في حجر^(٢) فاما أعداء
بمنزلة والدي وهو ينجني كأحد اولاده »
قالت « لقد آمنت فيه ذلك رحم الله والآن ولدك وعاش والد ربك » . قالت
ذلك وقد ابرقت اسرعها اعجاباً بولكها ما زالت تظهر الفتور نعمة حديثها فنصره
بذلك فقال « اراك قد تغيرت يا اسماء بعد خروجك اليوم »
قالت بل انا باقية على ما تعلم ولكنك سألتني عن سبب خروجي
قال نعم والى اين كان خروجك
قالت خرجت الى تلك المسكية التي قتلتم زوجها وتركتموها حرة كثيرة فلم
يسعني مغادرتها على تلك الحال وقد كانت تعزيني الوحيدة في حال حرني واضطرابي
قال الملك سرت الى نافذة

قالت « نعم سرت اليها ورأيت مدفن فتلكم رحمه الله . فقد حملوني على باب
وساروا بو خلسة ليدفنوني خارج المدينة وسمعت طعناً بك ساء في ان اسمع وساء في
فوق ذلك ان لا استطيع الدفاع عنك لاني شئت دخولك وتعبك قتل الخليفة »
قالت ذلك وفي نعمة كلامها ما لا يصدر إلا عن سلطة الدالة وسلطان الدلال
فأدرك محمد ان اعتمادها هنا سيكون نقطة - وداء على صحتها حينها فساءه
ذلك لكنه اعجب بافتها وصدق ادبها فقال كل الميل الى نعمة تنسو عدها فقال وهو
يتمس تأكيداً البراءة ساحنو « لقد قلت لك يا اسماء ان الرجل لم يقتل ظالماً وهي اني
قتلته بيدي فما انا نادم على ذلك وسأطعك على جلية الواقعة في فرصة اخرى . اما
الآن فادخلي بنا لاعتراك والدي وهي تعرفك بأهل علي » قال ذلك وم بالدخول

الفصل التاسع والعشرون

﴿ الحسن بن علي ﴾

ولم يكذبون من الباب حتى سمع وقع اقدام في الدار ثم رأى شاباً خارجاً حالماً
رآه علم انه الحسن بن علي فالتق حن السلام . فقال محمد وعليك السلام يا ابن
امير المؤمنين

فقال الحسن اراك تبشرني بخلافة انا خائف منها

قال لا تخف يا ابن بنت الرسول وابن ابن عم النبي انكم اولى الناس بها
وكان الحسن يخاطب محمداً وينظر الى اسماء وقد انكرها لثقتها . فابتدره محمد
قائلاً ان رفيقي اموي جاء للمبيت عندهم فهل تقبلونه

قال اهلا بوايها كان فليدخل . قال ذلك ودخل فدخل في اثني واسماء لا تزال
ملثمة والحسن ينظر اليها ويتوقع حسر اللثام . فلما حسرتة ووقع نظره عليها تذكر انه
رآها في منزل عثمان وقد كانت حاضرة ساعة مقتله . فوقعت من نفسه موقفاً حسناً
واعجبت بهيبته وجمالها . فقال « اهلا بك يا اخية فقد نزلت اهلاً ووطئت سهلاً »
اما اسماء فغلب عليها التهيّب لوقوفها بين يدي ابن علي ونظرت اليه بعطف خفي
فاذا هو ابيض اللون مشرب بالحمر ادعج العينين سهل الخدين كثر اللحية ربع القامة
جعد الشعر لم يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره وكان اشبه الناس بالنبي ^(١) فلم تمالك
اسماء ان نظرت اليه حتى غلب عليها الحياء فاطرفت وقالت « بورك في بيت شرفه الله »
فقال محمد للحسن « وايزدك تعريفاً بها ايها اسماء بنت يزيد التي جاءت منذ
بضعة اسابيع تستدعي مولاي ابي الحسن لمشاهدة والدها وهي على فراش الموت لسر
كانت عازمة على اطلاقه عليه فقصت رحمتها الله قبل وصوله وذهب ذلك السر
معه الى القبر »

قال الحسن وهو ينظر الى اسماء « ان والدي ما زال يذكر ذلك وبأسف
لضياع السر ويحبب بما آتته في هذه القصة من الشهامة والافتة » قال ذلك وسار

امامها فمشا في اثر وقد شعر محمد من ذلك المحن بغيرة من الحسن وتدم على محبتهم بها الى ذلك المكان ولكنة تجامل وقال « الى اين نحن ذاهبون »

قال الحسن « الى خالتي امامة اعرضها باسماء فتبعت عندها الليلة وهي تعرفها بالاسم قبل اليوم ولا ريب انها ستسر بلقيها كثيرا »

فلم يستطع محمد معارضة فلأ تنكشف غيرة فاجابه وهو غير راض بذلك التعريف لان الحجاب يمنع من الدخول معها الى امامة فبقي خارجا على مثل الجحر ودخل الحسن الى غرفة امامة بلا استئذان . وكانت منفردة وقد لبست ثوبا بسيطا وفي عنقها قلادة من جرج كانت كثيرة الاحتفاظ بها . فلما رأت الحسن داخلًا قامت ان تسأله عن امر الناس والخلافة فاذا هي باسماء تنبئة فلما رأها اعجبها حسن طلعتها فدنست اسماء منها بهم بتقبل يدها فتمتعها وقبلها فابتدرها الحسن قائلاً « اقدم لك يا خالة اسماء واظنك تذكرين حديث والدي عن والدتها التي ماتت في قباء ومات ذلك المرء معها فلهذا هي ابنتها وكثيرا ما سمعت والدي يذكرها وتعجب بها »

ثم التفت الى اسماء وقال « واطلي يا اخية انك بين يدي امامة زوج والدي وهي بنت زينب بنت الرسول وكان جدتي (صلعم) يحبها كثيرا وانظري الى هذه القلادة التي تربتها في عنقها فقد اهداها اليها رسول الله يوم ولادتها وكانت احب اهلوه ^(١) »

فازدادت اسماء اجلالا لامامة وظلّت واقفة حتى دعما الى الجلوس فجلست على وسادة بالقرب منها . فقال الحسن « لا حاجة لي ان اوصيك بضميتك وانت اولي من اكرم الضيف مع طلك بمنزلها عند والدي » قال ذلك وخرج وكان محمد في انتظاره وهو على مثل الجحر وقد لام نفسه على محبتهم بها فلما التفتا قال الحسن كيف عرفت هذه الفتاة يا محمد

قال عرفتها يوم جاءت لاستدعاء مولاي ابي الحسن الى والدتها وقد صحبتها الى قباء . وهي متكرمة بزي الرجال ثم شاهدتها مرة في منزل عثمان ورأيتها الآن جاءت تطلب منزلكم لانها غريبة وكان والدك قد دعاهم للاقامة عندهم تعزيتهم على حزنها وبقيها فقال الحسن انها والله ذات جمال ووقار واظنها ستبقى عندنا واني شاكر لهذه الصدقة

الفصل الثلاثون

﴿ خلافة علي ﴾

فادرك محمد ما في نفس الحسن فانقذت نار الفير في صدره ولكنها غيرة لم يشبها بغض لاحترامه الحسن ووالده . على انه احب تغيير الحديث فقال « طعن مولاي ابن الحسن الآن »

قال تركته في غرفتي وقد اجتمع الامراء حوله يريدون مبايعة وهو يقول لم « لا حاجة لي في امركم فمن اختزنوني رضيت به » وهم يلحون عليه في القبول ويقولون له « لا نعلم احداً احق بملكك لا أقدم سابقة ولا اقرب قرابة من رسول الله (صلم) »^(١) فقال محمد ألم يثمل

قال كلاً وقد تركته وهو يقول لم « لا تفعلوا فاني اكون وزيراً خيراً من ان اكون اميراً » وهم يقولون « ما نحن فاعلمين حتى نبايعك » فقال محمد اني لا أعجب من رفض امراء هواولي به من سواء انما والله لا يجب ان يلها غيرة

فقال الحسن واني اكثر تخبياً منك
قال محمد وما رأيك بطليحة والزبير فاني اخطاها غير راضين به لان كلاً منها طامع بالخلافة لضمو

فتبسم الحسن وقال « لا يهلك طمعها فانها سيبايعان كارهين ان شاء الله على اني اراها يتظاهران بالقبول وسنرى ما يكون منها في القدر فقد سار اليها بعض الناس يدعونها الى المبايعة

وافترقا بعد هتبه فسار محمد الى فراشه وقد هم امر اساء اكثر مما هم امر
الخلافة لعلو ان الحسن اذا وسط والته في ترويحها به نالها لا محالة . فلم يبق لديه الا ابعادها عن ذلك المنزل وتمكينها من محبتها . وقضى ليلته يبحث في وسيلة تساعد على الخروج باساء من هناك حتى يخلو بها فيقتنها اولاً ببراءته من الظلم في مقتل

عثمان ثم يكتب كتاباً عليها قبل ان يصرح الحسن بطلبها فيكون له عذر في ذلك
اما اذا سبق الحسن الى طلبها صريحاً فلا يجزأ هو على التعرض لها
وفي الصباح التالي بكر الى غرفة الحسن فلم يجد هناك فساء الخدم عنه فقالوا
له اخرج الى غرفة امامة باكراً . فعلم انه طلق ذهنه باسماء فأسرع في ارسال من
يستقدمه فجاء الحسن وقد اشرق وجهه ودلائل المحبة ظاهرة عليه فانتبضت نفس
محمد وكادت الغيرة تظهر على وجهه ولكنه تجلج وجاء وقال كيف أصبحت فتاتنا اليوم
فقال الحسن لقد أصبحت في خير ولكنني اراها متبضضة النفس

فسر محمد لانتباضها لعلها ان ذلك يدل على عدم ارتياحها الى محبتها الجديد
فقال « اظنها متبضضة لحزنها على والدها لأنه قتل في منزل عثمان وارى ان نخرج بها
لتعز مجلس والدك وحديث القوم في أمر المباينة لعلها تستغل بما تراه هناك عن احرامها »

قال وكيف تجلس مع الرجال

قال لذهب منكثرة كما اتقنا اليوم

وكان الحسن أكثر ميلاً من محمد الى اصطحابها وهو غافل عما يجالج قلب محمد
فقال « لقد رأيت صواباً ونحوه لاستقدامها وما عثم ان عاد واسماء معه وقد تنكرت فلما
رأها محمد حيأها وهو ينظر الى وجهها نظراً لا يفتقها إلا من طاق الحب والغيرة ولبث
ينظر الى ما يبدو منها فاذا هي حائلا وقع نظرها عليه ابرقت اسرها فارتاح باله
وتظاهر بعدم الاكترت وقال لها « اظنك تودين حضور مجلس مولاي ابي الحسن »
قالت « كيف لا وانت تعلم ضميري » فادرك محمد انها تشير الى حياءها له فحقق انها
باقية على عهد فقال « فاذا فرغنا من ذلك المجلس سلمت لك جوادك واستمكت التي
تركها في منزل عثمان وقد وعدت ان احفظها فاستخرجتها من سائر المملوكات »
فأثنت عليه وأشارت بعينها اشارة خفية فهم محمد بها مرادها والحسن لم يشعر
ثم قال الحسن هلم بنا ندخل على والدي قبل مجيء الناس فدخل هو أولاً حتى
تحقق انه نهض ولبس ثيابه ثم عاد واستقدمها



الفصل الحادي والثلاثون

— * الصحابة وعلي والحلقة * —

فدخل محمد وأماء وفي في لباس الرجال ولكنها حالما دخلت حسرت اللثام وقمت بتقيل يد علي وكان علي جالساً على وسادة وعليه ازار ووطاق وجمامة خمر^(١) وهو في هيئة المعهودة وقد اربل عمامة الى الوراء حتى بانّت صلعته^(٢) لما قام في نفسه من الامر الذي دعوه اليه فجلس وهو يمشط لحمة باصابعه وعيناه الدعجوان ثلاثاً في وجهه والدكاه ينبعث منها . فلما رأى اماء مقبله اجسم لها وحياها وسألتها عن حالها

فقالت اني بفضل مولاي في خير وعافية

قال ان كلامك يا بنية لا يزال يرن في اذني منذ جئتنا قبل مثل ذلك الرجل رحمة الله وقد قلت وقولك هو الصواب « ان في مقتل الخليفة ابتغاءاً للفتنة » فلا اظنها الا استيقظت

فالت ان الفتنة تسعي من ان عم رسول الله فتعود الى الرقاد اذا قبض هو على ازمة الخلافه

فأعجبه حسن اسلوبها وحسن ذهنها وكان الحسن اكثر اعجاباً من الجميع ثم دعاها علي الى المجلس وهو يقول « اراك قد خلعت زي النساء ولبست زي الرجال يا اماء »

قالت لقد ترديت باللباس الذي يليق ان الافي بـ رجل هذه الامة فقال علي « بل هو بشر الى ما اودعه فيك الخالق من اخلاق الرجال ولكنه سبحانه وتعالى قد جمع فيك حسنات الجنسين »

ولم تكن اماء تجلس حتى جاء بعض الخدم يستأذن علياً في دخول بعض الصحابة فاذن لهم فدخل جماعة من المهاجرين والانصار وفيهم طلحة والزبير وكانت اماء تعرفها من ذي قبل . فجلسوا جميعاً حتى غصت القاعة بهم وجلس طلحة والزبير في صدر القوم

وعلى وجهها آثار الانقباض كأنها مخفیان امرأه ما فادرکت اسماء انها انما جاءا
مكرهين

فلما استوى النجوم همض واحد من اهل المدينة ومخاطب علياً قائلاً « لقد جاء
مولانا ابن ابني طالب نطلب اليه امرأه نرجوان لا يردنا عنه خائنين كما فعل بالاس
وما قبله »

فقال علي « قولوا ما تريدون »

قال « جئنا نيا بعلك بالخلافة لأننا لم نر احداً احق بها منك »

قال (وهو ينظر اليهم جملة) « قلت لكم دعوني من هذا الامر فاني اراه طريقاً وعراً
فقال قائل « من نرى اقدم منك سابقة واقرب قرابة من رسول الله (صلم)
وقد قال فيك الرسول « لا يهلك الا مؤمن ولا يفتك الا منافق »

قال « كم كلف » والذي تبايسونه اقبل به »

قالوا لا نرى غيرك احق بها وقد قال الرسول (صلم) « ان علياً مني وانا من
علي وهو ولي كل مؤمن بعدي »^(١)

قال « قلت لكم دعوني والتمسوا غيري فاننا مستقبلون امرأه له وجوه وله الولان
لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول »

فوقفوا وقد فقد صبرهم وقالوا « نشفك الله ألا ترى ما نحن فيه . ألا ترى
الاسلام . ألا ترى الفتنة . ألا تخاف الله . . . »

فلما سمع علي تأنيبهم سكت وقد ضاق ذرعاً وعظم عليه الامر فاشتغل بهم شغل
باصابعه وهو مطرق يلمل . ثم نظر اليهم فاذا هم سكوت يتظرون جوابه . فقال
لم « قد اجبتكم »

ولم يكذباني باخذ الاجابة حتى ضج الناس بالاستغمان وبهلت وجوههم فرحاً إلا
طلحة والزبير فانها ظللاً صامتين

فلما رأى علي استغسانهم وضحجهم مع ما آتته من سكوت طلحة والزبير همض فنهض
الناس وهم يظنون اليه ليرى ما يدوم ما اذا هو قد علا اضطراب كأنه نبأ من
ساعته بما يتوقعه من الامور العظام ف اشار اليهم بيده يلتمس اصفاءهم وقال « واعطي

اني اذا اجبتكم ركبت بكم ما اعلم فانما انا كاحدكم الا اني اسمعكم اطوعكم لمن وليتموه
فقالوا كلنا اطوع لك من بناتك ومن لا يطع ابن عم الرسول طاعة ووصية
ونصية وريية وحيية وخلقية والذي قال فهو (صلم) « من كنت مولاه فعلي*
مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » وقال (صلم) انك منه بمنزلة هرون
من موسى فكيف نبايع سواك
فقال اذا كنتم لا ترون بنا من المباينة فتكن في المسجد وليس في هذا المنزل
قالوا هم بنا الى المسجد

الفصل الثاني والثلاثون

* المباينة *

فنهضوا ونهض علي* ونعلاء في يد ومشي وهو يتكئاً^(١) وبه قوس يهوكاً
عليها^(٢) حتى اقبل على المسجد والناس بين يديه وكان محمد وحسن واسماء سائرين
بالقرب منه واسماء تنظر الى ما سيكون فلما دخل المسجد قرأ علي* فاتحة وصلى ثم وقف
ووقف الناس فنظرت اسماء الى الجميع وقد هاجط وما جلت فرأت طلحة تقدم نحو*
قبل الجميع ومد يده فمد علي يده فصافحة طلحة وقال « انا نبايع سيدنا ومولانا الامام
المنتزح الطاعة على جميع الانام علي ابن ابي طالب على كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد
امير المؤمنين^(٣) » وسأله النظر في امورنا وامور المسلمين لا تنازع في شيء ونطبعة
في ما يكلفنا به من الامر على المنطق والمكر^(٤) » وان لا خليفة سواه » وادركت اسماء
من هياة طلحة وغنة صوته وبجمل حاله انما بايع مكرهاً . ثم سمعت رجلاً من الوقوف
خلفها يقول لجارها هماً « انا لله وانا اليه راجعون ان اول يد بايعت يد شلاء لا يتم
هذا الامر » فالتفت اسماء الى محمد كأنها تستنهم عن مغزى ما بقوله الرجل .
فدنا منها وقال لما « ان في يد طلحة شلاً خفيفاً من نوبة احد^(٥) » والذي سمعوه

(١) تاريخ الخميس ج ٢ (٢) ابن الاثير ج ٢ (٣) السيوطي

(٤) مقدمة ابن خلدون (٥) ابن الشحنة

يحكم رجل من اهل العيافة تشام بثلث المباينة »
قالت ارجو ان لا تصدق عفاة . وبعد ان باع طلحة فقي وتقدم الزبير فباع
ثم باع غيره من الامراء افراداً واجمالاً

فاصبح علي من تلك الساعة امير المؤمنين فصعد المنبر فلما رآه الناس صاعداً
طلعوا انه يريد ان يتكلم وم طاملاً سمعوا خطبة ومحرطاً يبلاغون فانصتوا الى ما سيئولة .
وظلت اسماة في موقفها ومحمد الى جانبها وعيناها تسارقان الحسن النظر ليرى ما في
نفسه من اسماة . فرأى انه على هول الموقف ورعبة المنام لم ينشغل عنها لحظة
أما هي فظلت ثابتة ثبوت الجبال لا تلتفت لثة الألامر هام . فلما وقف
الامام علي أصغت واصغى الجميع . فمسح علي لحيته بيده واجال نظره في الناس والعمامة
الحز على رأسه وعليه الآزار وبطنة يتقدمه لانه كان ذا بطن^(١) فلبث منهية لا
يحكم حتى سكنت الجميع وتطاولوا باعنائهم لساع كلامه في ذلك الموقف وهو اول
كلام له بعد المخالفة . لمحمد الله وثاني ثم قال بصوت يسمعه من في المسجد جميعاً :

« ان الله تعالى أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر فخذوا به فنج الخير منهذوا
واصدفوا عن سبب الشر قصدوا . الفرائض الفرائض أدوها الى الله تودكم الى الجنة .
ان الله حرم حراماً غير مجهول وحل حلالاً غير مدخول وفضل حرمة المسلم على الحرم
كلها وشد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها . فالمسلم من سلم المسلمون
من لسانه ويده الآ بائع . ولا يجل أذى المسلم الا بها يجب . بادروا أمر العامة وخاصة
أحكم الموت فإن الناس امامكم وان الساعة محذوكم من خلفكم . تخففوا نطقاً فانما
يخطر بآولكم آخركم . اقبلوا الله في عبادي وبلادهم فانكم مسئولون حتى عن الباع
والبايع . واحيطوا بالله ولا تصرو . واذا رأيتم الخير فخذوا به واذا رأيتم الشر فاعرضوا عنه
واذكروا انكم قليلون مستضعفون في الارض »^(٢)

ولم يكذب كلمة حتى تصبب العرق عن جبينه وانحدر مثوراً كاللؤلؤ على
لحيته وكانت يضا طويلاً لانه قلما تعاطى الخضاب^(٣) ثم نزل وسار الى منزله فتفرق
الناس وكثر فرحون بمخالفته وخصوصاً اهل المدينة

المصل الثالث والثلاثون

- * القرار من المدينة * -

أما محمد فكان يخامر سروره فلقى لما قام في ذهنه من أمر الحسن وأسماء فلما انتهى الخطاب اغتم الفرصة بالانشغال الحسن في السير مع والده وتجمع الناس حوله لتهنئته وإشارته إلى اسماء فتبعته وقد أدركت ما يحتاج ذهنه . وكانت قد لحظت ما في نفس الحسن وقد أحيت واستلطنته ولكنها ما زالت على ولاء محمد وهو أول من طرق قلبها . فلما دعاها أن تتبعه سارت في أثر وهي تجهل مراده حتى وصلا إلى بيت العجور وكانت قد حادت إلى منزلهما بالأمس بإيعاز من محمد . فلما خلا بأسماء هناك نظر إليها نظره لم يحفّ مغزاهما عليها فأجدرته قائلة « أرى المدينة غاصة بالناس وقد شغلوا بغيرهم فلم يعد يحلو المقام فيها »

فلما سمع محمد كلامها عجب لحسن فراسها ورقة احساسها فإزداد هماً بها ولكنه خاف أن تكون مضجعه غير ما تظهر فقال لها وما الذي يفض بك الإقامة في المدينة قالت « بفضها إليّ ما حبب محمدًا إليّ »

قال وكيف تتركين علياً وأهله

قالت مالي ولاهلي

قال لا تظنين أمانة تنفدك

قالت اظنما تنفدني وقد ينفدني غيرها ولكني لا أأالي بأحد

فأدرك أنها لحظت « انتهاء » فقال لها لقد عمت المباينة لعلّي فهو اليوم أمير المؤمنين وقد استقام الأمر لا بذلك . ولكنها تنظر ما سيكون من تبدل حاله على الأصار وتدير ذلك في حيزه . أما الآن فأرى أن قيمي عند أخي عائنة أم المؤمنين

وكانت اسماء قد طلعت منه أنها سارت إلى مكة لفضاء مناسك الحج وعثان محصوراً ولم تسمع أنها عادت فقالت « هل حادت أم المؤمنين من مكة »

قال لم تعد بعد وقد قُتل عثمان وتولى علي وفي غائبة وربما نقيم هناك مدة أخرى

(قال ذلك وهو يعلم ان مجيئها قريب ولكنه خاف اذا اعترف بذلك ألا تنود
أنت حاجة الى خروج اسماء من المدينة فتضطر للاقامة في بيت علي وغيرها لا تسع
له بذلك)

فالت اسماء هل اذهب اليها

قال ارى ان تذهبي فتقبلي هناك وتشاهدي بيت الله المحرم وتفرجي بمشاهد
مكة فانما عادت اخوتي سريعاً عدت معها وانما اقامت طويلاً ذهبت انا لاستفادتك
وتكون قد عرفنا مصيرنا بعد هذه الخلافة

فالت ان في ذهابي اليها شرقاً عظيماً لا ارى مانعاً فري ولكن كيف اسير وحدي
قال ارى ان تصحبك هذه الخالة (وشار الى العجوز) فان لما معرفة ودالة
عظيمتين على اخوتي وذهابها معك يغنيني عن كتاب التوصية او نحو طرسل معك
من يوصلكما اليها . ولكنني ارجو ان يكون ذهابك بناء على الفاسك رغبة منك في
البعد عن القتل . قال ذلك ونظر اليها وهو يبتسم

فنهت اسماء مراده وادركت انه يخاف ان يعلم علي او المحسن انه هو الذي حملها
على المسير . فالت بل اما الرغبة في المسير الى هناك لاكون مجواراً للمؤمنين .
أين جوادي وامتهمي

قال هي هنا عند هذه الخالة فامكني عندها الى الغد فأتي اليك بن يسربك الى
مكة قال ذلك وهم بالخروج

فالت له اسماء ولا يبرح من ذلك اني لا ازال اتوقع ان اسمع الخبر عن مقتل
عثمان وتتصل ما تيرى نمك به

قال غدا تلاقين ام المؤمنين فاسأليها عن عثمان وهل هو ميت . فوجب القتل وفي
نجيبك بما يغنيك عن سؤالي . الا تقبلين فقولها

فالت لي

قال ايها من اول القاتلين يقتلو ومن قولها « اقتلوا عثماناً (لقب عثمان)
فقد كثر » (١)

فالت الي صاعقة على ذلك فانما كانت هي الفاتلة فقولها يكني

وتركها محمد ومضى فباتت هي هناك تلك الليلة . فجاء محمد في الصباح التالي وقد اعتد هجئاً وهودجاً . فلما رأت اسماء الجبال قالت وما تلك قال هي جمال ولا يصلح لركوب الصحراء غيرها فان بينا وبين مكة بضع مراحل والطريق وعراً لا يصلح للسفر فيه غير الجمال

قالت اعلم ذلك ولكني افضل ركوب الافراس وكذلك فعلت في قدومي من الشام وقد خوفوني ركوب الافراس في الصحراء فأبى الاله

قال لا يحسن ركوبك الفرس ورفيتك هنا لا تستطيع ركوبه فاركي العجن انما يصلح لهذا الطريق وتركبي الفرس ها لاخوف عليك . وقد طلعت ان رجلاً من احوال ام المؤمنين من بني الليث طامع عبيد بن ابي سلمة مسافر اليوم الى مكة فهدت اليه في ان تسيراً يرفقو فيوصلكما الى منزل اخي

فحبست اسماء لقولها ان الرجل من احوال اخي ولم يقل من احوال فساءلته عن ذلك . فقال ان عائشة من ام غياري التي ذكرها لك ولم تمنح لك الفرصة ان تريا امس فعسى ان تريا في فرصة اخرى

قال ذلك وامر العجوز فاخذت في اعداد ما يلزم للسفر وجعلت تجمع صرورها صرع فيها المشط وصرع فيها السواك وصرع للعال ونحو ذلك . ولم يمض ساعتان حتى عهدا كل شيء وجاء عبيد بن ابي سلمة فارصاه بالعجوز والثناء خيراً وودعها فنالت له اسماء وهي تشد منطلقها حول خصرها ونهتاً للدخول في الهودج « متى اراك »

قال ارجو ان اراك قريباً في مكة او ان ابعث اليك فتقدمي اليها متى استقام الامر وهدأت الاحوال وروسي خاطر اخي الحسن : قال ذلك هوت منفض وضحك فضحكت هي وودعته وسارت على ناقها وقد تلبست ثياب السفر



الفصل الرابع والثلاثون

— عائشة أم المؤمنين —

ولم تكد اماء تخرج من المدينة حتى اشرفت على قباء فهاجت اشجانها وتذكرت والدتها فترجلت عند المسجد فلقبها خادمة الشيخ فدعا قريبته فرجبت باسماء ومن معها . فطلبت اميائه ان تزور قبر والدتها فزارته وبكت عليه بكاء مراً حتى كاد يفسى عليها لو لم يهضها عنه الرفاق . ولما رأها ان ابى سلة في تلك الحال اسرع في الترحال فشدت الاحمال وركبت فاصدين مكة . وتأثر عييد لما رآه من حزن اماء فاحب تعزيها فلما اشرف على جبل أحد وهو على اربعة اميال من المدينة لجهة الغرب ^(١) احب ان يشفها بالمحديث فقال لما انظري الى هذا الجبل فانه جبل أحد الذي حدثت عنه الواقعة الماثلة بين المسلمين ومشرقي قریش على عهد النبي . وقصص عليها حديث تلك الغزوة وقصصا في سفرتهم هذه ثلاثة ايام فاشرفوا في ظهر اليوم الثالث على جبال مكة في قرية يقال لها سرف على ستة اميال من مكة ^(٢) فرأى ركبا قد وصل حديثا وفيه ناقة عرف عبد انها ناقة عائشة وتأكد ذلك لما رأى هودجها وعليه رداء احمر بجللة كلة . فترجل وترجلت اماء والعجوز واشتغل الصبي في تدبير النوق وعقلها اما اماء فمرتت برجوع عائشة عاجلاً لعلها ترجع معها الى المدينة فلتقي بمحمد قريباً . فقالت للعجوز وان هي ام المؤمنين يظهر انما اسرعت في الرجوع من مناسكتها . فالتفت العجوز يمنة ويسرة حتى وقف بصرها على فسطاط كبير مبطن الحرير الاحمر عند بابو دويان واقفان . فقالت هذا هو فسطاطها وقد وقف الخدم عند بابو فقالت وهل احب اليها الآن

قالت نهلي لنرى ما يكون من ابن ابى سلة ثم سارت العجوز اليه وكان مشتغلاً بعقل نائمه واصلاح حاله ونياؤه قل الدخول الى الفسطاط . فازدادت اماء حياءً من الدخول على ام المؤمنين وقالت للعجوز وهل هي تنوي الاقامة في هذا المكان قالت يظهر انها على سفر . ثم دنت من قائدها فسالته عن سفر ام المؤمنين

فقال انها شاحصة الى المدينة
فقال اسماء وما العمل الآن هل نرجع معها ام نضل في طريقنا الى مكة
فالت سري في ذلك حتى التفتينا بها وهي ترشدنا فاذا امرتنا بالرجوع معها رجعنا
او ارادت ان ندخل مكة دخلنا

قالت هل تنتظر رفيقا لدخل معك ام نسبقك اليها
قالت أرى ان ندخل قبله مخافة ان تكون هي سرقة في التهام فلا تمكن من مخاطبتها
قالت وهل تعرفها قليلاً
قالت اعرفها جيداً وقد عشت في منزل والدها رحمه الله وكثيراً ما حملتها
على عاتقي وهي طفلة فاني احب اليها حوالا
قالت فلندخل عليها

قالت هلم بنا ومشت امامها
فتبعنا اسماء حتى دنا من السطاط فاستأذنا في الدخول فأذن لها . فدخلنا
وكلاهما هاتبة الوقوف بين يدي زوج الـ

اما اسماء فكانت على شجاعتها وثبات جاشها قد شمرت عدد دخولها السطاط
بمخفان قلبها وزاد خفتها حتى احمرت وجنتاها ثم امتنع لونهاربه من لقاء ام المؤمنين
وكانت عائشة جالسة الاربعاء على وسادة من الخز في صدر الخيمة . فظرت
اسماء اليها فاذا هي رمة ممثلة الجسم عهاها نبالاً لأن صحة وذكاء فونها حاجبان
متقاربان بشيران الى ما اودعه الخالق فيها من الامة والهمة . وقد تجلبت بجلباب
من الحرير يغلي كل انطباعها فوقه غاب يكسو رأسها فيزيه جلالاً وعظمة
فاستأنت اسماء بظفرها لمشايتها محمد حتى لا يشك الناظر انها اخنة .
وكانت قد طعت قبل دخولها عليها انها في نحو الثالثة والاربعين من عمرها فلما رأتها
خجل لها انها في ما دون الثلاثين لما في وجهها من نور الصحة والجمال

فلما دخلنا الخيمة جثتاها وقمت العجوز تتبيل يدها فمعتنا عائشة وقالت اهلاً
بك يا خالة اهلاً لك . وامرتها بالجلوس فجلست وقدمت اسماء بوقار وحشية وقالت
يدها ووقفت متأدبة حتى اذنت لها بالجلوس فجلست مطرقة لا تتكلم وقد ذهبت عنها
جسارتها لمول ذلك اللقاء

فتظرت عائشة الى العجوز واعتست اجساماً يكاد يكون انحصاراً كأن في نفسها
امراً مخوفاً او كأنها مشتتة الخاطر بامر هام . ثم قالت « مرحباً بك يا خاله ما الذي
جاء بك الى هذا المكان كيف فارقت محمداً »

قالت فارقت في غور وفاقية وقد بعثني اليك بك الغداة لقيم عندك وديعة له
وبها يأتي . قالت ذلك وتبست

فتظرت عائشة الى اماء فاجبتها ما فيها من الجمل والمهية وادركت ما تلا وجها
من اطلال الحياء عند ذكر محمد انها لحبة فتبست وظفرت الى العجوز فاشارت
العجوز بعينها اشارة أكدت ظنهما

فقال لاسماء اهلاً بالضيعة المزيرة وديعة اخي فانت اذا اخي
فوالفت اسماء بالاطراق خجلاً ونور كنت وجتها ولم تحب
فقال عائشة اظنكما جئتما لتقيا عندي في مكة

قالت العجوز نعم يا مولائي

قالت ولكنني شاحصة الآن الى المدينة على ان ذلك لا يمنع مروركما الى منزلي
بمكة ربما اعود او اذا شئتما مرغما معي الى المدينة . ثم التفت الى اماء وقالت ما بالك
لا تشكلين يا اسماء

فرفعت اسماء راسها وقالت « لي ظن بتلعم لساني للقول بين يدي ام المؤمنين
زوج الرسول (سلم) »

فاجدتها عائشة قائلة ولكنك ستكونين من ذوي قرمانا ماذن الله فلا يجب ان
نهبى . اهلاً بك ومرحباً

فقال العجوز وهي تريد ان تعص باسماء « واخر مولائي ان اسماء بنت يزيد
الاموي من بني امية لم تأت المدينة الا منذ بضعة اشهر وكات مقبة في الشام فهي لا
تعرف عادة اهل الحجاز »

فقال عائشة مها يكن من اصلها فهي لا تلبث ان تصير حجازية



الفصل الخامس والثلاثون

— * انقلاب سريع * —

وسكنت عائشة هنية وهي منقطعة الوجه ثم استأنفت الحديث قائلة وهل جئنا
في رفاق أم مع قافلة

قالت إنما جئنا مع عيد بن أبي سلمة أحد اخوالك

فلما سمعت عائشة اسمہ اجعلت بغضة وقالت وابن من

قالت هو آت قريباً

فلم تصبر عائشة على انتظاره فنادت بعض الذين في بابها وامرته ان يأتيه وأرخت
النقاب ولبت صامئة وها صامتان هائمتان حتى دخل عيد . فلما دخل ثم بتغيب
بد عائشة فتمتته وقالت اهلاً بالحال قل ما وراءك كيف فارقت المدينة

قال فارقتها وقد قُتل عثمان وبطل ثمانياً

فلما سمعت ذلك انقضت حاجبها وظهر الغضب على وجهها فتمرست في عيد
والشرر يكاد يتظاهر من حديقها وساء تراقب ذلك فيها من خلال النقاب وقد
ذهلت لما بدا منها

اما عائشة فلم تصبر على اتمام حديثه . فقالت وهي كأنها تفنن للنهوض
« ثم صعلو ما ذا »

فلم يستغرب عيد ما بدا منها ولعله كان يتوقعه فقال « اجتمعوا على بيعة علي »
فهبَّت عائشة من مجلسها ثم وقفت برهة واطرقت وقد اسكت طرف ثيابها
وشدته كأنها تصلح ثم رفعت رأسها بغضة وإشارت يدها الى السماء ثم الى الارض
وقالت « ليت هذه انقضت على هذه ان ثم الامر لصاحبك » قالت ذلك وخرجت
مسرعة وهي تقول « ردوني ردوني الى مكة . قُتل والله عثمان مظلوماً والله لا طلب
بدو » فبغضت اسماها لما رأت من اهتمام عائشة في الامر الى هذا الحد وساءها ما سمعته
من التعريض بعلي ولكن التهب معها عن الكلام

اما عيد فما زال ثابت الجاش والظاهرائه كان على بينة ما سيبدو من ام المؤمنين
فاعذ لكل خطاب جواباً فاستوقفتها وقال لها « ولم والله ان اول من امال

حرفة لاني^(١) ولقد كنت ثلولين اقليل نعلًا فقد كفر^(٢) « ألم تخرجني قبض رسول الله (صلم) وشعره لما طلت باعمال عثمان وتقول « هذا قبضة وشعر لم يبل وقد يلي دينه »^(٣)

فلما سمعت عائشة ذلك حولت وجهها نحوه وقالت « انهم استناموا ثم قتلوا وقد قلت وقالوا وتقولوا الاخير خور من قولي الاول » قالت ذلك وامرت رجالها ان يمشوا الاحمال للرجوع الى مكة . فظروا اليها عبد وهي خارجة وانشد

فمك البداء ومنك الضير * ومنك الرياح ومنك المطر
وانت امرت بمنزل الامام * وقلت لسا انه قد كفر
فبينا اطعنك في قتلو * وقائلة عندنا من امر
ولم يسقط السقف من فوقنا * ولم ينكسف شمسنا والفر
وقد بايع الناس ذا تدرا * يزيل الدنيا ويقيم الصفر
ويلبس للحرب انيابها * وما من وفي مثل من قد غدر

فلم تعباً عائشة فلولو فتركها واصرفت

اما اسماء فلبت في العجوز وكان على رأسها الطير لا تدبان خطايا . وكانت اسماء قد قيمت بجواب عائشة ولكنها خافت غضبها فرأت من الحكمة والتعقل ان توجل ذلك الى فرصة اخرى

فلما عيأت الاحمال بعثت عائشة الى العجوز واسماء فركبتا معها واسارا الجميع قاصدين اليهت المحرام واسماء صامتة وقد ادعشها ما رأت من تغير عائشة بغتة لامر لم تكن تتوقعه . على انها مالت كل الميل لسامع الادلة على صحة قولها في مقتل عثمان وهو الامر الذي ما زال يشغل بالها ولكنها كانت من الجهة انما هي تخاف ان يثبت قتلة ظلماً فيحدث ما يدعوا الى التباعد عن محمد وقلها لا يطارعها على ذلك . فنقضت مسافة الطريق غارقة في هذه المواجس ولم تنبه الا وقد اطلت على مكة فاسترفت على الكعبة وهي في وسطها كأنها ملك وسائر الابنية حولها اجاد . ولم يبق قليل حتى وصل ركهم الى معبد الكعبة فترجعت عائشة من هودجها وترجل الجميع وسارت في نوا الى الحجر^(٤) فاستقرت فيه . وهو مصطبة محوطة بجائط الى دون الصدر مة

ما تركت قریش من الكعبة وانصرفت في بيان الكعبة عنه ^(١) ويقال ان فيو قبر سارة . فلما رأها اماء دخلت الحجر دخلت هي في اثرها والعجوز معها ولكنها لم تكلمها لعظم ما حالها من غضبها

الفصل السادس والثلاثون

﴿ الطلب بدم عثمان ﴾

وما كادت عائشة تدخل الحجر حتى اجتمع الناس حولها وفي مقدمتهم عبدالله ابن عامر الحضرمي عامل عثمان على مكة . وشاهدت اماء بينهم جماعة من بني امية من غادر المدينة بعد مقتل عثمان لكن مروان لم يكن معهم . أما عائشة فلم تصبر على ما مضى من التهمة والاحلال فوقفت فيهم وقالت وم سكوت يصفون لمقالها وكانت جهورية الصوت ^(٢) « ايها الناس ان القوضاء من اهل الامصار واهل المياه وعبد اهل المدينة . اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً وقبوا عليه باستعمال من حدثت به وقد استعمل امثالهم من كان قلة وموضع من الحمى حماها لم فتابعهم ونزع لم عنها فلما لم يجد حجة ولا عذراً بادرت بالعدوان فسكط الدم المحرام واستطاع البلد المحرام والفهر المحرام واخذوا المال المحرام . والله لاصع عثمان خير من طباخ الارض امثالهم ولوان الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبث او الثوب من درنو » ^(٣)

فما تمت كلامها حتى هاج الناس وما جمل ثم تصدى عبدالله من عامر الحضرمي وقال والناس يسمعون « ها اما اول طالب » وكان هو اول من اجاب الدعوة الى الطلب بدم عثمان

وكانت اماء لا ترداد من ذلك الا نجيماً ولم تنفع لهذا الامر سباً معقولا فالتفت الى العجوز يجانها فرأها صائمة مطرقة وقد امتنع لونها وارتجفت شفتاها فلما رأت اماء نظرت اليها غضت على شفتها تلمس سكوتها فادركت اماء ان في الامر سرّاً لا نستطيع ان نوح به

وكانت الشمس قد مالت الى المغرب فاشارت عائشة الى الناس ان ينصرفوا
فتفرقوا وخرجت هي تلمس منزلاً وسارت اساء في أثرها وقد تغد صبرها لاندعاشها
ما رأت في ذلك اليوم من الفرائب وقد عولت ان تقضم اول فرصة للاستنهام عن
سبب ذلك

فوصل الجميع الى منزل عائشة في العشاء فمدت لم الاطعمة فتناولوا العشاء ولم
تجراً العجوز ولا اساء على مجالسها في تلك الليلة فباتا في بعض حجر المنزل واساء
تتظر الغد لتقابل عائشة وتستطلعها الحقيقة

فلما اصبح الصباح نهضت اساء والعجوز . فلما جلسا قالت اساء لقد ادهشني امر
لم يبق لي صبر على السكوت عنه وليس لي من يفرج كربتي سواك
قالت قولي ما تريد

قالت لقد سمعت من ام المؤمنين كلاماً يوحدني الجاهرة بعارة امير المؤمنين
علي بن ابي طالب والذي اعطى ان علياً ان عم الرسول (صلم) وعائشة زوجة
الرسول وقد كنت اتوقع وفافاً بينهما على صلاح الامة فرأيت بالعكس ولم افهم السبب
فتفحصت العجوز واجالت سميتها ولمهضت كتبها كأنها تقول « لا يعني » ان
« لا يعني البحث في ذلك » . اما ملاح وجها فكانت تدل على انها تعرف سبباً تحاول
كتماناً فتوسلت اليها اساء ان تصح لها

فلما التمت عليها قالت ان في الامر سرّاً قل من يعرفه سواي ولكنني اخاف ان
ابوح به

فاشتاقت اساء لسامع السبب وجرت فمها على البساط حتى التصفت بها وقالت
بالله ألا فرجت كربتي بكلمة واني اعدك بالكتمان

فالتفت العجوز بمة ويسر وهي تحاذر ان يسمعا احدٌ وادت شفها من اذن
اساء وهمت بالكلام ثم اجلست بفتة ورجعت عنها واصغت فاذا هي تسمع صوتاً خارج
الغرفة فاصغتا فسمعا وقع اقدام خفيفة فابتعدت العجوز اخفاء لما كانت تهم به ثم
سمعت قارصاً يفرح الباب وجارية ناديا فنهضت وفتحت الباب فدخلت الجارية
واذا هي حبشية ففتحها ثم قالت ان مولاتي ام المؤمنين تدعوك الى غرفتها



الفصل السابع والثلاثون

﴿ الامام علي ومقتل عثمان ﴾

فمرت اماء هذه الدعوة على امل ان تمكن من استطلاع شيء فنهضنا ودخلنا عليها فاننا هي جالسة على طنسة من السجاد الثمين وقد خلعت الجلباب فبات انوارها الزاهية فرادها روثاً وبهاء وبان مصفاها وعشفا وعليها السامح والاساور والمعنود ما يذلل البصير ويهديها جمالاً . على انها كانت لا تزال مقطبة الوجه وقد طنها الهيبة فلما دخلنا قلنا يديها وجلستا على وسائد من الدمقس الملوّن بالقرب منها . فليئت برهة لا نتكلم ثم قالت وهي توجه خطابها الى العجوز « كيف قتل عثمان يا خالة » قالت قتلوه في داره بعد ان احرقوا الباب والسقفة ودخلوا عليه عنوة قالت ومن قتله وكيف

فسكنت العجوز ربه ثم قالت لا اظني قادمة على وصف ذلك الواقعة كما تصنها اماء وقد شهدت القتل سنسها لانها كانت في داره ساعة مقلو فحولت عائشة نظرها الى اماء باهتاهم وقالت « هل كنت في الدار ساعة القتل » قالت نعم بامولاتي قالت وكيف كان ذلك

فشق على اماء ان تقص الواقعة كما جرت لانها تمس بحبها ولكنها لم تر بدا من الجواب فقالت ان الحديث لو اردت بسطة لطال بها المقام ولكني اقول بالاختصار انهم استأجروا كما قلت فتاب ثم رجع ولقد نصح له علي ان يسم اذنوعن معاصم مشورات كانوا وان عومروان فلم يصغ فعاد الى ما كان عليه وعلم الثائرون ذلك فطلبوا اليه ان يسلم مروان ويهدوا قايي فهدوا بمنزله ودخلوه عنوة وقتلوه قالت ومن قتله

قالت اثنان لا اعرفهما ولكنها من صعاليك العرب ليس احد منها من الصحابة او اولادهم

فأوهت عائشة وحرقت اسماها وقالت وكيف يقوى الصعاليك على قتل الحليفة

وكبار الصحابة ينظرون ولا يهركون ساكناً ولا يدافعون عنه بسيف أو لسان فلم تر أساءة بدءاً من الدفاع فقالت انهم يا مولائي قد دافعوا عنه جهدهم وإعلم ان علياً أرسل ابنه الحسن والحسين إلى دار الخليفة وكذلك فعل سائر الصحابة ولقد رأيتهم هناك يدفعون الناس عن بابو حتى تطلع وجه الحسن بالدم . ولكن الخليفة رحمة الله منهم عن الدفاع واستغفروهم ان لا يفعلوا

فسمعت عائشة ابنتاً يثبث عن استئناف بحديث أساءة وقد استغفرت اعتقادها دفاع الصحابة عن عثمان وقالت أتصدقين ان علياً لو اراد ان يدفع الناس عن عثمان لم يستطع دفعهم . ولكنه فعل ما فعله وسكنت كما تبها ضاقت ذرعاً عن الخوض في تفاصيل الموضوع ولم تكذبهم بانتماء الحديث حتى ابتدئنا أساءة عائشة اسمي لي يا مولائي ان أوّدي شهادة لا استحيي ان اصرح بها امام الديان العظيم . ان علياً بريء من دم عثمان بل هو اول نائم على هذه القنينة لاعتقاده انها ستكون سبباً في نشأة نمل الاسلام ويظهر ان اعتقاده كاد يتحقق لا سمح الله قالت اراك يا بنتي نظرين الى ظواهر الامور دون مواطنها أيعقل ان علياً بما له من النبوة في اهل المدينة اذا اراد الدفاع عن عثمان لا يستطيعه

قالت عرفت بيقيناً انه اول غاضب على القاتلين بهذه الثورة ولقد سمعته ذات ليلة يناجي رسول الله (صلى) على قبره يشكو اليه ما اصاب امته من الفتن بعد وكان وجودي هناك صدفة سمعت كلاماً يفتت له الصخر بخلة شهيق البكاء اسفاً على حال الاسلام . ان علياً يا مولائي مخلص في قوله وفعله ولا لوم عليه ولعلك اذا وجهت اللوم على القاتلين او المحرضين على القتل ان تجدي وجهك للوم . قالت ذلك وهي لا تزال هائبة موقفاً بين يدي ام المؤمنين فاثمت كلامها حتى تعيب العرق من جبينها فهبت عائشة من مجلسها وقالت وقد اخذ منها الغضب مأخذاً عظيماً . ان اولئك القنينة قد ارتكبت اثمًا عظيماً لا مشاحة فيه ولكن معطيهم لا يدركون عاقبة ما يعملون وانما حرصهم على هذا المنكر شيوعهم ورواؤهم فالك فنجلون اموراً اعطيا ولا اجعل شيئاً تطميناً وسكنت رمة وأساءة مطرقة وقد حارت في الجواب . فاستأنفت عائشة الحديث فقالت « ولقد بلغني ان اخي محمداً كان في جملة المفرورين » ثم خفضت صوتها وقالت وهي تلمي بدها على الوسادة لشكي عليها « ولكنه لا يلام لانه ربيب علي »

فلما سمعت أسماء ذلك ثارت في قلبها نار الغيرة وأرادت الدفاع عن محمد فحلفت
ان ترتكب الكذب فلبثت صامئة ونظرت الى العجوز فرأى أنها قد تغيرت صحتها خوفاً
ورعباً وظل الجميع سكوتاً برهة لا تنوّه احداً من بكلة حتى عادت عائشة الى الكلام
فنظرت الى أسماء وقالت وهي تحاول اخفاء غضبها وتمكين عواطفها « لا أكره ان
عنهان اخطأ في بعض احوال تصرفوه في خلافته وآكفة خطأ لا يستوجب عليه غير اللوم
والنصيحة لا القتل »

فأحسّت أسماء ان تسمع رأي عائشة في ما ارتكبه عهنا من الخطأ فقالت « وهذا
ما سمعته من اخيك محمد ولكنه يستند ان خطأه اعظم من ذلك كثيراً »
قالت وقد عادت الى الغضب ان محمداً لا يعرف ما اعرفه ولو حضر الآن لجادلته
في الامر ومنيت له خطأً بالبرهان » . ولم تكذب ثم كلالها حتى دخلت بعض الجوارى
وهي تقول ان بعض الامراء في الباب . فلما سمعت أسماء ذلك نظرت الى عائشة فرأى أنها
توقفت عن رد الجارية فادركت انها راغبة في مقابلة القاصدين فهضت وإسناً ذنت في
الانصراف الى حجرها فأذنت لها وخرجت العجوز في اثرها وكلاهما صامتان تنكران
فيما سمعاه

الفصل الثامن والثلاثون

— ﴿ البرداء ﴾ —

وأحسّت أسماء حال خروجها بقشعريرة شديدة ولم تكذب نصل حجرها حتى اصابها
البرداء فالتفت الفراش والبرداء تتزايد في اعضائها فغطتها العجوز واجلسها في
الفراش وجلست هي الى جانبها وجست يدها فاذا هي باردة كالثلج فغطتها بالاحرمة
والاحلقة وهي لا ترداد الا اغراضاً فاشغل بال العجوز وسألها عما تشعر به فقالت انها
تحسّ مارتحاً في اعضائها وارتعاش في كل جوارحها قالت ذلك وإسناً تصادم لشفة
الارتعاش . فارادت العجوز ان تخفف عنها فقالت لما لا بأس عليك يا بنية اظلك
اصبت بذلك على اثر الحب الذي قاسيناه في اثناء الطريق

فلم تجبها اسماء وغلب عليها المكوث فلبثت صامتة والعجوز الى جانبها تتكبر في حيلة تخفف بها عنها ولم يمض قليل حتى خفت عنها الرداء واحتر وجهها احمراراً شديداً . فجمستها العجوز فاذا هي شديدة الحرارة فخفضت الاغطية عنها وخرجت تستدير اهل الدار في علاج تصفة لها . فاشارت عليها بمض النساء بسمل نثره مزوجاً بالماء فجاءها بقدر من مزيه فلم ترس ان تتناول منه شيئاً . فتقدمت اليها وقبّلها في جبينها وتوسلت اليها ان تقرب ذلك العسل فلم تجبها ثم ما لبثت ان رأت الدموع تنائر من عينيها وهي تحاول امساكها . فقابلت العجوز ولحمت عليها ان تقرب فلم تردد اسماء الأبكاء ولم تعد تنالك عن الذهبى وقد احمرت عيناها وذبلت اجفانها واشتدت عليها الحمى اشتداداً عظيماً

فحارت العجوز في امرها وودت ان تغير ام المؤمنين بذلك ولكنها تذكرت انفساها من قدم عليها من الامراء فلبثت بجانب الفراش تنظر الى اسماء وبكائها ولا تفكلم

ثم سكنت اسماء واغضت جنبها كأن العباس قد غلب عليها ففرحت العجوز بماها فتركها وخرجت لعلها تلقى من تستشيره في معالجتها ولم تكن تخرج حتى سمعت اسماء تكلم فظننها تدعوها فأسرعت اليها فاذا هي عهدي وقد كثنت الفطاء عنها وانصردر عنها وقبصها عن صدرها وتكشفت اكمامها ليرط ثقلها وهي غارقة في النوم فارادت العجوز ان تعطينها وتصلح اثارها فخافت ان تستيقظ ولكنها دنت من الفراش لترفع الفطاء الى صدرها فرأت الحجاب في عشا ورسم الصليب على معصها . فبغنت وتاملت وجهها فاستبغت الى شيء فهو غير ملائم العرب الحضة واعادت النظر الى الرسم على معصها فاذا هو رسم الصليب وتحققت ان الحجاب من الحجة النصارى فاستغربت الأمر ثم تذكرت ان اسماء قلما كانت تبالي بالتحجب في مخاطبتها محمداً ان غيرة فقالت في نفسها هل هي نصرانية ام ربيت بين النصارى في الشام

وكانت اسماء في اثناء ذلك ساكنة مستفرقة في النوم وقد اطلق جنبها وتوردت وجهها واسرع تنفسها من شدة الحمى حتى كانت تتنفس لها وفيها متروح فازاحت الفطاء الى صدرها خوفاً عليها من البرد فسمعها عهدي فاصقت لمدانها لعلها تستطلع شيئاً من سرها فاذا هي تقول « أماء يا أماء يا مريم ... آه يا حلي يا ابا

الحسن كيف ضاع ذلك السر تعال يا حيي يا محمد لا لا اذا كنت
قتلت عثمان فانت بهيمة عني لا لابل تعال يا منبهي ورجائي ان اسلك آخر
لفظ خرج من بين شفتي امي قبل وفاتها آه يا اماء من هو الي اخبريني . قولي
لي هل هو حي بعد ام سيفك الى العالم الآخر « ثم خفضت صوعها وتلجج لسانها فلم
تعد تهم العجوز شيئاً من كلامها واخيراً سكنت سكوتاً تاماً وامتنعت في النوم . فجلست
العجوز بالقرب من الفراش وهي تودّ ان تبصرها لتتحقق حال الحمى ولكنها خافت ان
ترعبها فلبثت صامتة تفكر بما سمعت منها وتعجب لجلها والدما

الفصل التاسع والثلاثون

﴿ أم الفضل ﴾

وفيا هي في ذلك اذ جاءت بعض المجاري مسرعة وهي تقول « ان ام الفضل
قادمة لترك »

فلما سمعت اسم ام الفضل تحزنت للافاقها وقد سرّت بقدمها . وبعد هنيهة اقبلت
ام الفضل تمشي الموباة لا تسمع لمشيها صوت . وكانت في نحو السنين من عمرها فجمت
العجوز وجنتها وقبلتها ودخلت بها الى الغرفة ودعها للجلوس على البساط
فقالت ام الفضل وهي لم تنظر الى فراش اساء بعد « اني اسم في هذه الحجرة راحة
الحمى والتفتت الى الفراش وقالت من هو المريض هناك »

قالت لقد جئتني في ساعة ضيق فعساك ان ترجي عني
قالت انما جئت لا سألك عن مقتل الخليفة رحمة الله وما آكل اليه الامر بعد
فقد هني امرٌ كثيراً وسمعت بقدمك فاسرعت اليك . فاخبريني اولاً من هو
المريض معك

قالت هي فتاة جئت بها من المدينة بايعاز من ابن اخنك محمد بن ابي بكر لتقيم
بضعة ايام عند اخن ام المؤمنين ريفاً نرى ما يكون
قالت وما علاقة ابن اخي بها

فالتفت العجوز الى فراش اماء وهي تخاف ان تستيقظ فتسمع كلامها ودنت من ام الفضل وهمت في ادنها انه ينوي ان يكتب كتابه عليها وارادت ام الفضل ان تستنهم العجوز عن تحصيل مقتل عثمان فاذا باسماء تناوهم ثم ادارت رأسها نحوها وفتحت عينها - فهضت العجوز اليها وجست يدها فاذا هي مبللة بالعرق وقد خفت الحمى قليلا فقالت لها كيف ترين نفسك يا بنية فاشارت برأسها وعينها انها في راحة ثم رأت ام الفضل فاسخمت منها وارادت الجلوس فهضت ام الفضل اليها وهي تقول لا ترجعي نفسك يا ابنتي . قالت ذلك ودنت منها

فتوسطت العجوز بينها وقالت اظنك تستأمنين بكتا . ام الفضل وهي لبابة خالة محمد بن ابي بكر اخت امو ولزبدك تعريفا بانها اول من اسلم بهد خديجة وهي ايضا زوج العباس عم النبي واخت ميمونة زوج النبي (صلم) ومن اولادها عبد الله ابن عباس من خاصة امير المؤمنين علي بن ابي طالب بل هو ابن عمو وابن عم الرسول (صلم) واظنك شاهدتو غير مرة في مجلس علي او لملك رأيته في دار عثمان فقد تردد اليه وهو محصور حتى اتدبه ان يبعج بالناس ^(١)

فلما سمعت اماء انها خالة محمد استأمنت بها ولما علمت انها زوج عم النبي ولم عبد الله ابن عباس زاد احترامها لها لمجلمت وهي تسمح العرق عن جبينها ورجبت بها فاسرعت ام الفضل وقبلتها وقالت اهلا بك كيف فارقت محمدا فهبت اماء لسماها عن محمد وهي تحسبها لا تعرف طلاقها به . فلما رأت العجوز استغرابها ضحكت وقالت لا تستغري يا اماء ما نسألك عنه لانها خالة بكل شيء وهل يخفى القمر

فاطرقت اماء خجلا ولم تجب

فجلست ام الفضل الى جانب العجوز على البساط بالقرب من الفراش وقالت لها بصوت منخفض كأنها تحاذر ان يسمعا احد « هل قابلت ام المؤمنين وكيف لقيتها » قالت لقيتها نائمة على قنطرة عثمان ولا ادري ما تنوي

قالت طعت انها في يوم وصولها مكة دعت الناس للطلب بدم عثمان وكان اول

من اجابها منهم عامل هذه المدينة
قالت نعم انما فعلت ذلك وقد شهدت كلامها وكلامه وصي اسماء ولكنني لا
اعلم تنوي اخراج ذلك من القبة الى النفل
فاجبت ام الفضل اجاباً بما رجه استفراب وقالت « وما الذي حملك على هذا
الظن » والفتحت الى اسماء فرأتهما مقتفلة بالانحناف وقد أحست بقصر مرق على اثر بهوضها
وجسمها مبلل بالمرق . فادنت ام الفضل فها من اذن العجوز وخضعت صومعها وقالت
« أهلك تجهلين ما في نفسها على امير المؤمنين »

فعضت العجوز على شفتها وأشارت بعينها انما لا تريد الخوض في هذا الشأن امام
اسماء مع انما ارادت ان تطلعها عليه مرة ولكنها تدست وبذلت الموضوع وقالت
« اذن تظنين انما تنوي اخراج ذلك الى حيز النفل »

فقطاولت ام الفضل بعثتها نحو الباب حتى أطلت على الدار مخافة ان يكون احد
قريباً فيسمع كلامها وقالت « لا بد لها من ذلك فان اهل مكة يد واحدة في هذا الامر
وفهم بنو امية الذين هربوا من المدينة وطلعت ان الزبير وطلحة قادمان الى هنا وكل
منهم طامع في الخلافة لنفسه وقد سار قوم لاستخفاف اهل البصرة وآخرون للكوفة
وغيرهم تحريض اهل اليمن وآخرون الى الشام »

فاقترعها العجوز قائلة اما اهل الشام فلا يجناجون الى تحريض وفهم معاوية
ابن عم عثمان رحمه الله وقد حملوا اليه قميص عثمان الملطخ بالدم واصابع نائلة يهيمط
اهل الشام على القاتلين

فتهدت ام الفضل وتأوهت وقد عظم عليها ما تخوفه من عظم الفتنة حتى تناثر
الدمع من عينيها وظللت صامتة

الفصل الاربعون

﴿ دعوى الناس على عثمان ﴾

واما اسماء فكانت في اثناء ذلك مضطربة المحاسن تسمع الحديث ولا تقوى على
جواب فلما رأت ام الفضل تبكي تذكرت بكاء علي عند قبر النبي في تلك الليلة التي رأت

فيها محمداً الاول مرة . فاعتزل ذهناً الى محمد وما يعترض آمالاً فيه من امر التبري من مقتل عثمان . وكانت لما سمعت كلام عائشة قد اعتقلت على محمد وكادت تحقق ما سمعت ، لو لم يتم في قلبها ما يبرئه وهو المحب على انها ما رالت تودع سماع دفاعه او دفاع من يقول بقوله ويرى مقتل عثمان . فلما رأت سعة علم ام الفضل في تاريخ الاسلام وقد رافقت كل حوادثه وتبعت اسبابها وتناجها كلتها بصوت حنن من تأثير الضعف والحنن فاعبته ام الفضل واصفت لمقالها . فقالت اياه ان في نفسي شيئاً لا صبر لي عليه

قالت وما هو

قالت لقد شهدت مقتل الخليفة عثمان رحمة الله وسمعت دعوى الناس عليه ولكني تحققت من حوادث كثيرة ائتم ظلموا وان الذنب ليس له ولنا هو لمرطون ابن عوف قد كان كاتبه يتصرف في شؤونه كيف شاء . ولكن ابن اخك (تريد محمداً ولم تذكر اسماء جاء) يزعم انه يستوجب القتل ولقد جادلته في الامر فوجدني بتأيد رأيه في فرصة اخرى

فلما سمعت ام الفضل كلامها نهدت ثم قالت لقد وقعت على خير فاني اعرف عثمان قبل اسلامه واعرف ترجمه حاله ما استرتمها وما ظهر وهي لا تخطوما بهج الاحزاب عليه وينشئ الضغائن واطفه لومني بوزير او مشور عاقل او كاتب غير مرطون لما بلغ الامر الى ما بلغ اليه . واليك ما ارتكبه عثمان ما حاج غضب الصحابة عليه

(١) ان الصحابة كما نعلم من الذين قاموا بصنع الاسلام وتأيد دعوى منه اول ظهوره فهم اول من ساء بولاية الامصار وتولي الاعمال وكانوا كذلك على عهد صهري رحمة الله وعهد الامام عمر رضي الله عنه فلما تولى عثمان عزل اولئك الصحابة وولى آخرين من ذوي قرابته كما فعل بصبر بن العاص في ولاية مصر ومن الذي فقمها وغرس الاسلام فيها فعزله وولى مكانه اياه عبد الله بن ابي سرح (اخا عثمان من الرضاة) وعبد الله هذا كان في جملة الذين ارتدوا بعد اسلامهم وحنى بالمشركون فاهدر اليه دمه وعثمان اخذه الامان بعد فتح مكة

(٢) ان عثمان اسرف اسرافاً شديداً في بيت المال وكان يعطي منة اناساً من

قرايتو طردم النبي (صلم) ولا يفرنك ما يقال عن تشنؤ وزنه في طعامو
 (٣) انه اساء جماعة من اعلام الصحابة وذوي المقامات السامية في الاسلام
 منهم عبدالله بن مسعود وابو ذر الغفاري وتقام عن اوطانهم طائفتك حرمة كعب بن
 عتبة الهمزي وحرمة الاشتر النخعي في امور يطول شرحها
 (٤) انه زاد كثيراً من الضرائب على الاسواق وحسب سوق المدينة في بعض ما
 يباع ويشترى فقال لا يشتري منه احد النوى حتى يشتري وكيلة ويفرغ من شراء ما
 يحتاج اليه عثمان . وحسب الجبر من ان يجري فيه سنة الآ في تجارتو
 (٥) انه اقطع اصحابه اقطاعات كثيرة من بلاد الاسلام ما لم يكن له فعله (١)
 وهناك امور اخرى نسبوها اليه كخالفه الجماعة في اتمام الصلاة بين طفراده
 باغتيال شاذة ونحو ذلك
 ولكن لاصحابو حجباً يدافعون بها عنه وهي طويلة لو اردت ذكرها لطال
 بنا الكلام (٢)

وكانت ام الفضل تتكلم بصوت منخفض واسماء تتناول غموها وكلها آذان لسماع
 حديثها فاطمان بالها لانهما رأت لحمد عذراً في عملو وهي مبالغة من بادى ما لآي لتبرئو
 فأحست عند سماع كلام ام الفضل كأنها التت عن ظهرها حملاً ثيلاً . ولكنها تعبت
 من الاصغاء واحسبت بدوار وغشيان فاستلقت على ظهرها وقدامتفع لونها ولم تنه بكلمة
 فلما رأت العجوز اصفرارها علمت انها أصيبت بدوار من شدة الجوع لانها لم تذق طعاماً
 في ذلك اليوم . فنادتها فأجابت ولم تنتع عينيها لشفة الدوار . فقالت لها العجوز ألا
 نشرين قليلاً من الصل فانه دواء شاف لك
 فأشارت اسماء مجابها ان « لا » ولم تتكلم فحارت العجوز في امرها واستشارت
 ام الفضل في ماذا تفعل
 فقالت دعها تنام الآن

فصبرت حتى تحققت انها نامت فتركها في الغرفة وخرجت ولم الفضل معها ولم
 يبق لها صبر على تقصيل حادثة عثمان . فترلتا من الدار وعائشة لا تزال في غرفتها وعندها

(١) تاريخ الحبيب ج ٢ (٢) في تاريخ الحبيب بد ذكر مقتل عثمان كلام طويل
 في ما ادعوه طيو والدفاع عنه فقرا جميع هناك

الامراء فقولنا الى بستان فيه غلات متقاربة تحبها ظلٌ كثيف فشاهدنا هناك خيولاً
وجمالاً ومعها الخدم وقد شدوها الى جذوع النخل فقولنا الى غلات منفردة في طرف
البستان جلسنا اليها واخذت العجوز تقص ما تفرقة عن مقتل عثمان وكلامها تحاذران
ان تعلم ام المؤمنين بما يدور بينها

فلما فرغت العجوز من حديثها قالت ام الفضل رحم الله عثمان وليد طيباً فاني لا
ارى خيراً منه لولاية امر المسلمين لقراجه وعلوه وفضله وشجاعته وسبقه الى الاسلام
ولكن ابني عبد الله (عبد الله بن عباس) يعتقد انه ضعيف الرأي^(١) ولكنه مع ذلك
ينفضله على كل من يلها سواء وقد خاطبته في ذلك قبل هودته الى المدينة امس فرأيتها
فرحاً بخلافه الامام علي

قالت وهل كان لا يزال هنا منذ جاء للحج
قالت نعم ان عثمان وهو محصور امره ان يحج بالناس كما تعلمين^(٢) فجاهاً وقُتل
عثمان وهو غائب ولما بلغه قتل ولاية علي مع ما يتوقعه من الخلاف بسبب ذلك
اسرع ليكون بين يديه لعله ينفعه في شيء

وتذكرت العجوز حال اسماء فقالت وماذا تريد ان افعل باسماء ومرضها
قالت اظنها تشفى غذاً ولا يد من شربها العسل
فقالت سأحمل ام المؤمنين علي ان تعقبها اياه

الفصل الحادي والاربعون

﴿ شرب العسل ﴾

وفيها ما في الحديث رأنا الغلمان في حركة وهم يمرجون الخيول والجمال
يهشوناً للركوب فقلنا ان الامراء اوشكوا الخروج من عند ام المؤمنين فنهضت
ام الفضل وودعت العجوز وانصرفت على بقله كان خادمها يحضرها بها بالقرب
من البستان

أما العجوز فظاهرت أنها إنما تزلت إلى البستان لتستقي من البئر . وفيما هي بالقرب من باب الدار سمعت جلبة ثم رأت جمهوراً خارجين من الدار معظمهم من بني أمية وعلى وجوههم سمات الظفر ولم تجد بينهم أحداً تعرفه فتفتحت ويثاً خرجوا وانصرفوا ودخلت تطلب حجرة أسماء وهي في قلق لئلا تكون قد أفاقت في أثناء غيابها فوجدت الحجرة مفتوحة وعند بابها خفٌ عرفت أنه خف أم المؤمنين فابينت أنها جاءت لتفتد أسماء فأسرعت حتى دخلت الحجرة فإذا هي واقفة عند رأس أسماء . ولما رآها أم المؤمنين داخلة وعلى وجهها إمارات البقعة أشارت إليها بأناملها وشتيتها أن تمشي الهويناً وإن لا تخاف . فأبطأت في خطاها حتى دنت من أسماء فرأيتها نائمة وقد كلل العرق جبينها فالتفتت عائشة إلى العجوز وسألتها عن حالها فقالت أنها شعرت بالبرداء منذ خرجنا من عندك ثم أصابها الحمى كما ترى

قالت استقيها العسل

قالت جئت إليها بقدح منه (وأشارت إلى القدح) فلم تشرب

قالت ها هو أنا استقيها إياه فإنه خير دواء والتفتت إلى أسماء فرأيتها تتحرك وهي تمسح العرق عن وجهها بكفيها فدنست من فراشها ففتحت أسماء عينيها ولما رأت أم المؤمنين اجلست وبهفت للحال وقد توردت وجعناها . فقالت لما عاتبة لا ترجعي نفسك يا بنية وجست بهذا فإذا هي لا تزال حائرة وقد ذبلت عيهاها وأحمرتا من شدة الحمى

فقالت لما عاتبة ألم تشربي العسل يا أسماء

قالت لا أشتهي طعاماً يا مولاتي ولا حلياً

قالت إنما هو دواء فهو شفاء للناس وقد سمعت رسول الله (صلم) يقول « الشفاء في ثلاث شربة عمل وشرطة محم وكية نار ولبي امني عن النبي » (١)

وزد على ذلك أنه (صلم) كان يهبة الحلواء والعسل . قالت ذلك وتناولت القدح ودفعته إلى أسماء . فتناولته ولم يمد في أمكانها إلا شربة فشربتها ولم يبق قليل حتى أحست برطوبة حلقها . وأوصها عائشة أن تتناول شيئاً من لبن الأبل فأطاعت وبعد شرب اللبن اتعتشت فجلست في الفراش . ورغبت إلى أم المؤمنين أن تمكث عندها

لأنها استبشرت بها وأعدأت منذ رأها أن تشعر بنفس في صحتها
فقالت عائشة بل أرى أن تنزل إلى البستان فاستظل بالعرش لاني تعبت من
المنها. وتراحم الناس علي في هذا اليوم . وأظن نزولك إلى هناك يفيدك
قالت أفي أنشرف بمرافقة أم المؤمنين وأستأنس برأها . فنهضت ولما وقفت أمامها
أحسنت بضعف قلل شيقا من حركتها وظهر عليها الذبول ولكنه زادها هيبه وجمالا
ومشت عائشة أمامها وهي صامتة والجلال والوقار يشفيانها وسارتا في أثرها وقد
هالما سكوبها حتى وصلن البستان وهو محاط بسور من سعف النخل في وسطه عريش
مصنوع من الجريد يستظل به وقد نصبوا فيه مقاعد من الجريد والخشب . فدخلته
وجلسن فيه وأم المؤمنين لا تزال صامتة ثم دعيتها للجلوس فجلستا متأدبتين وفي نفس
كل منهما شيء تفكر فيه ولكل يشاغلن بما يسمعه من حفيف سعف النخل لا اشتداد
الريح في ذلك اليوم

الفصل الثاني والأربعون

﴿ طلحة والزبير ﴾

ولم يكن يستحب بين الجلوس حتى سمعن جعرا وصهلا وجلبة فانطلقت عائشة
حاجبها تطلعا لما يأتيها من اخبار القادمين وما هم ان دخل بعض الخدم وطبوا
امارات الدهشة

فقالت ما وراءك يا غلام

قال ان ركبا قادمين من المدينة وفيهم طلحة والزبير يلتمسون المثل بين يديك .
فلما سمعت اسماء ذلك بغتت وظهرت البقعة على وجهها وتحزنت للتهوض والعود إلى
البيت ليجتمع أم المؤمنين بالقادمين

فقالت لما عاتشة (وقد تغير وجهها) « لا أرى حاجة إلى دخولك البيت الآن
وإذا رأيت ان لا تحضرا مجلسا فاجلسا وراء هذا العريش

فنهضنا ونحولنا إلى مقعد وراء العريش جلسنا عليه وقد سرت اسماء ببقائها هناك
لعلها ان طلحة والزبير قدما من المدينة بعدها ولا بة من خبر جديد جاء به أو انها

جاءا في امرعهما الاطلاع عليه لعلاقته بالامام علي وهي تعلم انها بايعا طلياً مكروهاً
فلبثت مستترقة يمدار العريش واصاحت بسبعها وهي تنظر من خلال الجريد الى من
يدخل العريش

فامرئت حائفة بدخول طلحة والزبير واراحت قايها وبعد هنيهة قدما وهما
لا يزالان بشباب السفرو قد طلاهما الغبار ومعها رجال آخرون
فدخلوا ولا طلحة بصدده العريش ولحمته البيضاء الكثيفة مع قصه وقد ازداد وجهه
حمرة من وعاء السفر وما الى السمرة من اثر الشمس . وكانت اماء قد شاهدته غريمه
في المدينة فلم تستعربه . وكذلك الزبير وهو يتنازع عن طلحة بمحنة عضله وقلة شعر لحية^(١)
فدخلوا ودخل في اثرها ابناهما . فقالوا السلام عليك يا ام المؤمنين
قالت « عليكم السلام يا اصحاب الرسول ونخبة المهاجرين وحماة الاسلام »
وامرهم بالجلوس فجلسوا على مقعد وم مطرقون لا ينظرون اليها اجلالاً لحرمها . فبعد
ان استراحوا خاطبت طلحة والزبير قائلة

من اين اتيا

فاجابها طلحة جئنا من المدينة

قالت كيف فارقتاهما

قال « انا تحملنا هرايا من غمضاء واعراب وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً
ولا يذكرون باطلاً ولا يسمعون انفسهم »^(٢) قال ذلك وعلام الغضب تبدو من خلال
حديثه والزبير بهم بالكلام كأنه لم يكتف بما قاله طلحة

فقالت كيف يتحل عثمان واثم تنظرون

قال الزبير والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لقد دافعنا عنه باولادنا وانفسنا ولكن
الغمضاء ظلمت علينا فلم نتمكن قدراً واقماً

قالت ثم بايهم واثم راضون

قالا بصوت واحد لم نبتاع الا والسيف على اعناقنا وما نحن راضون بهذه المباينة

(١) اسد الغابة (٢) ابن خلدون ج ٢ (تبيينه) كل ما ورد من الاشارات الى

ابن الاثير في ذيل الصفحات الماضية من هذه الرواية انما هي من جزئ الثالث وان ورد سهواً في
بعضها انه الجزء الثاني

قالت امضوا اذًا الى هذه الغزاة وطالبوا بهم ذلك الرجل المفعول
قالا انما جئنا لذلك

فقالت وقد جاءنا ايضًا عبد الله بن عامر ابن خال عثمان وعاملة على البصرة ولما
مع يقتلو حل ما في بيت المال وجاء الينا وكذلك يعلي بن منية جاء من
اليمن ومعه سبابة بعير وسبابة الف درهم وقد اناج في الاطبخ ^(١) وقد كانا
عندي اليوم

ولم تم كلامها حتى جاءها غلام يتهبها بقدم ابن عامر وابن منية فقالت
لبدخلا . فدخل اولًا ابن عامر وهو شاب في الثلاثين من عمره وطوبى جبهه حمره ^(٢) ثم
دخل يعلي بن منية وهو بشي عرجًا وقد كسرت فخذه في طريقه من اليمن وكان قد مع يقتل
عثمان فاقبل ليصر فسقط عن بعيره في الطريق فانكسرت فخذه ^(٣) فجاء برجاله
ومالوه . فلما دخل ابن عامر وابن منية سلا على طلحة والزبير فقال طلحة لابن منية مالي
اراك نمشي عرجًا

قال كسرت رجلي وانا قادم لبصرة عثمان ولكن معي المال والرجال قوموا بنا
للاخذ بالنار

فقال الزبير هلم بنا الى الشام

فاعترضه ابن عامر قائلاً ما لنا وللشام وفيها معاوية وهو يكتمكموها ولكني اري
ان تأتوا البصرة فان لي بها صنائع ولم في طلحة هوى وميالون لما يستو ^(٤) فقالوا فجهك
الله انك تريد الفتنة ولكن دعنا من ذلك ولنسر الى البصرة . فتم الرأي على ان يسروا
الى البصرة يدعون من بها للطلب بدم عثمان وبعضونهم كما امضوا اهل مكة
وكانت اسماء تسمع حديثهم من وراء العريش فلما علمت بما تم اجماهم طيو عظم
طليها الامر وتحققت ان الفتنة واقعة لا ريب فيها فاثرت ذلك في نفسها فاضطربت
وخفق قلبها وثارت الحمية في رأسها حتى كادت بهم* بالهوس والنحول على
الجميع : فادركت العجوز اضطرابها فامسكت يدها فاذا هي ترتعش من عظم
الاضطراب فهمست في اذنها ان لا تضطرب ثلاً* تفزع نفسها

(١) يؤخذ من التاريخ انهم جاؤوا بعد ذلك بضعة اسابيع ولكن الرواية اخفت ذكرهم هنا

(٢) اسد الغابة (٣) اسد الغابة (٤) ابن الاثير ج ٣

فقال لا صبر لي على ما اسمع وم انما يريدون الاعتراض على الامام علي بعد ان
 بايعهم ورأيهم يعني وقد بايعوا واقسموا على الطاعة
 فجعلت تخفف عنها وهي تخفف للقيام

الفصل الثالث والأربعون

﴿ الاجماع على الطلب ﴾

وفيا هي ثم بذلك سمعت صوتاً ارتعدت له كل جوارحها فاصتت واذا هو
 صوت مروان وقد دخل العريش وقبل ان يلقي القبة خاطب طلحة والزبير قائلاً
 وهو يضحك « علي ايكا اسلم بالامارة واؤذن بالصلاة » (اي ايكا سيكون امير
 المؤمنين)

فأجاب عبد الله بن الزبير « علي اي » (يعني اياه الزبير) فاعترضه محمد بن
 طلحة وقال « بل علي اي » (يعني اياه طلحة)^(١) فضحك مروان وقال بل اجعلوا
 المخلافة في ولد عثمان لانكم انما خرجتم تطلبون بدمي . فقال طلحة كيف تدع شيوخ
 المهاجرين وتجعلها لابنائهم . فقال وهو يتمتم « لا اراني اسي الا لاخراجها من بني
 عبد مناف »^(٢) قال ذلك ولم يسمعه احد ولكنهم تسمعوا ما في ضميره
 فاجدته ام المؤمنين فائلة « أريد أن تفرق امرنا بامرطان ليصل بالناس ابن
 اخي » (يعني عبد الله بن الزبير)

فلما سمعت اسماء كلام مروان لم تعد تستطيع صبراً وخصوصاً لما رأت طائفة
 تنهون . فنهضت واسرعت الى العريش واختزلت الجميع وهي ترتجف وقد امتنع لونها
 فلما رآها الناس بنتوا لجوارحها وكان طلحة والزبير يعرفانها فبهتا جميعاً ولم يتكلموا
 اما هي فوقفت بقلب لاهاب الموت ونظرت الى مروان وقالت « اما كهاك
 يا مروان ما القينة من الفتنة في المدينة اما كهاك انك سببت مقتل الخليفة حتى جئت
 تلقي الشقاق بين بقية الصحابة والله لولا حرمة ام المؤمنين لمدرت دمك بين يديها
 الا ترجع عن عملك حتى يهلك المسلمين بالفتنة ويقتل بعضهم بعضاً » قالت ذلك

وصوبها يرتجف ولما فرغت من كلامها حولت وجهها الى أم المؤمنين لترى ما يبدو منها فلما سمع القوم كلامها لبثوا جميعاً صامتين وهي ترتعد وتجلد فاجابها مرطان وهو يضحك وقال « تقولين اني قتلت الخليفة ولم يقتله إلا صاحبك محمد ربيب علي وسوف يلقى كل منها جزاء ما جتته يدا »

فألت « لا تذكر ابن ابي بكر شقيق أم المؤمنين ولا تلتفظ باسم ابن ابي طالب امير المؤمنين والله لو انة بيننا الآن لتلعن لسانك ولا اقول قتلك لانه لا يلوث حسامة يملك »

فأراد مرطان ان يجيبها فأسكتته أم المؤمنين فاقلة « اتذكر اخي محمداً يا مرطان اسكت . وانت يا اما مخفي عنك انك مريضة لا تهيجي دمك اذهبي الى فراشك » وكانت العبور واقفة عيناها فأسكتها يدها وخرجت بها من العريش وهي تكاد تقع لفرط ارتعاشها . فلما خرجنا من البستان صاحبت اماء بالعبور فاقلة اخرجني من هذه المدينة اني لا استطيع البقاء فيها

قالت طلى ابن نذهب يا ابني

قالت سيري في الى يارب

قالت كيف نذهب وماذا نفعل بام المؤمنين اذا افتقدتك ولم نجدك قالت لا ادري ماذا نفعل ولكنني لا استطيع البقاء هنا ولا بد لي من الذهاب

الى المدينة

قالت لا نستطيع الذهاب اليها الآن

قالت اذهبي في الى منزل آخر غير هذا المنزل

قالت اتذهبن الى ام الفضل

قالت هما بنا اليها . قالت ذلك وتناثر الدمع من عينيها لشدة غيظها

وكانت العبور قد عرفت منزل ام الفضل فسارت بها اليه

فلما اقبلنا عليه استقبلنا ام الفضل باشة وقد استغرقت مجيئها مع ما في وجه

اماء من اثر الضعف وظواهر الاضطراب

اما اماء فلم تك تفعل المنزل حتى طاولتها الحمى واصابها الدوار فالتصمت

الاستلقاء على مصطبة امام البيت فدعها ام الفضل الى الغرفة فأبت فانها بوسادة

وغطاء فلم تفلح الرقاد وقالت وقد توردت وجعها من شدة الحمى « اهلوني الى المدينة اهلوني الى الامام علي لاخبر بما تأمر به الناس عليه . . . انهم تواطوا على الطلب بدم عثمان . ولوانهم التمسوا ذلك من قاتله لعدايم ولكنهم يتمسونه من الامام علي ولما اطم الناس ببراءة ساحته » قالت ذلك وهي لا تتألك عن البكاء اما ام الفضل فاستغربت قولها وشق عليها عظم تأثرها وخافت عليها طاقبة ذلك وفاقست لسامع الخبر فقالت ما الذي حدث بعد خروجي من عتكم

فقصت العجوز عليها ما جرى في العريش

فأجملت ام الفضل وصاحت وبلاء لقد عظمت الفتنة ليت عبدالله (ايها عبدالله ابن العباس) لم يذهب بعد لا كلفة حمل هذا الخبر الى علي

فصاحت اسماء دعوني امضي بهذا الخبر بنفسي دعوني اسير للجهاد دفاعاً عن المهتم زوراً ان علياً يا قوم ربي من دم عثمان فكيف يطالبونه و

فقالت ام الفضل دعي هذا الي فاني مرسله رسولا الى علي بكل ما وقع . قالت ذلك ودعت بعض الخدم فجاءها رجل من جهة يدهي ظفر استأجرته ان يحمل كتابها الى علي بالخبر^(١) فركب هيمه وسار ولما تشعبه بنظرها وهي تود ان تكون على رحلو وازادت ان تحمله كلاما الى عهد فسمعا الحياء على انها عولت على الخلق يو حالما تفارقها الحمى

فلنتركها في حالها وليرجع الى المدينة لنرى ماذا تم لحمد بعدها

الفصل الرابع والاربعون

﴿ تفريق المال على الامصار ﴾

تركنا محمداً وقد ودّع اسماء عذر كونهما الى مكة وطاد وفي نفوسهم شيء اقلق راحته لا يدري ما هو وقد فاته اسم الفراق . ولما هو فقد كان يحسب قلقة ما يخافه من مناظره على اسماء ولو كان مناظره غير الحسن من علي لما ن عليه

التخلص منه . ولم يكن يخاف حسناً لأنه ابن أمير المؤمنين ولكنه كان محبة كثيراً
وقد ربا معاً في حجر الإمام علي . ففضى مسافة الطريق وهو غارق في لجج
المهاجس . وما زاده قلقاً إرساله إسماء على هذه الصورة وقد شعلته الغيرة قبل سفرها عن
تقدير الأمر حق قدره . فوقع في حيرة لا يدري ما يجب به المحسن إذا سأله عن إسماء
ولا كيف يعذر أو يقتل سبباً لسفرها وشعر لساعتها بثقل الحب وشدة سلطانها فحول
نظره إلى الطريق الذي سارت فيه إسماء فإذا هي قد توارت عن النظر فحدثت نفسه
أن يهرج إلى مكان يقضي فيه بهارها قبل اللعاب إلى منزل علي مخافة أن يظهر
حاله عند ملاقاته المحسن وهو لا يزال مضطرباً . ولكنه لم يجد طمأنينة فوجد
والناس يملأون جماعات ووحداً من كل صوب يأمنون منزل الإمام علي وهم بين
أمل وخائف وناصر ونائم . وقد علم محمد أن علياً بأهله الناس وفيهم من يضر السوء
ففضى برهة تنقذ المهاجس وهو يمشي فلم يشعر إلا وهو بباب الإمام علي فرأى
الناس قد تكاثروا حوله والخبول في بساتين والجمال معقولة إلى جلوع الظل والمشمس
والصيد وقوف بينها . فذكر هول ما يشغل قلباً وبنو في ذلك المحن من مهام
المخافة فبان عليه مساعلة المحسن في تلك الشؤون ريباً يرى ما ينبغي إليه الأمر .
فدخل الدار وهو يلتمس والدته وقد عول على مكاشفتها بما في نفسه لعلها آمنة
علي ما يخوفه . فدخل حجرها فإذا هي جالسة وحدها ولها ألتفات تلوح على وجهها
ولكنها حالماً رأته هفت له فحباها فرأت في وجهها ابتهاجاً فاجدته قائلة ما لي أراك
منقبض النفس يا محمد

قال وهو يظلمها ما في نفسي شيء غير ما نحن فيه

قالت وماذا جرى هل أنت خائف من مصير هذه المخلاة

قال لا أقول أنني خائف ولكنني أرى المركب خفناً فان ظلمة والزهر لم يهاجما
الأكبر والأكفون والبصرون على رأياها فأخشى أن يدعو الناس إلى تقص المباشرة
قالت لا تخف من ذلك فقد تم الأمر لاني المحسن وحوله غبة من الصحابة يشنون
ازره فإذا أحسن الرأي في مشورته استقام له الأمر باذن الله

قال لا يترك كثرة العدد وفيهم من يضر غير ما يظهر . . . آه ليت ابن خالتي
عبدالله هنا (عبدالله بن عباس) فان له رأياً سديناً وهو ابن عم أمير المؤمنين

قالت العلة لا يزال غائباً في مكة منذ سار إليها

قال نعم

قالت ولكن لنا بالمغيرة بن شعبة خير مشير وقد بلغني انه دخل على امير المؤمنين اليوم ولا يزالان في خلوة منذ الصباح لا تدري ما دار بينهما

فقال ان المغيرة يا أمّاء من غيرة الصحابة اصحاب الرأي والدعاء ولا يخفى عليك انه احد دهاة العرب الاربعة

قالت ومن هم الثلاثة الآخرون

قال هم معاوية بن ابي سفيان وعمر بن العاص وزيد بن ابي

الفصل الخامس والأربعون

❁ المغيرة بن شعبة ❁

ولم يتم كلامه حتى سمع وقع اقدام خارج الحجرة عرف انها بخطوات الحسن فبشت ولكنته تظاهر بالاهتمام وقال هذا اخي الحسن فلندعه لعله يخبرنا بما دار بين الامام علي والمغيرة

قالت ادعه فخرج محمد ليدعوه فاذا هو داخل فاجتدره محمد بالسلام . فحياه الحسن ولم يزد على السلام شيئاً . فانشغل خاطر محمد بخافة ان يكون في تنسبه شيء . فقال له اهلاً ياخي ابن امير المؤمنين لقد كنا في حديث هذه الخلافه ونحن في شوق لاستطلاع ما دار بين مولاي ابي الحسن والمغيرة

فجلس الحسن على وسادة بالقرب من الباب وتنازل باصلاح عامته ولم يزل قنطازوه وهر رأسه ولم يجب

فازداد انفعال خاطر محمد وظهر الاضطراب على وجهه فتقدم نحوه وهو يتجامل والتمح عليه . ن يطلعه على جليلة الخبر وهو يخاف ان يسمع منه لوماً او عناباً بشأن اسماء فاذا به وقد زفر زفرة شديدة وقال نساء لني عن حديث المغيرة وهو حديث ذو شجون قال محمد وما ذا عسى ان يكون

قال « ان المغيرة صاحب رأي وحزم ولكن والذي لم يصغ اليه فقد سمعت كلمة واعجبني رأيه ولكن امير المؤمنين لحرية فكبر وقوله لم يصغ على ما اراد وان يكن رأيه الصواب وهو من اعظم دهاء هذه الامة »

فقال محمد ا وقد ارتاح باله من قبيل اسماء وما هو الرأي الذي رآه
قال انت تعلم يا اخي ان بعض الناس يبيعونا على دخل (يريد طلحة والزبير)
ولا يخفى عليك ان حقوقنا ليس من اهل المدينة ولا من اهل مكة وإنما نحن خائفون
من حال الامصار في مصر والشام والكوفة والبصرة واشد هؤلاء بغيضا وأكثرهم عداوة
لنا معاوية بن ابي سفيان في الشام وهو كما تعلم ابن عم عثمان وكان من اكبر انصاره
وكذلك ان عامر في البصرة وهو ابن خال عثمان

قال محمد نعم

قال فأشار المغيرة على والذي ان يسي عثمان هؤلاء على اعالم لئلا يكون
بعد ان يستقيم لنا الامر فاني والذي عليه ذلك وقال كلاً فلما رآه مصراً على رأيه
قال له « اخرج من شئت وارك معاوية فان فيه جرأة وهو في اهل الشام ولك حجة
في اثباته وكان عمر بن الخطاب قد ولاء الشام قبل عثمان »^(١) فاقسم والذي انه لا
يستعمل معاوية يومين فخرج المغيرة ولم يزد حرفاً

فقال محمد انتظن المغيرة مصيباً

قال نعم انه رأى الرأي الصواب لان سكوتنا عن معاوية ورفاقه يسكتهم ربها
نرى ما نأول اليه الحال

فقلت اسماء أم محمد نمل ربها بأخي ابن اخي عبد الله بن عباس فانه لا يلبث
ان يعود من مكة والامام يصغي لكلامه

قال الحسن لا اظنه مصغي لاني آست منه اصراراً شديداً فلنصبر لعل ابن
عباس يتغلب عليه قال ذلك وسكت هنيهة يفكر ثم انبسطت اسرته بغضه كأنه تذكر
امراً سره وقال وهو ينس من المخالفة ومشاكلها شغلني عن امر آخر ذكرته لك
تلميحا وكنت عازماً على مخاطبة والذي هو اليوم فامسكني عن ذلك انشغاله
بالمغيرة وحديثه

فادرك محمد انه يريد خطبة اماء فكادت البقعة تظهر على وجهه ولكنه تجاهل وقال وماذا عسى ان يكون ذلك الامر يا اخي
قال لا اظنك تجهل ما في نفسي عن اماء تلك الفناء الاموية التي نزلت عندنا .
(وحوّل وجهه الى ام محمد . . . وقال) انها يا خالي بارعة في الجمال وفي وجهها
مهاية يندران تري مثلها في النساء .

فارتبك محمد في امر لا يدري بماذا يجب ولكنه تجلد وقال وهو يتظاهر بعدم
الاكتراث لماذا لم تقل لي ذلك قبل سفرها
فبهت الحسن وقال الي ابن سافرت
قال سافرت الى مكة في صباح هذا اليوم
قال وكيف وما الذي حملها على السفر ومن سافر بها وهي وحيدة
قال انها سافرت مع عجموز من ذوات قرابتي ورجل من بني الليث من الخوالم
اخي ام المؤمنين

فاقطن الحسن وجهه وقد استغرب ذلك وقال وما الذي حملها على السفر
قال سمعنا تقول انها تفضل البعد عن المدينة في اثناء هذا الاضطراب وطالما
كانت تود التعرف بام المؤمنين فاطمها سارت لتقضي عندها بضعة ايام ثم تعود
فاطرق الحسن مدة يفكر ثم قال لا بأس من ذهابها الآن وسأغتنم اول فرصة
يخلو بها والدي فاعرض عليه خطبتها لي فاذا لم تكن قد جاءت نبئت في استفدائها .
قال ذلك وخرج

وظل محمد جالساً وقد علته البقعة وامتنع لونه فلاحظت والدته في ذلك فقالت
يظهر انك اهتممت بمحدث الحسن

فتنهذ ولم يجب

فقالت مالك لا يجب

فتردد بين ان يكف لما سر او يظل على كتمان ولكنه لم يعد يستطيع صبراً على
الكتمان فقال لقد هي الامر اكثر مما نظنين
قالت ولماذا

قال ان الفناء التي ذكرها اخي الحسن مخطوبة

قالت ولن
 قال لي
 قالت ما تقول ...
 قال هذا هو الواقع
 قالت وكيف يطلبها هو لنفسه
 قال لانه لا بدري ذلك
 قالت ولماذا لم تخبرني بخطيها قبل الآن
 قال عرست على ذلك وجئت بها اليك فلم اجدك
 قالت وما العمل الآن
 قال لا ادري وساصر . قال ذلك وهرق اسنانه
 قالت انتكدر اخاك الحسن من اجلها
 قال معاذ الله ان اكدر وانت تعلمين حبي له ولكني سأرى ما يأتي و القدر
 لم يخرج وقد اخذ الفلق منه ما خذا عظيماً

الفصل السادس والأربعون

عبد الله بن عباس

ومضت اياماً والحسن يتربص فرصة يخاطب بها والده بشأن اسماء فلم يهر الى ذلك
 سبيلاً لاشتغالهم جميعاً في تفريق المال وتقلب الاحوال . فان الامام علياً ما برح منذ
 ولي الخلافة لا يهدأ له بال وعال الامصار أكثرهم باقون طليو ولعله لو اطاع المنفرة
 لحف شياً من قنهم ولكنه اصر على استبدالهم بمال من يثق بهم وبامانتهم من رجاله
 وكان الحسن فوق ذلك الاشغال هائلاً مفاتحة والده بامر الخطبة وهم في تلك
 الشواغل لئلا يجيل له انه انشغل بالحب عن الخلافة ملاح له ان ينتظر محبي عبد الله
 ابن عباس فيوسطة في الامر لما يعلم من دأله على والده . وذكر ذلك لحمد بن ابي
 بكر فلم يجبه ولكنه فلق وزادت غيرة . فلما سمع محمد بن عباس بن عباس اراد ان
 يشغله بمحدث الخلافة عن المناوذة بامر الخطبة فاسرع اليه قبل ان يعلم الحسن بمجيئ

وأنبأه بما كان من حديث المغيرة بن شعبة وما أشار به على الإمام عليّ إلى أن قال
وقد كنا في انتظار مجيئك لملك تنفي الإمام عن عزمو فقد أصرّ على خلع حال عثمان
وم كما ترى غير راضين ولم احزاب وخصوصاً معاوية
فقال عبد الله ان المغيرة والله مصعب ونعم الرأي رأيه
فقال محمد وهذا الذي نراه جميعتنا فما العمل

قال اني ذاهب الى عليّ الساعة . قال ذلك ونهض وقد همّ الامر كثيراً لانه
كان شديد الغيرة على الاسلام مع قرابته من الرسول والإمام
وكان في حدود الاربعين من العمر جميل الوجه ايضاً اللون مشرباً صفة جسيماً
وسباً صبيح الوجه فصيح اللسان " وكان اعلم الناس بالحديث والشعر والعربية
سيد الرأي عالماً بتفسير القرآن وبكل علم من علوم تلك الايام لم يدرك احد من
اهل زمانه ما ادركه من كل ذلك . فلما سمع كلام محمد اسرع الى عثمان وجبته
وسار بهرع الى منزل الامام عليّ ومحمد يتبعه وهو لم يكن يتوقع اسراعه في الذهاب
الى عليّ بهذا المقدار

فوصلا الى الدار فرأيا المغيرة بن شعبة خارجاً من حجر الإمام عليّ وكان في
خلوة معه . فقال عبدالله لمحمد اراه جاءه ثانية ام هذه هي خلوته التي ذكرتها لي
قال بل هذه غيرها ولا تدري ما جاء به

وفياها في ذلك جاء الحسن وكان ذاهباً في شأن فلما رأى عبدالله يفت ووقف
وسلم عليه ودعاه للجلس في حجرته وهو يريد ان يذكر له امر الخطبة فراه في شاغل
آخر وقد اسرع الى حجره الإمام عليّ فدخل هو ومحمد في اثره

فلما اقبل عبدالله على الإمام عليّ حياه بفتح الخ لفة قائلاً السلام عليك يا امير
المؤمنين وكانت هذه اول مرة رآه بها بعد الخلافة . فرد عليّ نحية عليه ورحب به
وقال وعليك السلام يا ابن عم الرسول ، صلعم ، قال ذلك والانتباه ظاهر على
وجهه كأنه كان في جدال عنيف . فمشى عبدالله حتى جلس الى جايه وجلس الحسن
ومحمد في بعض جهاب الغرفة والحسن يرى في خاطر ان عباس شيقاً وكان يود ان
يخلو به قبل دخوله على والده

الفصل السابع والاربعون

﴿ علي وابن عباس ﴾

وبعد ان جلسوا منبهة وكلٌّ يفكر في امر بهيمة قال ابن عباس رأيت المغيرة خارجاً من عندك فهل جاءك برأي جديد فاني اعتقد دهاءه وسداد رأيه
قال علي وقد كنت اعتقد ذلك فهو حتى جاءني منذ ايام بشور علي ان اقر معاوية وسائر رجال عثمان على اعمالهم . وانت تعلم انهم كانوا من اعظم المقاومين لنا والقتلة انما قاست والخليفة عثمان رحمة الله انما قتل بسببهم فكيف ابقيهم . فأبيت الا اعزله فتقدم اليّ ان اتي معاوية فقط على الشام فأقسمت اني لا استعمله يومين فخرج من عندي يومئذ وأنا اعرف فيه انه يود اني محض . ثم عاد اليّ الآن فقال لي « اني اشريت عليك اول مرة بالذي اشريت وخالفتني فيه ثم رأيت بعد ذلك ان تصنع الذي رأيت فنصرتهم وتسمعون بمن ثقت به فقد كفى الله وم اهون شوكة ما كان » فاعجبني رجوعه الى رأيي فلما سمع ان عباس كلام الامام تسم وقال انظرن يا ابن عمي ان المغيرة قال في هذه المرة ما يستحق

قال علي وماذا اذن

قال ه اعلم يا امير المؤمنين انه في المرة الاولى نصحت وفي هذه المرة غفلك لان معاوية واصحابه اهل دنيا فمضى ثمتهم لا بهالون من ولي هذا الامر متى تعزله يقولون اخذ هذا الامر بغير شوري وهو قتل صاحبنا (عثمان) ويؤلبون عليك فتنتفض عليك الشام واهل العراق مع اني لا آمن طلحة والزهران يكرها عليك . وأنا اشير عليك ايضاً ان تثبت معاوية فاذا ما بع لك فعلي ان اقلعه من منزله . وكان ابن عباس يتكلم وعلي مطرق وهو مغضب الوجه وقد اقلعه ذلك الامر كثيراً . ولما احسن ومحمد فكانا يسمعان كلام ابن عباس وقلباها برقصان فرحا على امل ان يقتنع الامام علي باقرار معاوية خوفاً من الحرب . فلما فرغ ابن عباس من كلامنا لبنا منتظران ما يقوله علي فاذا هو لا يزال مطرقاً غامساً والسكوت سائد في تلك الجمرة لا يبدأ احد

بكلام حتى لقد مجازد احدم اذا فاجأه السعال ان يتنحى . وبعد هنيهة رفع الامام علي رأسه ونظر الى ابن عباس ويد على قبضة سبزو وقال « والله لا اعطيه الا السيف » (١) ثم رده الى تحت وجعل يمشيها باءابعه ويقول

وما مية انت متها غير عاجز * بمار اذا ما غالت النفس غولها

فلما سمع ابن عباس كلامه ورأى ما بدا على وجهه من امارات الغضب هاب منظره ولكنه شق طويوان يسير الامام على ذلك الرأي لعلها يتوقعة من عواقب الامر وكانت له دالة ووجهة عند فقال له « انت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب اما سمعت رسول الله (صلم) يقول الحرب خدعة »

فقال علي « بلى »

قال « اما والله لئن اطعني لاصدرتهم بعد ورد ولا تركهم ينظرون في دبر الامور لا يعرفون ما كان وجهها في غير قصان عليك ولا اثم لك . وما فرغ من كلامه حتى اندى العرق جبهة حمية وغيرة ولكنه لم يكذب فرغ حتى اجدره علي قائلاً « يا ابن عباس لست من هنالك ولا من هنات معاوية في شيء »

قال ابن عباس « اطعني والحق بك بالحق بنيع واغلق بابك عليك فان العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك فانك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليجملنك الناس دم عثمان غداً »

وكان ابن عباس يتكلم ويلاح وجه علي وحركاته تدلان على انه غير مقتنع فلما فرغ ابن عباس من كلامه قال له علي « تشير علي وارى فاذا عصيتك فأطعني » فقال ابن عباس وهو يمي رأسه اجلاًلاً « افعل ان ايسر ما لك عندي الطاعة » فقال علي « تشير الى الشام فقد وليتها »

قال ابن عباس « ما هذا برأي فان معاوية رجل من بني امية وهو ابن عم عثمان وعائلة ولست آمن ان يضرب عني نعمة لعثمان وان ادنى ما هو صانع ان يجلسني فيحكم علي لقرابي منك وان كل ما حمل عليك حمل علي ولكن اكتب الى معاوية فينة وعنه . . . » فقطع علي كلامه قائلاً « والله لا كان هذا ابداً »

فصكت ابن عباس ولت صامتاً برهة ثم استأذن وخرج وخرج في اثره الحسن وعبد وكان علي رؤوسهم الطير . اما علي فأمر للحال في افاذ عماله الى الامصار فبعث عثمان بن حنيف على الصرة وعامة بن شهاب على الكوفة وعبدالله بن عباس (اخا عبدالله) على اليمن وقيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيف على الشام

الفصل الثامن والأربعون

* حلاف معاوية *

وقضى علي في ذلك اياماً لا يخلو مجلسه من الامراء للخص في هذه الشؤون فلم ير الحسن سبيلاً الى مفاتحه في شأن اماء علي انه هو نفسه كان في شغل عظيم من تلك الامور . فلما فرغ علي من تدقيق العمال وقل ورود الناس على بايو رأى الحسن ان مخاطبة في الامر وكان يطلع محمداً على ما ينوي ولا يعلم ما في خاطره من امر اماء وكان محمد اذا مخاطبة الحسن في هذا الشأن حدثه نفسه ان يطلعه على ما بكنه ضميره ولكنه امسك عن ذلك مخافة ان يكدر الحسن وهو محبة حاشديداً . ففضى اياماً واسامع لا يدري ما ذا يعمل وكان اذا فاتحه الحسن في عزوه على مخاطبة والى في الامر سكوت او غير الموضوع

ففي ذات يوم جاء الحسن الى محمد وكان خارجاً من حجرتو الى المسجد وقال له اري والدي قد فرغ من ارسال العمال الى الامصار ولا اري وقتاً اصح من هذا لمخاطبتي بشأن اماء . ولكي ارجوان تساعدني او تكله عني بشأنها

فاحار محمد في امره لا يدري ما يجيبه وقلبه ينفذ غيرة ولكن حبه الحسن غلب على ما يخشاه الناس من عيامل القوة وعظم عليه الامر ولم يجب علي انه تشاغل بالنظر الى الافق كأنه يرى شيئاً . فقال له الحسن ما رأيك يا اخي ما بالك لا تجيبني هل اكلم والدي او تكله است عني ما بالك لا تجيبني

فتظاهر محمد بانثقاله بشبح يراه خارج سور المدينة وتطاول بعنفو كأنه يتأمله ويتفرس فيه وقال اني مشغل بهجان اراء فادماً بسرعة البرق نحو المدينة

وكان في رسول

فالتفت الحسن فرأى هجاءاً مقبلاً عن بعد ولكنه لم يتبينه جيداً

فقال ومن هذا الرسول يا نبي

قال محمد (وقد سرّ لتغيير الموضوع) اني والحق يقال لا ارى رسولاً قادماً الينا
الا ولنا أخاف ان يأتينا بخبر سوء ولا اخل العال الذين ارسلهم امير المؤمنين
راجين التهنئة اجارنا الله من عواقب الشدة

فقال الحسن ومن اين تظن هذا الرسول قادماً

قال يجئني من جهة مسومة انه قادم من الشام فلعله رسول معاوية وماذا مرجى
من رسول يأتي من معاوية

قال الحسن دعنا ملاقيو وسأله عن هو

قال محمد هلمّ بها ولذا كان رسولاً من معاوية فالامر اما اني الى السلم ولما
الى الحرب لان امير المؤمنين كتب اليه منذ ثلاثة اشهر (١) ولا يدري ما يكون
جوابه . قال ذلك ومشيما وكان الرسول قد دخل المدينة فلما دنا منها ساء فافا
هو رجل من بني عبيس تدل قياضة على انه من اهل الشام وقد التفت بالمعابة وتلثم
بالكوفة وعلاه الفار وتصب جملة لما هدتو في سوقو تعجلاً لوصولو وعجبا لامر لانه حالما
دخل المدينة مدّ يده الى جيبو واستخرج طوماراً وهو صحيفة مخومة قص عليها من اسفلها
ورفعها والناس يتعجبون وهم يظنون الى الطومار فاستوقفه محمد قائلاً من انت

قال رسول من معاوية بن ابي سفيان

قال الى من

قال الى امير المؤمنين

قال الحسن وماذا تحمل اليه

قال هذا الكتاب وأشار الى الطومار

فقال سر الى امير المؤمنين انه في دارو . فسار وسارا في أثره وهما في شغل هما
قد يكون في ذلك الكتاب ولولا حرمة امير المؤمنين لفضاً الحتم تشوقاً للاطلاع
على ما فيه

ووصل الرسول الى دار علي واشتغل بمقل جعلوه قسبة محمد والحسن الى الخليفة
وكان متكئا في حجره فاطماً يقدم الرسول فلما سمع خبره جلس وقد هه امره
واستغفم اليه

فدخل ومعه جمهور وعلي جالس ومحمد والحسن وغيرها من الصحابة بين يديه
فقدم الرسول غير هائب ذلك المجلس وقد رفع الطومار بين يديه فبعض الوقوف
ان يتناول منه فأبى الا ان يسلمه للامام علي بينه

فمد الامام يده فلما رآه الطومار قرأ على ظاهره « من معاوية الى علي » فنفذ
الحكم وفتح الطومار والناس صامتون لما سئل عليهم فلم يجد فيه شيئا فبغت وظهرت
البغنة والغضب على وجهه والتفت الى الرسول وقال له « ما وراهك »
قال « آمَنَ انا »

قال « نعم ان الرسول لا يقتل » قال « تركت وراي قوما لا يرضون الا بالتبوء »
قال علي « ممن »

قال « من حيط رقبتك . وترك ستين الف شيخ تبكي تحت قبض عثمان ومن
منصب لم قد البسوس مبر دمشق » (١)

فخطر علي اليه نظر الاستغراب والذهشة وقال « أمتي يطلبون دم عثمان . اللهم
اني ابرأ اليك من دم عثمان قد نجما والله قتله عثمان الا ان يناء الله » (٢) قال ذلك
وحول وجهه عن الرسول كما لم يعد يستطع ان يراه وأشار اليه ان يخرج
فقال أخرج وانا آمن قال « وامت آمن » فغول الرجل يريد الخروج فاعترضه
بعض رجال علي وهموا بقتله فصاح فيهم علي ومنعهم فجاء العسي وهو لا يصدق

وأشار الامام بعد ذلك الى الناس فخرجوا وخلا باولاده وفيهم محمد بن علي
بكر وبعت الى عبد الله بن عباس وقال لم « قد سمعتم ما قال معاوية فلم يبق تحت
بد من القتال فيها » فقالوا بصوت واحد « انا معك أي سرت وما تتدبها اليه فانا
طوع امرك » محمد جدا دفع لواءه لمحمد بن الحنفية اخي الحسن من امير وولي عبد
الله بن عباس ميمته وعمره من اي سلمة مبرته . وتناقل اهل المدينة في بادىء الرأي
ولكنهم اطاعوا اخيرا (٣)

(١) ابن الاثير ج ٣ (٢) ابن خلدون ج ٢ (٣) ابن الاثير ج ٣

وقضى عليّ أياً ما في اعداد المعدات ومحمد والحسن في مقدمة العاملين . اما محمد فلما تحقق وقوع الحرب وتجهيد الجند ولم يتدبّر امير المؤمنين للقتال صغرت نفسه وتذكّر انه من رأى قتل عثمان فهو أولى بالمسير الى الحرب فنارت في نفسه نار الحمية ولم ير لها شفاء الا بالمسير الى القتال فسار الى عليّ يطلب اليه ارساله في تلك الحملة . وفيما هو سائر تذكر اسماءه وبعدها وهو لا يعلم ما جرى لها فحدثته نفسه ان يتقاعد عن المسير الى الحرب وهو لم يتدبّر اليها . ولكنه لم يكد يتصور ذلك حتى اعترضه وجوب الدفاع عن عليّ لانه كان في جملة الذين جرّط عليه ذلك النار

الفصل التاسع والاربعون

﴿ حرب أخرى ﴾

وما زال سائراً حتى دخل على عليّ فرآه يخطر في غرخته ذهاباً واياباً وليس في الغرفة سواه . ورأى في يده رقعة يتألمها ويمسك تلاوتها وقد أخذ منه القلق مأخذاً عظيماً . فهاب الدخول عليه وظل واقفاً عند الباب يتردد بين ان يدخل او يعود فلمحة عليّ فناداه فدخل وحياه فرد الغيبة وهو منقلب الوجه . فهمّ محمد بفاتحه ولكنه ترصّ عساً ان يسمع منه خبراً جديداً . فصبر هنيهة وعليّ يخطر في ارض الغرفة حتى وقف الى نافذة من نوافذها واخذ ينظر الى الافق وهو غارق في بحار التأمل ثم حوّل وجهه الى محمد بفتة وقال « اين هو الحسن »

قال لا ادري يا مولاي لعله في المسجد فهل من امر اضيق لامير المؤمنين قال ساطعك على ما حدث ولكن ما الذي جئت به اني اري في وجهك خبراً قال انما جئت التمس من سيدي الي الحسن ان يساويني باهل الفتنة من رجاله قال وما ذا تعني قال اعني انك امرت الناس بالقاء هب للحرب وعينت القواد والامراء ولم تأمرني بالمسير معهم وانا اولي منهم جهة الحرب

فهم الامام عليّ تبهماً بما زجه قلبي وقال بورك فيك يا ابن اول الخلفاء لانت

عندي كأحد أولادي ولكنني اخذت منك محمدًا (ابن الحنفية) في هذه الحملة واستبقيتك لهمة أخرى

قال اني طوع ارادتك طاراني مع ذلك مكنًا باحتمال جهد هذه الحرب أكثر من سواي

قال لا تستعجل يا بني انك ستلاقي طريقًا تسير فيه الى حرب أخرى لان الطرق كثيرة

فحوسم محمد من وراء ذلك امرًا مكتومًا فقال وماذا يعني مولاي بالحرب الاخرى وهل حدث ما يدعو الى حرب

فالتفت علي تلك الرقعة اليه وقال اقرأ هذه الرقعة التي آتيتني الساحة فانها تنبئك بالخبر اليقين

فتناولها محمد ونظر فيها فاذا هي كتاب ام الفضل من مكة تهني الامام عليًا باجتماع طلحة والزبير طام المؤمنين على الطلب بدم عثمان فانهم مجأ ط السور الى البصره

فبغت محمد وتلا الرقعة ثانية وثالثة وهو لا يتكلم . وتحول علي الى مصحف على منضدة امامه فتناوله وجعل يقلب في صفحاته

فاراد محمد ان بكلمة فرآه يقلب صفحات القرآن فلت صامتًا وقد هالة ما احاط بهذه الخلافة من البلاء وتذكر اخنوخ وامناء عندها

وفيا هو يفكر تحول علي اليه وبين سواك يتشاغل به وهو يقول « ارايت يا محمد ما عملت بنا اخنوخ »

فقال محمد اني لا أعجب من عملها ولا اكاد اصدق انها عملة . لم يعلم امر المؤمنين شيئًا غير ما في هذه الرقعة

قال ألا يكنفنا ما فيها

قال وما الذي حملهم على ذلك

قال أما انني يا محمد عن السب وقد انبأ تك هذه العواقب قبل حدوثها . كم قلت لكم دعوا هذا الرجل وشأنه لا تقتلوه لان قتله سيكون سببًا لتنته عظمي طمع بعضهم في الخلافة لانفسهم فلوظل عثمان حيًا لم يكن ثمت ما يبحث على هذه الحروب

وقد بايعوني وأنا اعلم انهم يضررون غير ما يظهرون فان طلحة والزبير يريدانها كل
 منها لنفسه دون سواه فما في انقسام عليها ولو اتحدا في مقاومتى . وسرى اذا ما غلبا
 عليا ان الحرب ستقوم بينهما حتى يفتي احدهما الآخر ويقتل الالوف من المسلمين ولو
 اعلم ان تنازلي عن الخلافة ينجى الفتنة لتنازلت عنها منذ اليوم . ولكننى اعلم انها تصح
 بعدى فوضى كل منهم يتعللها لنفسه . ناهيك عن معاوية في الشام وما في خاطره من
 الطمع في هذا الامر ولا يفرنك ما يدعوه من الطلب بدم عثمان وهو لومة امره لنصره
 قبل ان يقتل . ولكى اتخذ قلة ذريعة الى القاس الخلافة لنفسه مع علو اتي اولى
 الناس بها . فالغيرة على الاسلام وجبها تدعوني الى الدفاع عن خلافتي لعلمهم بمحبتهم
 على بيعتي فتجد الفتنة . واما خروجها من يدي طوعا او كرها فانه يدعو الى فتنة
 عظمى اخشى ان تلحق على الاسلام والعباد بالله

ولم يكده على يتم كلامه حتى تقطر العرق من جبهته على لحيته واحمرت عيناه
 وتناثرت منها دمعان اختلطتا بالعرق وتجلت في وجهه ملاح تشفى عما قام في
 نفسه من الغيرة على الاسلام وتعاظمت هيبته حتى لم يعد محمد يستطيع النظر اليه محبا
 من غضوه وتجللا من نفسه لانه كان في جملة الذين يرون قتل عثمان . قلت برهة
 صامتا وعلي يسبح العرق عن جبهته وينفضه عن لحيته

وبعد السكوت برهة قال محمد يظهر يا مولاي ان اخي لم نقم لهذا الامر الا
 مدفوعة بهريض طلحة والزبير فقد خرجا من المدينة غاضبين واني لارجو اذا لقيها
 ان احولها عن عزها . ولكننى لم افهم الحكمة في مسيرهم الى البصرة دون سواها
 قال اغلظهم رأيا اهل المدينة بايعوني فاستنصروا اهل مكة على نقض البيعة
 وساروا يفعلون مثل ذلك في البصرة والكوفة

قال محمد وهل سألت الرسول عن تفصيل الامر

قال لم أسأله الا قليلا

فقال اتأذن لي ان اكله واستنهم عن التفصيل

قال لا اتى انه يعلم تفصيلا ولكننى ارى ان اعتديك للسير الى مكة تستطلع
 سر الامر بنفسك وانت اولى الناس بذلك لان اخذك ام المؤمنين في جملة الفاتحين
 فسر محمد تلك المهمة سرورا عظيما لانه ينجس بها الاسلام ويرضي بها الامم

ويستطلع حال اماء.

فاجاب قائلاً ليك يا مولاي اني سائر الساعة وارجو ان احول اخي عن هذا العزم اذ قد يكون طلحة والزبير هما اللذان حرضاها عليه . وهل تريد ان يعلم احد بمسيري

قال لا أرى ان يعلم به احد سر جراحة الله

قال هل تأذن لي بمقابلة الرسول الذي حمل هذا الكتاب اليك اسأله

بعض الاسئلة

قال اسأله انه في دار الاضياف

فخرج محمد وهو لا يزال مندفعاً لمول ذلك الخبر ولكن لقيام اماء كان يهون عليه بعض الشقاء . فسار الى دار الاضياف فلقى الرسول فصرقه فساءله عن عجوزه هل لقيها في مكة

فاخبره انه رآها يوم سفره عند ام الفضل وسما فتاة مريضة

فقال محمد وهل تعرف تلك الفتاة

قال لا اعرفها لانها غريبة الدار ولكنني طمت انها جاءت مكة مع تلك العجوز وكانت تقيم في منزل ام المؤمنين ثم اعتقلت الى بيت ام الفضل ورأيتها تفكومن حتى شديت

فاحس محمد بنار اقتدت في اعضائه وخاف ان تكون اماء قد اصبحت بسوء فاصبح مدفوعاً الى الاسراع في السير بدافعين قويين غلظة امير المؤمنين والحث عن اماء



الفصل الخمسون

﴿ خواطر وهواجس ﴾

فخرج لساعته وودع علياً ولم يعلم احد بهمنه وركب هيمناً واصطحب خادمات من بعض المدينة وركب قاصداً مكة وهو يود ان يظهر اليها على اجنحة النسيم . فبات تلك

الليلة في قباء فتذكر اول مرة رأى فيها اسماء تنسب أُمّها وأصبح قبل الفجر على هجينو يطوي السهل والوعرو هو لا يصدق انه يصل مكة ويرى اسماء حية

على انه لم يكذب بخلو بنفسه في تلك الصحراء حتى تصوّر ما يصدق بالخلافة من الاخطار الهائلة التي تستلزم صبراً وانقطاعاً عن كل عمل سواها . فلام عواطفه لانشغالها بالحب وعوّل اذا فني اسماء ان يعاودها على الاقتران ولكنه يشترط عليها ان لا يكون ذلك الا بعد انتصار الامام عليّ في حروبه على ان يكون ذلك نذراً عليها

وكان كلما اقترب من مكة تعاطف ذلك الامر لديه وثارته فيه الحمية الاسلامية والغيرة على الامام عليّ وهان عليه أمر الحب وعاملوه . فلم يخلّ باله من هذه المواجهات لحظة وتذكر نصائح اسماء وما انبأت به من عواقب تلك الفتنة وكم حرصت الناس على الكف عن عثمان وقالت ببراءة ساحنو فعمّيت في عينيه وازدادت إعجاباً بحملها وحسن نظرهما وابتغى انهم لو انصاعوا الى رأيها لكانوا في غنى عن تلك الحروب

قضى طريقة كثة في مثل هذه الخواطر وهو مع ذلك يستحقّ جملة لا يلتفت بئس ولا يسره مخافة ان يضعف الوقت فامسى وهو لا يزال على بضعة اميال من مكة فشق عليه المبيت خارجها وعوّل على مواصلته السري حتى يدخلها ولو ليلاً . فاشار عليه خادمة ان يستريح هنيهة ويرجع الجمل ريثما يطلع القمر فيسيران في ظلمة . فاستحسن الرأي فتزلا في مكان رأيا عنده بيتاً خفياً عند بابو شيخ توسد حصيراً من سعف النخل وامامه جزار وأكواب من الخشب يعني بها من اراد من المارة في تلك الصحراء

فتزل على الشيخ وحياه فرحب به وتنادى ابنة له وعيالاً ليقدموا لضيمنهم ما يحتاج اليه من الماء او العلف للجمال . فعهد محمد بتدبير ذلك الى خادمه وصعد الى رابية خلا فيها بنفسه وقد غابت الشمس فحوّل نظره من تلقاء نفسه الى مغيبها في الافق وكان الجو صافياً وقد ظهر الشفق بالوانه من خلال اغصان السط المتفرقة على أكمة هناك وقد هدأ الجولا بهب الهواء الا لطيفاً لا يسمع له هبوب . واوت الطيور الى اعشاشها الا الخفاش فانه خرج يتطاير بسرعة

فانكأ محمد على بساط فرشه له خادمة وعيناه شاخصتان الى الافق يراقب تلونه فانزالت الائمة تقول من الرهو الى الكمود حتى خيم الظلام وأوقد الشيخ ناراً يهندي بها المارة الى ذلك المستقر . ففرق محمد في هواجسه حتى غاب وجدانه فنبه

ضبط مرَّ عند قدميه فوقف وأرسل نظره إلى الأفق عن بعد فرأى أشياء مارة تفرس فيها فإذا هي بضعة جمال بينها هودج وعليها أناس قد حجب البعد هبتانهم وأسرعوا في المسير فغفل له من جهة مسيرهم أنهم خارجون من مكة يريدون المدينة أو نحوها . فتوقع محمد أن يمرَّ بذلك المستقر كجاري العادة في من يرُّ هناك لعله يستطلع منهم شيئاً عن حال مكة قبل وصوله إليها فإذا هم قد وصلوا السير عن بعد ولم يعرجوا . فظنهم من طلائع جند مكة الساترين إلى البصرة فلما تباروا عن بصري ولم يرَ أحداً في انهم علم أنهم ليسوا من الطلائع . ولكنه عجب لخروجهم من مكة في ذلك الليل وأسراعهم في المسير في غير الطريق العام كما أنهم سائرون خلسة وود لو أنه يعلم من هم . ولكن الظلام حجب عنه فعاد إلى مواجئ

ولم تضيء ههنا حتى طلع القمر من وراء تلك الأكمة كأنه رقيب جاء للبحث عن لصوص الظلام فلما اطلَّ عليها بادرت إلى الفرار إلا ما كان منها قريباً ولم يستطع فراراً فاختبأ وراء التلال وفي أعماق الأودية ثم لحق برفاقه وتلاشى . وأشرق القمر وهو دون البدر وقد أبيض وجهه وسطع نوره فحرك ما في نفس محمد فتنادى خادمة فهياً العيين وودع الشيخ بعد أن أكرمه وركب فاصداً مكة

الفصل الحادي والخمسون

﴿ البغية ﴾

ولم يسر ساعة حتى اطلَّ على مكة وهي في منبسط من الأرض تحديق بها الجبال من كل ناحية فطلع على أكمة وتأمل بيوتها بضوء القمر فأول ما استلفت نظره منها الأكمة . وكان يتوقع أن يرى مضارب أو جنوداً في مكة أو حولها فلم يرَ شيئاً فواصل السير يريد منزل أم المؤمنين فمرَّ بالأسواق فلم يجد ما كان ينتظره من الحركة والحلبة والازدحام حتى وصل بيت اخيه فترجل عند باب وقرعه فاطلَّ عليه عبد حبشي* عرف من صوته أنه من عبيد أم المؤمنين فتناداه باسمه ففتح له الباب فدخل فرأى المنزل هادئاً فسأله عن أم المؤمنين فقال أنها خرجت من مكة بالأمس

قال طلي ابن

قال أم تسمع بما اجمع على

قال وهل سارط الى البصرة

قال نعم

فسأله عن سارمها فأنبأه بما كان فاستعاذ بالله وأسف لوصولهم بعد خروجهم
واراد العبد ان يحلّ جملة ويحيي له الطعام فقال لا تفعل اني خارج في حاجة وربما
اعود . وامر خادمتي ان يمكث هناك ريثما يرجع ويخرج وهو لا يزال بلباس السفر
فاصتأيت ام الفضل وهو يكاد يصير باذباله لسرعة مشيه فوصل منزله فراه مغلفاً
وقد أظلمت مصابيح فظن اهله تماماً فتروّد في ان يوقظهم او يصبر الى الفد ولكن شوقه
لرؤية اماء هوّن طويو انما ظلم . فدنا من الباب واسك بجلفته وشدها فرأى الباب
موصداً ففرقة قرعاً شديداً فاجابه البستاني فقال افتح افتح ففتح له فسأله عن ام الفضل
قال انها ذهبت الى فراشها واطمأ لم تنم بعد

قال قل لما ان ابن اخنك محمداً جاء

فلما علم البستاني انه ابن ابي بكر هرو ل الى مصباح اناره ودعا محمداً للجلوس
على المصطبة ودخل الى ام الفضل فاخبرها فاسرعت اليه وقد طمأ البغلة وصاحت
قبل ان يبيها قائلة ما الذي جاء بك يا محمد . وابن كنت

فجيب للهناء وقال اني قادم من مكة . ابن اماء

قال كيف نسا لي عنها وقد بعثت في استقداها

قال الى ابن

قالت ألم تبعت اليها كتاباً تستقدمها به اليك

فقال ومن قال لك ذلك

قالت لم يقل لي احد ولكنني رأيت رسولك ومعه كتابك دفعة اليها عند
المصر وكانت لا تزال ضعيفة فلم تنصر الى الفد بل ركبت حالاً وهي لضعفها لا تقوى
على السفر

قال ماذا تقولين هل سافرت اماء . انهم زوروا الكتاب عن لساني . من
تجاسر ان يفعل ذلك . من هو ذلك النذل الذي ارتكب هذه الخيانة

فلطمت أم الفضل بـداً بيد وصاحت ما تقول يا محمد
 فبهت محمد لحظة ثم قال من أي الطرق سافرت
 قالت سافرت في هذا الطريق المؤدي إلى المدينة
 فتذكر محمد الأشباح التي رآها خارج مكة وقال لقد لقيتها والله في طريقي ولكنني
 لم أعرفها يا لبيتي اعترضت ذلك الركب وهي معهم . ولو كانت صحبة ما خفت عليها
 بأساً ولكنك تقولين أنها مريضة فاخشى إذا أخرجوها أن تموت غيظاً . لا حول ولا
 قوة إلا بالله . . . من يا ترى فعل ذلك . . . وصمت برهة يفكر فلم يستطع إدراك
 سر الأمر ثم هب من مكاء وقال استودعك الله يا خالة وخرج
 فقالت تمهل يا محمد لتري

قال إن الوقت غين دعيني اتعقب الركب الذين رأيتهم في طريقي لعلني أظفر
 بها معهم . ولم يكدهم فخرج من الباب حتى وقف بفتحة كأن شيئاً اعترضه فعاد إلى أم
 الفضل فاستنهمها عن الحملة ووجهة مسيرها فتصت طيو الخبر مختصراً فوعى كل ذلك
 في ذهنه وعرج مسرعاً يلتمس الطريق الذي رأى أولئك الركب سائرين فيه
 فبر مجادمو في منزل اخذوا فرأه غارقاً في النوم من شدة التعب وقد أرسل
 الجمال إلى المربط للشرب والغلف فابقطه طامراً أن يهباً للرجوع فقبض وعيناه
 لا تتفتان من شدة النعاس . وعلم أهل المنزل نبيه . تعبد فجاءه قبح الدار يدعو
 إلى الطعام فاعتذراته لا يستطيع البقاء هناك

فقال ولكن الجمال تحتاج إلى الراحة واستهلك ريتا يهبط له طعاماً فاتبعه إلى
 لا بد له من الاستراحة هببة ريتا ترتاح الجمال فاذن بأعداد الطعام فجاءوه بما
 حضر فأكل وهو يستحث الخادم في التناهب للمسير . وبعد هنية ركب وسار بأسرع
 ما يمكن . وكان القمر قد تكبد السماء والجو قد صفا فالتبس الطريق الذي ظن
 الركب قد ساروا فيه ففقدوه رهلاً لا يتكلم ولا يسمع صوتاً إلا جعير الجمال مرة بعد
 أخرى . فانتصف الليل والخادم يتوقع أن يسمع أمره بالنزول للمبيت فلم يوافق منه
 إلا استخفافاً ثم رآه يطلب طريقاً غير الذي جاؤا فيه فنيه إلى ذلك محافة أن يكون
 قد اخطأ المييل . فاجابه أنه يعرف الطرق ولا يحتاج إلى تنبيه فسكت وظل سائراً
 فوصلا إلى مكان ينفصل فيه الطريق إلى شعبتين أحدهما تنصل بطريق المدينة
 والآخرى تنتهي إلى طريق البصرة فوقف هناك ووقف خادمة وكلأها صامتتان

الفصل الثاني والخمسون

﴿ قيافة الاثر ﴾

ولما المخادم فكان مع استغرابه ما رآه من غضب محمد وقلقوه لا يحسر على الاستفهام منه عما يقصد . فلما وقف عند المنرق وقف معه وهو لا يتكلم وكان من النباهة والذكاء على جانب عظيم طارفاً الاسفار خيراً بالطرق وفروغها وكان حاذقاً في القيافة وخصوصاً قيافة الأثر فلما رأى مولاه قللاً ادرك انه ينتش عن ضائع فاراد ان يستطلع ما في نفسه فقال ما بال سيدي طافاً الا يرى ان يامرني بمجدة أو دينها فلما سمع محمد كلامه اتعبه وتذكر مهارته في استطلاع آثار الاقدام فقال في نفسه لعل هذا الرجل ينفعنا باخباره

وكان المخادم كهلاً عركه الدهر وقضى معظم ايامه في الاسفار وتحمل الاخطار وكان طويل القامة سريع الحركة فلما بهالي بالنصب ولا يخاف الموت فقال له محمد ألك مهارة في قيافة الاثر يا مسعود

قال نعم يا مولاي اني من امهر القافلين

قال أترى على هذا الرمل اثرًا لمشاة او فرسان وهل تستطيع تخفى ذلك في ضوء القمر

قال نعم يا مولاي . وترجل عن راحلتي وجعل يتفرس في رمال الطريق كأنه يقرأ كتاباً او يضرب حساباً ومحمد واقف بالقرب منه يراقب حركاته فرآه يتقل بجفنة ولبابة فلا يضع قدمه الا حيث يرى انها لا تصد اثرًا سابقاً . وما زال يروح ويحيى . وهو يتفرس ويمش ويحسب ويقيس بأشباره واصابعه ويراقب جهة الاقدام او الخفاف او الحوافر ومحمد يجيب لما يدوم من خنث وحذافته حتى كاد يمل الانظار وادرك مسعود قلقة فقال (وهو لا يزال يتفرس في الرمال) لا تفجير يا مولاي من طول الانتظار فاني ارى ارتباكاً في الركب الذين مرط من هذا المكان وبأنهم وقفوا فيه برهة يروحون ويحيئون وربما تفارطوا وتحاوروا فاصبر هنيئاً ان الله مع الصابرين وعاد مسعود الى عمله وهو يمشي الترفضاء ويحيى رأسه يتفرس في الرمال حتى يكاد

يلامس وجهة الارض

قضى في ذلك ساعة ومحمد كأنه واقف على النار وربما خجل له لمظم قلقه ان الليل كاد ينقضي . وفيما هو في قلقه رأى مسعوداً اتصب بغنة وتجذب وتغلي كأنه تصب من القرفصاء والاعناب ومشي الى . فتقدم محمد نحوه وهو يقول ما رأيت يا عم قال ان الآثار تشابهت علي لا غلاطها ولكني علمت مع ذلك انها آثار فافلة صغيرة مولدة من بضعة جمال بينها جملان بهيران متوالين كأنهما جملان مودجا او نحوه ومعها عدة مشاة من الرجال أكثرهم يمدلون رماحاً لاني ارى آثار كماها يجانب الاقدام . ويظهر يا مولاي ان الراكب وقف هنا وردد في المسير على غير نظام وربما وقع بينهم جمل او خصام بذلك على ذلك ما في آثار اقدامهم من عدم الانتظام مع كثرة الابصار التي تراها متجمعة ولكن يظهر انهم انفقوا اخبراً على المسير في هذا الطريق

فقال محمد مالي ابن يودي

قال يودي الى البصرة او الكوفة

فسكرت محمد وقد ترجع عن انهم مراكب الذين رأهم في اول ذلك الليل عن بعد فاعمل فكرة وقد حدثت قصة ان ينجع تلك الآثار ف ان يشغله ذلك عن المهمة التي جاء بها الى مكة . فوقف صاماً يتردد بين ان يطلع مسعوداً على سر الامر او يظل على كتمانها ففكر في أمر ثم قال بغنة وما ظلك يا مسعود بالرمي الذي مروا به هل هو بعيد

قال 'ظنهم مروا في الحائل ائبل منذ اربع ساعات او خمس وهم سائرون على عجل

فقال وهل نقضنا اذا اقتنينا انهم يدرهم

قال اذا ظنهم في مسيرهم لا نقضنا يدرهم الا بعد يومين او ثلاثة . قل ذلك وقد مل من كتمان محمد عنه الغرض من هذا البحث فمؤول على استطلاع السر فقال هل يرى مولاي ان يفتلني على ما هم من هذا الراكب لعل استطيع خدمة له في شيء

قال يعني يا مسعود من هذا الراكب امر كبير . هل تعرف خادمنا العيوزاني

كانت في المدينة

قال نعم اعرفنا

قال انها جاءت مع فداء اموية الى مكة واقامت عند اخي ام المؤمنين فلما اجتمع اهل مكة على الميراث الى الصرة جاءها اناس بكتاب مزور عن لساني مدعونها الى المدينة فسارتا معهم في غروب هذا اليوم ولا ادري من تجراً على هذا الفعل ولا الى اين ساروا بهما . ولكن يظهر ما بينت فياضك انهم هم الركب الذين مرّوا بهذا المكان الليلة

فقال مسمود هل ترى ان اقنني اثرهم واثبتك بالخبر واذا استطعت اتقاها ففعلت فاستحسن محمد رأيه واثني على غيبتهم واوصاه ان يحفظ بنسبه وحرصه على الاسراع وودعه وركب هيجنه ونحوه الى المدينة

الفصل الثالث والخمسون

ترجمة علي على البصرة

اما الامام علي فانه خلا بنفسه بعد خروج محمد من غرته ففكر بما هم فيه فرأى من الحرم ان يحول عرصة عن الشام الى البصرة واستشار ابن عباس وغيره من كبار الصحابة فوافقوه على ذلك فدعا وجوه اهل المدينة وخطب فيهم فحمد الله واثني عليه ثم قال « ان آخر هذا الامر لا يصلح الا بها صلح اوله فاصروا الله بتصرمك ويصلح امركم »^(١) فرأى تناقلاً منهم وقد كان يتوقع نايبة وبغضة فلم يقل ذلك شيئاً من عزيمته . على ان جماعة من الصحابة قد سئلوا انفسهم للدفاع عنه واستحقاق الناس فصادوا الى نصرتهم فغضب النعمية التي تعاضاها لاهل الشام آخر ربيع آخر سنة ست وثلاثين وانضم اليه من شط من التوفيقين . وفيها هوفي الاستعداد قدم محمد بن ابي بكر واثناه بما كان من خروج عائشة وطلحة والريبر ومن معهم الى البصرة فقول على المسير واستجمل . وكان الناس يتوقعون ان يرسل الحملة ويبقى هوفي المدينة حفيظاً

لسطوتو فيها . فلما رأى ركب في مقدمة الحملة تقدم اليه عبد الله بن سلام فاخذ بصنابو وقال « يا امير المؤمنين لا تخرج منها فإله ان خرجت منها لن يعود اليها سلطان المسلمين »

فقال علي لا بد من خروجي
فأكملت الحملة واجتمعت في الرملة على ثلاثة اميال من المدينة (١) وهماك
مبياً للفرج ومحمد والحسن معهم . وكان الحسن في أثناء ذلك مشغلاً بهم
الحلافة عن كل شغل وربما مرت اماء في ذهنه فيصير نفسه الى ما بعد هذه المشاغل
اما ممد فانه ابتطاً خادمة وهو لا يدري ما صار اليه وشغل باله عليه على انه
سر له هو في تلك الحملة لعله يعلم شيئاً عن اماء

ولما اجتمع جند علي في الرملة جاءه رجال من طي واسد واضموا اليه جنده
فاثنت ازره على ان الحسن لم يكن راصياً بخروج والده في تلك الحملة بنفسه فلما
رآه عازماً على ذلك قال له « لقد امرتك فعصيتني فقتل غداً بعمية لا ناصر لك »
فقال له علي « امك لا تزال تخن ذن الجارية وما الذي امرني فعصيتك »
قال « امرتك يوم احبط بعثان ان تخرج من المدينة فقتل ولست بها ثم امرتك
يوم قتل ان لا تباع حتى تأتيك وفود العرب وبعده اهل كل مصر فانهم لن يقطعوا
امراً دونك فابيت علياً وامرتك حين خرجت هذه المرأة وهذا الرجلان ان تجلس في
بيتك حتى يصطالحا فان كان الفساد كان على يد غورك فعصيتني في ذلك كله »

فقال « اي بني اما قولك لو خرجت من المدينة حتى احبط بعثان
فوالله لقد احبط بأكما احبط و . ولما قولك لا تباع حتى يباع اهل الامصار
فان الامر امر اهل المدينة وكرهنا ان يضيع هذا الامر ولقد مات رسول الله
صلى الله عليه وسلم وما ارى احداً احق بهذا الامر مني فباع الناس ابا بكر
الصديق فباعته ثم ان ابا بكر استل الى رحمة الله وما ارى احداً احق بهذا الامر
منني فباع الناس عمر فباعته ثم ان عمر استل الى رحمة الله وما ارى احداً احق
بهذا الامر مني فجعلني سهياً من ستة اسمهم فباع الناس عثمان فباعته ثم سار الناس الى
عثمان فقتلوه وباعوني طائعين غير مكرهين فاما مقاتل كل من خالفني من

اطاعني حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . ولما قولك ان اجلس في بيتي حين خرج
طلحة والربيع فكيف لي بما قد لزمني اذ من تريدني ان اتردني ان اكون كالضبع التي
يحاط بها ويقل ليست ههنا حتى يحل عرقوبها حتى يخرج وإذا لم انظر فيها
يلزمني من هذا الامر ويهينني فمن عطف فلو فكف عنك يا بني» (١)

وفي الرقة اعتد علي حمنة فحملت ابنة محمد بن الحنفية صاحب الراية كما كان
عند عزمهم على الشام واعتدوا علي ناقة حمراء يركب عليها ويقود وراءه فرساً كبيراً

الفصل الرابع والخمسون

﴿ مسعود والعجوز ﴾

اما محمد بن ابي بكر فكان في شاذل عظيم من امر الحرب والاستعداد لما ولكنه كان
كلما خلا لحظة يذكر اسماء وكلما رأى قادماً من سفر طة مسعوداً فلما ابطأ مسعود
في القدوم خاف ان تكون اسماء اصببت بسوءه وكلما تصور ذلك هب جسمه
وافشعر بدنه وود لو انه يذهب في مهة الى البصرة او الكوفة لعله يلقاها او يسمع بخبرها
فيعلمن باله

فبات ذات ليلة في خيمته وقد تسلط عليه الناني للابتكار في ما هم فيه من النصر
للإمام علي وما يتوقعونه من البلاء . فمظم عليه الامر وتسلط عليه القلق ولاح له ان
يلتمس الذهاب بنفسه الى البصرة يستنفض اهلها لنصره الامام وعول ان يبكر في
الصباح لمخاطبة الامام في ذلك

ولم يكذب بخمس اجبانه حتى سمع صوتاً خارج الخيمة يشبه صوت مسعود فهب
من فراشه وناداه فاجاب ليك ودخل وهو لا يزال في ثياب السفر ودخلت في اثره
امراً لم يعرفها محمد في بادئ الرأي لضعف نور الصباح ولكنه ما لبث ان تبين
انها العجوز فبغت وتذكر اسماء فقال ما وراءك يا خالة ابن اسماء
قالت اظنها الآن في البصرة او الكوفة ولا ادري اين هي

قال وكيف تركتها وحيث وجدك
قالت جئت بأمرها وأقص عليك الخبر بعد أن استرجع . قالت ذلك وتهدت
من شدة التعب فخطب محمد مسعوداً قائلاً طاب لمن فيها يا مسعود وما الذي دعا إلى
تفبيك كل هذه المدة

قال طال عليّ الأمد في البحث عن ذلك الركب وكأنهم غيروا طريقهم ونعرجوا
في مسيرهم فنشأيت عليّ الجهات التي ظننتهم ساروا فيها ففضيت أياً ما في ذلك حتى
كدت أدرك البصرة ورأيت جيشاً أم المؤمنين عن بعد . ثم تحولت إلى طريق آخر
فعاثت على هذه الحالة ساعة وحدها فسررت بها فساءلها عن أماء . ومكانها فقالت
إن الركب ساروا بها ولا تدري أين هم وإن أسماء هي التي بعثت بها إليك برسالة لا
أدري ما مفادها وكنت عازماً على مواصلة البحث عنها فتمنعني فبحثت بها إليك
فجيب محمد لذلك والتفت إلى العجوز وقال قصي علينا الخبر يا خالة من أوله
إلى آخره

فجلست وكانت قد استراحت وأخذت في سرد الحديث فقالت أقص عليك
خبرنا منذ ودّعنا في المدينة وسرنا إلى مكة
قال كلاً فقد سمعت خلاصة ذلك الخبر من خاتمي أم الفضل ولكنني أريد الإطلاع
على كيفية خروجكم من مكة

قالت « كانت أماء مريضة عند أم الفضل وهي على مثل الجبر في انتظار أمر
منك في الانتقال إلى المدينة لأنها أصبحت بعد ما شاهدت من تألب أهل مكة على
الطلب بدم عثمان لا تستطيع الإقامة فيها . وكانت مع ضعتها كلما ذكرت عثماناً والحرب
والاستصالة تشدد وتنقوى حتى يجئ لي أنما تشتاق النزول إلى ساحة الوغي دفاعاً
عن الإمام عليّ لشفة اعتقادها ببراءة من دم عثمان . وكانت كما ذكرت ذلك تبكي
وتحرق أسنانها غيضاً لعودها في مكة بأرغم عها . ولشدة ذلك فيها خاصة يوم خروج
أخيك ورجالها من مكة يريدون البصرة أنساب بدم عثمان فأما أصبحت في ذلك
اليوم وليس بها بأس لئلا ما هاج من عيظتها رغبة في المسير إلى المدينة ولما
كان يقعد عنها عن ذلك قولك يوم وداعها أنك ستبني إليها من يستقدمها . فبعد
سفر أم المؤمنين يوم أو يومين جاء ما رسول بكتاب زعم أنه منك ولم تذكر أماء ثم

قراءته حتى هبت من فراشها وقد اشرق وجهها وارتقت اسرعها وقالت هما بنا يا حاله الى المدينة فان محمدًا بعث من يحملنا اليها . فنظرت الى الرسول فلم اذكر اني اعرفه فقلت له من الجبال والاحمال . قال هي خارج مكة وقد سرحتاها للراحة . فلم يعجبني كلامه لاني لم اعرفه وكانت خالتيك ام الفضل جالسة فساء لها عنه فقالت انها لا تعرفه . فخلوت باسما . وحذرتهما من المسير مع اناس لا نعرفهم . فابت الا الركوب حالاً وقالت انها لا تبالي أيما كانا وإنما غرضنا الخروج من ذلك السجن . فاطعمنا وخرجنا والرجل يسير امامنا وامام لا ترال ضعيفة من عقاب المحس التي اصابتها وكنت قبل خروجنا من بيت ام الفضل قد عرضت عليها ان يذهب ذلك الرسول فيأتينا بالجبال الى البيت فنركب من هناك فلم تستطع صبراً وأبت الا المسير حالاً فوصلنا الى المكان الذي اشار اليه الرسول فرأينا هناك هودجاً على جبلين وجمالاً اخرى وبضعة رجال لم اعرف احداً منهم فازددت خوفاً ونهيت اسماء الى ذلك فلم تنبه كأن رغبتهما في المسير اليك اسكرتهما واعمت بصيرتهما . فركبنا والحكم في ركابنا حتى اتينا مكاناً تنصل فيه الطريق الى شعبتين وهناك رأينا أناساً مسلحين يحظرون وصولنا وفهم شاب بلباس ثياب كاهن . سيدم فلما وصلنا المرق وقفنت جمالنا ودنا الرجال برماحهم فتحققنا وقوع الخيانة . وكان الليل قد سدل نقاء فلم نعرف احداً من هؤلاء فلما رأيناهم تحولوا من طريق المدينة الى طريق البصرة قلت الى ابن اسماء ذاهبون بنا . قالوا الى حيث نشاء . فهالني جلاء ذلك الجواب ونظرت الى اسماء بضوء القمر فاذا هي ثابتة الجأش مع ضعفتها وقد كنت واياها في الهودج معاً وحالما تحولنا في ذلك الطريق ازلوني من الهودج وحملنا على سرج واحد واركبوني الجميل الآخر فاطمعت بالرغم عني ومهددوني وأنا لا اجيب »

وكانت العجوز تكلم ومحمد مصغٍ يتناول مقول لسماع نمة الحديث وقد ظهرت البغظة على وجهه



الفصل الخامس والخمسون

﴿ اسماء في الاسر ﴾

ثم قالت العجوز « ومازلنا ساعرين مسرعين طول ذلك الليل فلما اصبحنا وتبينت الوجوه تأملت أولئك الرجال جيداً فرأيت بينهم واحداً تذكرت اني رأيت في جملة الخدم في بيت اخنك ام المؤمنين وتأملت الشاب الذي ذكرت لباسه الفاخر فاذا هو ذو جمال باهر وثقافة حسنة فظننته سيدهم ولم اعرف من هو ولكني سمعهم ينادونه « سعيد » ويظهر من قياثوا انه من اهل البصرة

« ولم تذكر نستريح جمالنا حتى جاء هذا الرجل الى هودج اسماء وانا انظر اليه من بعيد واسمع بعض كلامه ففهمت انه يسألها كيف ترى نفسها وهل هي لا تزال تفضل المدينة طاهلاً على سوام ورأيت منه احتفاء عظيماً بها فامر لها بطعام فاخر وجعل كل رجاله في خدمتها »

فقاطعها محمد فانلاً وهل أكلت من طعامه واجانته على كلامه

قالت العجوز « اعلم يا بني اني لم اشاهد في حياتي كلها لا في الجاهلية ولا في الاسلام فتاة ولا شاباً اثبت جاشاً من اسماء ولا اصبر على المكاره منها فقد كانت مع ضعفها وتيقنها بالمخطر الذي وقعت فيه ساكنة القلب لم يبدُ على وجهها شيء من دلائل الخوف والاضطراب وقد لحظت لما كان ذلك الشاب يخاطبها انها كانت تحب به كلام وان كنت لم اسمعه فقد ادركت على اثره في وجه الشاب عيباً وخوفاً منها . وكان المخطر زاد اسماء هبة وجلالاً وزادها الضعف حسناً وجمالاً . واما انا فقد كنت خافقة القلب مضطربة الحواس لا أكاد استطاع الوقوف لشد الا رتعاش وفي حاله في هودجها والاكل يلتمسون امرها وخصوصاً سعيد فقد رأيت يسهى في تلبية كل اشارة »

فقال محمد ثانية لم تجيدين يا خالة على سؤالي هل أكلت من طعامهم

قالت لا ياسيدي لم اشاهدها تأكل ولكني لا اظنها استطاعت البقاء بلا طعام

قال ثم ماذا

قالت العجوز « ولم نستريح قليلاً حتى نهض الركب وسرنا نظوي اليلاء ووجهنا

العراق وأنا لا ادري ماذا اعمل . واظن اساء . لو رأيت فائدة من الدفاع لعلت ولكنها وجدت نفسها عزلاء . لا سلاح معها وحولها رجال مدحجون بالحرب والسبوف والرماح وقد احسنت بسكوها ونصبرها ولكنني عجبت كيف استطاعت ذلك بدون ان يبدو عليها الخوف وقد كنت اراها كل مسافة الطريق ساكنة تماماً كما انها تكرر في طريقة للنجاة

« واما سعيد الذي هو السبب في ارتكاب هذه الخيانة على ما يظهر واظنه فعل ذلك رغبة في الحصول على اساء فقد رأيتُها ذاتاً مخاطبتها وربما هم ان يخاطبها بشيء في نفسها فاذا دنا من هودجها ارتج طيو فينظاها بامر آخر . فقضيتُ اليوم الثاني وأنا اود الدنو من اساء لعلنا نتشاور في سبل النجاة فلم استطع لانهم كانوا يحاولون الطريق يذنا عنق . فبتنا تلك الليلة واصبحنا وقد مللت هذه الحال فلاح لي اخيراً ان أنظاها بالصعب والمرض لعلمهم يسعون لي بمطجعتها وارى ما يكون فشكوتُ الاما في بطني وعجزاً عن الركوب فقال سيد القوم اتركوها في الطريق وسبرط . فصحتُ دعوني انظر اجتي دعوني اودعها . واخذتُ في البكاء فصحتني اساء فطلبت ان تراني فحملوني اليها فاجلسني في هودجها وارخت ستائر الكعب ومشى الكعب بنا فلما خلونا سألتها عما في نفسها فتحدثت وقالت « اعطي يا خالة اني في حال لم اقع حمري في مثلها وأنا اعلم الناس بما يحدث لي من الخطر ولكنني لا اري الخوف يجديني نفعاً ولا انا استطيع دفاعاً ولو كان في يدي عصا او سيف وكانا ثلاثة او اربعة ما حسبت لم حساباً ولكم عشرة مسلحون وأنا وحدي ولا سلاح معي . على اني سأرى ما يكون من امرهم فطالما كانت معاملتهم ايامي على هذه الصورة اساءهم واسير معهم واذا تغيرت تغيرت والظاها انهم سائرون بنا الى معسكرام المؤمنين واظن هذا الشاب المغرور من جملة رجالها وقد لاح لي انه طامع بي فليطمع ما شاء اما انا فاني سائرة معه حتى اجد لي سبيلاً انجو به ولكنني احب ان ابلغ حيبي محبداً شيئاً في نفسي فكيف العمل » فقلت لها اما ابغض اياه فان هؤلاء الرجال يودون الخلف مني فاذا انا نظاهات بحب الخلف عنهم خلفوني وساروا فقولي لي ما تريدن . فقالت ساكتب لك ذلك في كتاب توصليو اليه قلت حسناً . وسرنا هنيهة ثم وقف الكعب وجاء ذلك الشاب فرفع الستر عن الهودج وقال لي انزلي من هذا الهودج ان الجمل لا يستطيع حملك فشكوتُ له الصعب

والمرض . فقال لا يعني . قالت له اماء تهل ريفاضل الى مكان نمتريج فيه جميعا
فاذا لم تقدره الخالة على الركوب معنا تركناها او اوصلناها الى قافلة نسير بها . وكانت
اماء تنكم والشاب ينظر اليها وقد هام بها ولم تزده انفسها الا حبا وكأنها سمرة
فاصابه خيل فقال حسنا فوصلنا في المساء الى مكان فيه آبار وشجر فنزلنا جميعا
ونصبوا الخيام فطلبت اماء الخلوۃ بنفسها فتركوها واجلسني خارج خلوتها لتلا يدها
احد ففضت هناك ساعة حتى اشغل بالي عليها ثم خرجت اليّ وقد احمرت عيناها
وتبللت ويدها منديل قطعة من قميصها دفعت اليّ وقالت احتفظي بهذا الكتاب وادفعيه
الى محمد اذا لقيته . فتناولته وخأنته بين انطلي واذا احاذر ان يراني أحد . فقالت
لي اسري في المسير الى محمد ما استطعت

« فنظرت الى الاق فرايت قافلة كأنها قادمة نحونا فطلعت ان ركنا سير حل قل
وصولها خوفا من عيون الرقباء . فظاهرت باني لا استطيع الركوب ولا المشي فلما رأى
اصحابنا القافلة قادمة جميعا الى للرحيل فطلب اليّ ان اركب او امشي فاعتذرت فقالوا
اذا نبين هنا . قلت ابق ولكنني طلعت ان اودع اماء فاذهبن لي والحمل عليّ بالاسراع
فضميتها وقبلتها مرارا وبكت وبكت ولكنني سمعت منها كلاما عراقي حتى فراقها
وطأن قلبي عليها فقد قالت « لا تخافي عليّ يا خالي فاني ارجو ان يكون اسري هذا
سيبا في خدمة عظيمة اقوم بها للامام علي ومحمد وعلى الله اتكالي » ولم أكد اجبها حتى
اقلع حملها وساروا في ثلثت اليه ونسبوا ابي . فظللت وحدي انظر وصول القافلة
فاذا هي غير قادمة نحوي ل سائرة في طريق آخر فنهضت امي في اثرها وما زلت
اسير تارة وحدي وطورا اعطى راعيا او ماشيا وطورا اركب واوتة امشي حتى
لقيت مسعودا على ما قصة عليك »

الفصل السادس والخمسون

﴿ كتاب اسماء وتوارد الخواطر ﴾

ولم تفرغ العجوز من قصتها حتى نعتت ومحمد شاخص اليها فلما فرغت من

الحديث قال لما اين هو كتاب اسماء هاتو

فمدت يدها الى جيبها واستخرجته وكانت قد خاطت بباطن ثوبها كرقعة ودفعته اليو فتناولها فاذا هو قطعة من قميص اسماء فاستأنس به وادنى المصباح منه ونظر فاذا فيه كتابية بمداد احمر مجرف لم يألئه لقريو من الشكل النبطي الذي كان يكتب به عرب الشام قرأى قراءته تحتاج الى زمن . فاروماً الى مسعود ان يذهب بالعجور الى مكان تستريح فيه واغلق خيمته وجلس الى جانب المصباح وطفق يقرأ فاذا فيه :

« اكتب اليك هذا بمداد من دمي اذ لا ميل لي الى غيبي وانا في صحراء قاحلة وحولي اناس لا ادري غرضهم من اسري على انهم لن ينالوا مني وطراً . وقد طمت انهم سائرون بي الى معسكر ام المؤمنين بالعرة واظنهم من رجال تلك الحملة . لا تخرج يا محمد ولا تخف على اسماء فانها مجول اليو لا تخشى بأساً

« وانما اكتب هذا اليك لاني بكالي وادعوك الى عهد نعمتي بيننا لمجملته بذراً طيننا على ان تكون اعمالنا وحواسنا وقولنا كلها مكرسة لخدمة امير المؤمنين ابن عم الرسول (صلعم) المنهم ظلماً بدم عثمان واما طنت اعلم الناس ببراءتي . فعلينا القهام بصرتو فاذا فرغنا من هذه الشؤون واستقام الامر نظرنا في انفسنا واجننا داعي قلوبنا « هذا ما ادعوك اليو وارجوان تعاهدني طيبو ولا اضلك ثمالي فيو واما منذ الآن ساعية في هذا المهمل وارجوان يكون اسري هذا مساعداً على هذه الخدمة فانتم تعمل من جهة وانا من جهة اخرى ٠٠٠٠ سالاني ام المؤمنين واقتنعا ببراءة الامام من دم عثمان ٠٠٠ آه يا ليتها كانت معنا ليلة وجدناه يبكي عند قبر الرسول (آه من تلك الليلة كم لقيت فيها من الاهوال) وبسمناه ويندب الاسلام ويعتوف وقوع الفتنة لعلها تعتقد براءته . اقول ذلك وافعله اذا قطعت العقبة الوعرة التي اراها في سبيلي واذا مت فاني اموت شهيدة العفاف والغيرة على الاسلام والصرة للامام علي رجل هذه الامة اقول ثانية اني ادعوك لي التحالف على نصرة الامام علي والانتقطاع الى ذلك بكل حواسنا وعواطفنا فاذا فرغنا منه على غير وفوز فكرنا بانفسنا والعلام

« اسماء »

ولم يفرغ محمد من تلاوة ذلك الكتاب حتى امتلأ قلبه حمية وطفح اعجاباً باسماء

واستغرب تواردها الخواطر فيها وبينه فأم يقالك عن تعجيل كتابها والثناء على حبها
ولكنه ما زال خائفاً عليها من غائلة ذلك الأسر
وقضى بقية ليلته في مثل هذه الهواجس وقد مال بكليته إلى المسير في مهمة إلى
العراق لعله يلقي أساء فيثبدها من الأسر

الفصل السابع والخمسون

﴿ عثمان بن حنيف ﴾

فأصبح في اليوم التالي وخرج يلتبس فسطاط الامام علي لعله يسمع خيراً جديداً
فدخل عليه فرأى في مجلسه جماعة من الصحابة يتحدثون في مام فيه من الاحوال
ويشاورون في ماذا يعملون والامام مقلب الوجه يفكر في ما قام من التفتة
وفيما هم في ذلك دخل بعض الخدم مبغوثاً فسأل علي ما وراءك
قال ان في الباب ركبا قادمين من البصرة وفيهم رجل ملثم
قال فليدخل كبرهم

فدخل رجل ملثم الوجه حياً الامام علياً وكشف عن وجهه فاذا هو احاط
الوجه أملأ لا شعر في لحونه ولا شاربه ولا حاجبه ولا اشعار عينيه (١) فأمكن
علي وتأمله وقال من الرجل

قال هو عثمان بن حنيف عاملك على البصرة

فبغت الامام وقال وما الذي اصابك

قال بعثني بلحية فجئتكم امرد (٢)

قال علي أصبت اجراً وخيراً احك لنا خبرك وما دعا الى تيف شعر وجهك
علي ما نرى

قال ه بعثني يا مولاي عاملاً على البصرة فلقيتني الناس وسروا بخلافه الامام علي
ثم ما لبثت ان سمعت بحدث اهل البصرة بأمر حدث وإن كتباً وردت علي بعضهم من
ام المؤمنين تدعوم بها الى الاخذة رشتان وانها قدمت من مكة واقامت في الحفير

على بضع ليال من البصرة^(١) تنتظر الجواب فهي الامر كثيرا فبعثت رجلين احدهما رجل عامه والاخر رجل خاصه يسألانها عما تريد فعاذا اليها واخبراني ان ام المؤمنين وطلحة والزبير مصرون على الطلب بدم عثمان . لك وان الاخيرين لم يهاياك الا كرها . فشاورت رجالي فقال بعضهم تنصرم وقال آخرون نردم ورأيت لم نصراء في البصرة ففتت اتساع الحرق ثم طعت ان عاتفة جاءت المريد وهو السوق خارج البصرة ومعها رجالها . فخرجت اليها بنفسي ومعني بعض اهل البصرة من يرون رأني فلما اجمعت الى المعسكر سألناهم عن غرضهم فوقف طلحة وتكلم بنضائل الخليفة عثمان واحث على الاخذ بناؤهم ثم قام الزبير بمثل ذلك فصادق رجالها على اقوالها فقلت لما بايعتم عليا وجئتم تقولون . فوقفت عند ذلك ام المؤمنين والتفت خطابا حرسيت فيه الناس على الطلب بدم عثمان وقالت قولاً كثيراً وكان لكلامها تأثير شديد على كل من سمعها حتى ان جماعة كثيرة من رجالي مالوا اليها . ثم اشتد الحاج بين الرجال واشتدت الحرب فقتل من رجالي جماعة كثيرة فتنادينا الى الصلح وتواعدنا على ان يبعثوا الى المدينة فان كان طلحة والزبير اكرها على البيعة سلمت اليهم الامر والا فانها يرحمان فبعثت اليهم وقدافي ذلك

فقال علي وقد اجاههم اهل المدينة انها بايعا طائعين قال عثمان سم يا مولاي جاءم الوفد بذلك فأنكروا وبعثوا اليها وكانت ليلة ذات رباح ومطر سارط فيها الى المسجد وقت صلاة العشاء فأرسلت بعض رجالي لا ترى ماذا يريدون فقتلهم ثم جاؤا اليها واخرجوني وتنقل لحقي وشعر حاجبي واشفار عيني كما ترى فنجنت بالخير كما وقع

فقال علي انا لله وانا اليه راجعون وكيف اهل البصرة الآن

قال ان سوادهم مع ام المؤمنين فاطرق علي وكل من في مجلسه سكوت يتعظرون ما يبدو منه فظل ساكنا حتى شعر الناس انه يريد ان يخلو بخاصته فخرجوا جميعا وفي جملتهم محمد بن ابي بكر وقد ساءه تعاظم الامر الى هذا الحد ولم يكذبك خبيثة حتى جاءه رسول يستقدمه الى علي فاسرع اليه فلم ير عنده الا محمد بن جعفر فدخل وحياه وهو يتوقع ان يسمع منه

امراً جديداً فلم يكلمه حتى جلس على وسادة بجانب محمد بن جعفر وبه جلوس
خاطبة الامام علي قائلًا والامتناع ظاهر وجه « اتدري لما دعوتك »
قال خيراً ان شاء الله

قال قد سمعت ما فعلت اخذك وظلمة والزبير في البصرة فقد ساووا عاملنا وحضوا
الناس على حربنا لاننا على زعمهم قتلا عثمان واست تعلم ان اهل الكوفة حزب كبير
بهنا استفارم ليكون معنا في هذه الحرب اذا كان لابد منها وقد اتدبتك است
وان اخي هذا لتسير الى ابي موسى الاشعري عاملنا على الكوفة لتستفران الناس
لنصرة الحق

فوقف محمد وقد امتلاً حجة وقال انا طوع امرك وان الدفاع عن الحق ونصرة
امير المؤمنين فرض واجب علينا
قال علي تأمبا واخرجنا الى ابي موسى ^(١) وقرأ هذا الكتاب على الناس وادعوا
الى الاصلاح فاننا لا نريد سواء واني انا هب للسير في تركنا واستعين الله في نصرة الحق
وكبح حجاج الباطل
فخرجوا وتأهبوا للسير فلتركها سائرين في هذه المهمة ولعد للبحث عن اسماء

الفصل الثامن والخمسون

﴿ الفتك باسماء ﴾

اما اسماء فقد كان السبب في اسرها ان احد كبار اهل البصرة من جاوذا مع
ابن عامر الى مكة شاهدها ساعة وقوفها في العريش ومحاطتها مروان بنلك
المجسرة مع ما كان يغفل في عيها من المهابة والكمال فوقع من نفسه موقعاً عظيماً
وطلق قلبه بها . وكان من اهل اليسار والبخ فلما انتفض المجلس سأل عنها فاجبه
بعض الذين اطلعوا على حديثها سرّاً من خدم ام المؤمنين انها مخطوبة لمحمد بن
ابي بكر وانها باقية في مكة تنتظر امره بالذهاب الى المدينة فحدثت عنه ان يخطبها

وبغويها بحو ويتزوجها وهو يعتقد انها لا تلبث ان ترى جماله وتعلم بجاهه وغناه حتى يهواه وتضله على محمد فيحظى بها ويتم من محمد لقيته على عثمان . فاصطنع ذلك الكتاب عن لسان محمد وبث به مع بعض رجاله حتى اغوى ابناء على الخروج من مكة وكان هو في انتظارها مع بقية رجاله عند مفرق الطريق فدار بها كما تقدم وهو نارة يستعطنها بالزين وطوراً يهدا بالسادة ريثما يصل بها البصر ويحل له في بادىء الرأي انها مالت اليه لولا آتية من سكوتها وتصبرها ولم يعلم انها انما فعلت ذلك حزمًا وتعقلًا وكان يود التخلص من العجز فتيسر له ذلك على اهون سبيل كما تقدم . ففضى ايامًا في سيرة وهو يمرج في الطرق روعة وجنة يلمس رضاها قبل الوصول الى البصر فلما دنا من البصر عرج في طريق ينتهي بالكوفة وكان له فيها منازل وصنائع

واما هي فكانت تنكر في طريقة اللجاة وكثيرًا ما حدثتها نفسها ان نجافية وتظهر احفارها له ولكنها كانت تعود فتصبر نفسها مخافة الفتك فلما صار على مقربة من الكوفة لم يرها بدءًا من الوقوف على عزمها فصبر حتى سدل الليل نقابة وجاءها وهي مستلقية في المودج التماسًا للراحة وقد عظم عليها ما لاقته في ذلك الامر وكان بجانب المودج نار او قدوها للاستضاءة فرفع ستار المودج فانبثت ابناء وجلست ولما رأت سعيدًا امتعازت بالله اما هو فحياها بلعاف وقال لها ألا تظنين البصر خيرًا من المديبة يا ابناء

فاطرفت ولم تحب فجئنا سعيد ابناء ومد يده الى معصمها واراد ان يمسكه ويتكلم وهو ينظر الى وجهها وقد انعكست عة اشعة لميب النار . فلم يك يسدها حتى اجملت وجذبها من بين اناملو وبالت في الاطراق

فقال لها ما بالك يا ملجئة ألا تزالين تجافيني طالت تعلمين اني أسير هلاك فهل انت خافعة ان لا تلاقيني منزل محبك الاكرام الذي يلين لك . ولكنك لا تلبثين ان تنزلي في بيتك بالبصر او في الكوفة حتى تشعري بالعادة انني تنتظرك هناك ما لا يتأتى لاحد سواي أن يهلك ايامه هناك تجدين الخدم والحشم والدور والمنازل والحمل والماشية والملابس الفاخرة وكل اسباب الراحة . . . ألا تمنين عليّ بنظرة تدلّ على رضاك

وكان سعيد يتكلم وعينا اسماء شاخصتان الى تلك النار الموقدة بجانب هودجها ولا يحاكها في ذلك الليل الهادي. الا تيران قلبها المثقة حباً لحمد وغيرة على الاسلام وقد اردت انتقاداً وحدة لما سمعت من كلام ذلك الشاب وارادت ان توبخه وتردعه ولكنها علمت انها اذا فعلت ذلك عرضت نفسها للخطر السريع فتهدت وظلت صامته

اما هوفظن نهلهما دليلاً على تأثرها من كلامه فابتسم وحسف نحوها ومولا يزال جاثياً ومد يده ليمسك اناملها ويمّ بالكلم فجذبت يدها منه ونظرت اليه والشرر يكاد يتطاير من عينيها ثم اعرضت عنه وهي تحرق اسنانها. فابتسم هو وهش وقال بنغمة الحب الوهان " بالله ألا رحمت قلباً قيدته بسلاسل هواك . ألا رمتني للفتنة . ألا بردت لظاء بكلمة . قولي يا اسماء . . . قولي انك راضية بي عبداً رقيقاً واما اكرس حياتي لخدمتك . والله اني لم اقل هذا لأحد قبلك تعطيني بالله وارقني كفى سكوتاً واعراضاً اعلمي يا مليحة انني انما اريد سعادتك وإن الله ساقني اليك لحسن حظك وحظي . وإن ان ابي بكر ليس اهلاً لك ولا هو يستحقك ولسوف ترين ما يجعل به اذا احتدم القتال وتصادمت النبال "

فلم تعد اسماء تستطيع صبراً على ذلك بعد ان سمعت التعريض بمحمد وحديثها نفسها ان تصنع على وجهه ولكنها كتمت غيظها بالرغم عنها وعمدت الى توبيخه فقالت بهتم واطي . وصوت رخيم " اني لا اراك اهلاً للزوال "

فسر سعيد لكلامها وإن يكن توبيخاً لانه رجا ان يتصل بالحديث معها الى استرضائها فقال " وما ادراك يا فانتني اني غير اهل لذلك "

قالت وهي تنظر اليه نظر التوبيخ " لان الرجل الذي يقطع الديافي والفتار طلباً للنار او نصرة للحق على ما تزعمون لا يرتكب جريمة التعوير ومن كان حرّاً صادقاً يلقى الرجال في حومة الوغي لا يحاطب فتاة لا يعرفها بل هو يعلم انها تحب سواء "

فحنى الرجل رأسه عند كلامها وقال " لقد صدقت ايها العذراء اني ارتكبت التعوير ولكنني لم افعل ذلك في عمري كولو غير هذه المرة وما فعلته الا الفساً لقرينك اذ لم يكن لي اليو غير هذا السبيل فانا استغفر منك عن هذا الذنب "

قالت " انك انما اذنبت الي غيوري فان كنت رجلاً فالتني محمداً واستغفرت فاما

ان يغفر لك وإما ان ينازحك ففري من هو الرجل «
فجلس سعيد ودنا منها حتى كاد يلامسها ومد يديه فقبض بواحدة على زندها
وجعل الأخرى على ثقابها وأراد ان يترعه . فجذبت يدها منه ووقفت وقد اخذ
الغضب منها مأخذاً عظيماً وقالت « اجتمع عني ولا يغرنك مكوتي ومرضي والله اذا
مددت يدك اليّ كسرهما نصفين »

فضحك سعيد وقال « لا تنفسي يا حبيبي فاني لم افعل شيئاً بغضبك ولكنني
استرضيك واستعطيك فافهمي من غفلتك ولا ترفضي نعمة انتم الله بها عليكم »
قالت وهي تعثر للخروج من المودج « انا كنت نزع انك تريد رضاي فاعلم
انك تطلب عيماً . واذا حدثت بك نفسك بوطر تبغي فاعلم انما تحدثك باطلاً وان
احترافي في هذه النار أيسر عليّ مما تدعوني اليه »

فقال وقد حار في امره وهو يكظم غيظته ولا يزال يرجو رضاها « نهلي يا حبيبي
وتبصري في ما اقول لك ولا ترفسي النعمة التي اعرضها عليك باسم الحب »
فقالت بغية جافية « لا تنطقي بالحب فانك تتكلم باطلاً ولا تستعظم قوتك
وتستكثر رجالك فان ذلك لا يبرهني »

الفصل التاسع والخمسون

﴿ الاصرار على الفتك ﴾

فلما رأى منها هذا الاصرار وقف على قدميه بغيةً وصاح فيها صيحة دوت لها
الآودية في ذلك الليل الهادي وانتهرها قائلاً « اراك قد بالغت في القه واستغنيت
في وانت تعلمين انك اسيرة بين يديّ » قال ذلك وأمسك يديها وجذبها اليه .
فشعرت كأن قوتها تضاعفت ونسيت ضعفها ومرضاها وانقضت من بين يده ورفسته
برجلها فارسلته سطوحاً على الارض واعرضت بوجهها عنه

فهب من وقعته وصاح برجاله فجمعهم حول اسماء وقبض بعضهم على يديها
والبعض الآخر على كتفيها فتملصت من بين ايديهم وصاحت فيهم قائلة « عار عليكم
وانتم رجال مسلمون ان تجهروا على فتاة عزلاء لاسلاح مها »

فصاح سعيد فيهم « قيدوا هذه الخاتمة وشدوا ساعديها »
 فقالت « ما الخاتمة إلا أنت يا نذل الرجال أظن اليهود تقيده شيئاً من حريقي »
 قالت ذلك ومثت بعضاً من عصي المودج استلها وهجمت على الرجال فنزلوا من
 أمامها ثم عادوا وتكاثروا عليها وفيما هي تحاول مدافعهم عثرت رجلها بفعل الجبل
 فوقعت على الأرض فاسرعوا إليها وحاملوها كما تحوم النور حول الجثة وشدوا
 وثاقها وهي لا تبالي بما يفعلون وسعيد واقف ينتفض من شدة الغيظ وأمر أن
 يلقوها في المودج ويربطوها به ففعلوا

فلما أقيمت أسماء بالمخاض القريب تفرقت الدموع في عينها وصاحت « آه
 يا محمد أين أنت ... يا ويل الانزال اللئام الذين لا ذمة لهم ولا ضم »
 فلما سمعها سعيد نادى محمداً ضحك ضحكة بخالطها ارتعاش الغضب وقال
 « لا تذكرني محمداً ولا ترجي نجاة من هنا الأسر » ثم أمر رجاله ففروا فدنا منها وهي
 في تلك الحال وعاد إلى الملاينة والملاطفة فقال « كيف ترين نفسك الآن ألا ترجين
 عن غيك وتقبلين بنهيي . ها أنك أسيرة بين يدي وحياتك رهينة أشاركني ألا إذا
 اجبت سؤالي فتصيرين أنت الأسيرة الناهية . قولي أنك راضية بي . قولي أنك تخمينني »
 فصاحت به قائلة « لا لا لا احبك اذهب عني يا شيطان ولا ترني وجيك »
 قال « ألا ترالين على عنادك وروحك في قبضة يدي »

قالت لا نهديني بالموت فأنه خير ما أتوقعه ... اقتلني وإرحني من هذه الحياة
 قال لا لا اقتلك بل اذيقك العذاب ... لا بل اعيد النصح ثانية وأدعوك
 إلى حبي . قال ذلك وجلس عند رأسها ومد يده إلى شعرها ولم يكذب بلسه حتى اقتصر
 جسمها وانفضت وكان الوثاق محلولاً من بعض أطرافه فتملصت يدها فاستخرجت
 ذراعها ودفعت يده بصفت فخاف أن تنك به فجرد حسامه وهوم به عليها فوقفت
 وذراعها الأخرى لا تزال مشدودة فاخضت السيف من يده فقطعت به بقية الخبال
 وأغارت عليه ففر من أمامها ونادى رجاله فاسرعوا إليها فاصابت أحدهم
 بضربة على عنقه ففزع فتيلاً ومثت بالباقيين فتكاثروا عليها وهما قتل بالرمح
 والحراب والسيف فاصابهم أسنان في زندها فوقع السيف من يدها ووقعت على الأرض
 مغشياً عليها من شدة الألم فاسرعوا إليها وكنفوها وهي لا نعي . فلما رآها سعيد غائبة

امر بالماء فرفوها به حتى افاقت . فقال اتركوها الآن ربنا نستريح وهو بحسب انها ستذعن لامر . فسكت عنها برهة وهو جالس بالقرب منها يعال نفسه برضاها بعد ما اصابها من الضنك

واما هي فكانت لا ترداد الا نفرة منه وبأساً من النجاة ولما رأت ما هي فيه من الخطر الاكيد لم عابها الامر فلم ينالك عن الكاء والشهيق فدنا سعيد منها وقال بنعمة الظافر « والآن يا اسماء كيف ترين نفسك » قالت لا اراني الا ازداد نفوراً منك اذهب من امام عيني قال يا للعجب ابعد هذا كلوا ترالين ترجين خلاصاً قالت « لا لا ارجو خلاصاً ولا اطلب غير الموت فانه غاية ما ارجوه ولكن آه » قالت ذلك وعادت الى البكاء وهي تقول « ابن انت يا محمد . . . ارني وجهك قبل المات ولو لحظة »

فلما سمعها تذكر محمداً اندت الغيرة في قلبه وعول على الفتك بها فجرد حساه ووقف فوق رأسها . فنظرت الى السيف وضوء اللهب يتعكس عنه فبلغ فايقنت انه قاتلها لا محالة فصاحت « ابن انت يا محمد يا ابن ابي بكر زودني بنظرة منك قبل المات »

فقال سعيد « انظرين اني اقلبك الآن لا لا تعلمي نفسك بهذه الامنية فاني ساميتك صلماً » وأشار الى بعض الوقوف من رجاله فرفوها عن الارض واوقفوها الى شجرة من السبط الصقل ظهرها بها وشدوها اليها شداً وثيقاً وكان في جزع الشجرة تنوات واشواك اصابت بدنهما فألمتها لكنهما لم تكن تنالي بشيء في جانب ما شعرت به من الشوق لرؤية محمد في آخر ساعة من ساعات الدنيا عندها فاسفت كيف انهما سنفارق الحياة ولا تراه . وكانت تفكر في ذلك وهي تنظر الى ذلك الافق المظلم الذي لا يبرق فيه غير تلك النار الموقدة بين يديها

اما سعيد فتركها مشدودة الى السطة وذهب هو ورجالها يلتمسون الراحة او المنام وظلت هي مصلوبة تنظر تارة الى الافق وطوراً الى السماء وآونة الى النار امامها وهي غارقة في بحار الموحش وحدثتها نفسها ان تلين لسعيد وتعد خيراً ربما ترى ما يحيي به القدر ولكنها علمت انه لا يمكن من رضاها بالكلام فقط فعادت الى هواجسها

وهي تنظر الى النار فرأيتها قد اخذت بالخبود فخافت ان تنطفئ ولا يبقى ما يؤانسها . على ان خودها جعل الافق أكثر ظهوراً لديها فقد كانت لا ترى فيه الا ظلاماً دامساً فلما خدمت النار ظهر في اطرافه بعض الاشباح من الشجر او اللال وكانت لنرط قلبها تحسب الاشباح اناساً قادمين لاقاها

انفصل الستون

﴿ باب الفرج ﴾

وفيما هي تنظر الى الافق رأت هناك اشباحاً تحرك ففترست جيداً فاذا هي هجن وافرأس قليلة عليها رجال فاستأنست بهم وهمت ان تسترخم فمنعها الله وعزة النفس فقالت في نفسها « اذا كان لي نصيب بالحياة اتى اولئك الركب لا تقاذي بالهام من الله »

اما سعيد فقد كان ساهراً وهو يتوقع ان تسترضيه اسماء فرأى عند الافق اشباحاً وعلم ان ناره ستهديم اليه فامر باطائها فلما رأت اسماء الرجال يهيمون باطفاء النار ايقنت انهم خائفون فقالت في نفسها عسى ان تقع عاقبة خوفهم على رؤوسهم واستبشرت بالفرج . على انها لم تكذب فعملت حتى رأت سعيداً قادماً نحوها والحسام مجرد في يده وصاح فيها وهو يحسبها لا ترى احداً قادماً وقال « هل لان قلبك الان ام ماذا » فلم تجب . فقال « قولي . . . اجبي . . . ان حيانك بين شفتيك فاما ان تصيري سعيدة واما ان يجرى دمك على جزع هذه النجعة . . قولي حالا »

فغيرت بماذا تجيبة وهي تعلم انها اذا اجابت بالرفض ضربها بالحسام وهي مندودة الوثاق فرأت الماطلة خور ذريعة لتباعها ربنا يصل اولئك الركب عظام ان يبعدها . فلم تجب

فادرك سعيد قصدها وخاف اذا انظر جوابها ان يصل الركب فشرع الحسام يده وصاح بها « قولي حالا » فاما ان اسمع صوت قولك واما ان تسمعي صوت حسامي على عنقك »

فعظم عليها هذا التهديد وهجرها التعلل فقالت « لا لا لارضى فاضرب عني والله يحزي العالمين ثم صاحت آه يا محمد يا ابن ابي بكر اين انت آه لو تعلم مصير اسماء »

فلما سمع سعيد رفضها نزل بالسيف على عنتها ولكنة لنشلوا واضطربوا حاد سينه قليلاً فوقع على كتفها ولم يصب غير الحبال وهي مجذولة من الياف الخيل فقطعها ولم يزد فاتحل وثاق اسماء وهي لا تدري وكانت تتوقع الحيام فلما رأت وثاقها محلولاً ظنت نفسها في منام ولكنها ما لبثت ان ادركت انه اخطأ الضرب فقولت اليه وهي كالاسد الكاسر لفرط غيظها منه فلما رأى انفلاقها زاد فشهة وصاح برجاله فتكاثروا حولها بهراهم وسوهم فصاحت فيهم « اما فيكم من يرى الذمام ويخاف من الله » قالت ذلك ولاحت منها التفاتة فرأت الركب قد اصبحوا على قارب قوسين منها ولم تكذ تصيح تلك الصبيحة حتى سمعت صوتاً كالرعد القاصف وقع في اذنها وقوع الماء على قلب الغائبان ألا وهو صوت محمد بن ابي بكر يقول « لييك يا اسماء لقد جاءك الفرج اخساً يا ابنال »

أما هؤلاء فلما سمعوا صوت محمد ورأوا معه رجلاً آخرين حولوا وجوههم واركبو الى الفرار بما استطاعوا حملة ولم تنص هنيهة حتى غابوا عن الابصار وقد تركوا اسلاهم وبعض جمالم والمودج

ولا تسلم عن اسماء وما حل بها لما سمعت صوت محمد فانها لبثت مدة صامتة تحسب نفسها في منام حتى دنا هو وناداه « اسماء » فقالت « محمد آه اين كنت يا حبيبي أعمل الله بعثك بحجرة لتجاني ام انا في منام »

قال « بل انت في يقظة . ما الذي اصابك . هل فيك من بأس »
قالت لا بأس لي غير جرح خفيف في زندي اصابني وانا اذانع هؤلاء اللثام ولولاه لقتلهم جميعاً ولكن السيف سقط من يدي وعثرت بعقال الجمل فشدوا وثاقي .
قالت ذلك والتفتت فرأت مع محمد رجلاً آخر لم تعرفه ففجعت لما ابدته من عواطف المحب فأدرك محمد ما بها فقال « لا تستعري رفاقي فان هذا محمد بن جعفر ابن اخي امير المؤمنين وهؤلاء خدم سائرون في ركابنا الى الكوفة وقد جئنا بهمة في خدمة امير المؤمنين فاجلسي الآن واسترعي وقصي علينا خبرك » فجلست وجلسا

ومحمد ابن جعفر يحب لما يبدو من همة تلك الفتاة وكان قد سمع من محمد عن حديثها وغيره على الامام وعلى الاسلام فاحبها بمجرد السماع فلما رأى فيها تلك الحمية سر لسامع حديثها فجلسوا وقصت اسماء ما جرى لها وما شاخصان يزادان اعجاباً . وقص محمد ما تم له بعد مجيء كتابها وقصوا بقية ذلك الليل بالاحاديث وقبل الفجر أغمضت اجفانهم ساعة فاستراحوا فلما اتلج الصبح وافاقوا من منامهم نظروا الى ما حولهم فاذا ببقايا المارين وفيها كثير من الزاد والآنية وجثة ملقاة عن بعد فنظر محمد اليها وسأل اسماء عنها فقالت انه احد اولئك الطفام ادركته بضربة ذهب بجيأتو

فقال يورك فيك فمن الآن ذاهبون الى الكوفة وهي على مقربة منا فهل بنا اليها نقضي مهمتنا ثم نعمت بك الى المدينة نقيمين فيها ريثما تنقضي الحرب فقالت وهي تنظر اليه نظر العاتب « العل كناني لم يصلك »

قال بلى وصلي

قالت فكيف تدعوني الى الاقامة في المدينة وقد عاهدت نفسي على نصره الامام علي جهد طاقتي

قال لقد جاهدت وسعك وانت مريضة

قالت لا بأس بي باذن الله

قال فلندهب معاً الى الكوفة ثم نرى ما يكون

قالت لا ارى في ذهابي اليها فائدة

قال ماذا اذا

قالت « انت تسير في مهمتك واما انا فاني اسير الى اخنك ام المؤمنين في البصرة عساى ان اتوفى الى اقناعها ببراءة الامام علي فتكف عن الحرب حجماً للساء المسلمين وفراراً من سوء العقي . ان الامر لا أعظم مما تتصوره يا محمد وقد آليت على نفسي ان اضحي كل شيء في سبيل دفع هذه الفتنة »

فاجاب محمد ومحمد بجيبتهما فقال لما ان ابي بكر « ولكنني لا اظن سعيك الا ذاهباً عبثاً »

قالت علي السعي وعلى الله التديير . . . ولين في الطريق الى البصرة

قال اذا كان لا بد من ذهابك اليها فاني اصحبك بخير من رجالي يسير في خدمتك الى حيث تشائين . قال ذلك ونادى مسعوداً وكان في جملة من صحبة في هذا السفر فجاء مسرعاً فقال محمد ههنا اسماء التي حملت اليك كتابها انها سائر الى البصرة فاوصلها الى معسكرام المؤمنين وعد اليّ بالخبر في الكوفة فنهضت اسماء للحال وامرت مسعوداً ان يهيئ الجمل . فقال ألا تركين المودج قالت لا ليس هو وقت التمس اركبي جملاً خفيفاً قالت ذلك ونظرت الى محمد قائلة ان الوقت ثمين يا محمد فلنسر في مسعانا عسانا ان نتوفى الى ملاقات الفتنة كما اخبرتك فنهض محمد وركب كل جيمعاً . فمارت اسماء ومسعود نحو البصرة ومضى الباقون نحو الكوفة وهم يحبون لما آتسره من شهامة اسماء وحجبتها وغيرها

الفصل الحادي والستون

﴿ خطر آخر ﴾

وسارت اسماء وهي تسعدت جملة ومسعود سائر على جملة امامها ليهديها الى الطريق فمضى معظم النهار ولم يستريحوا ولا تناولوا طعاماً فلما كان الغروب سالت اسماء عن البصرة فقال انها على بضع ساعات منا فارى ان نبيت ههنا الليلة ونصبح فتصايح المدينة قالت لا صبر لي على الانتظار هلم بنا ولا بأس من وصولنا الى البصرة فنقيم في المربد قال ان جيش ام المؤمنين يقيمون هناك قالت سر بنا على خيرة الله فاني انما اقصد معسكرها فلم يستطع مسعود مخالفتها وظل سائراً بتلمس الطريق تلمساً لان الليل كان حالكا وانتق مع ذلك هبوب الريح وتلبذ الغيوم فلم يعد يرى الطريق امامه ولا النجوم حتى يهتدي بها ولكنه رأى نوراً عن بعد فعلم انه نور دير لبعض النساطرة كان قد زاره في بعض خطراته في تلك الانحاء . فجعل ذلك النور وجهته واسماء سائرة في اثره وها صامتان لا يسمعان الا وقع اخفاف الجمال اما على الحجارة فتترقع واما على الاشواك والادغال فتخش خشيئاً

وكان مسعود منشغل البال لمسيرها في ذلك الظلام وخاف ان يعترضها وحش او بهوياء في هوة وقد عجب لشجاعة اسماء وتحملها مشقة ذلك السر . على انه ما عثم ان سمع طنين سهم مرسل في الجو مرآ امام عينيه فجل واقعنس وصاح قائلاً « من ذا الذي يريد غدونا » ولم يتم كلامه حتى سمع اسماء تقول « آخ .. قتلني قتلك الله » فلم ان السهم اصابها فتهول اليها وقال « ما بالك يا سيدتي ما الذي اصابك »

قالت « اصابني سهم في جني واطنة قلتي » فترجل عن جملة واناخ جملها فانما هي تسند جنبها بيدها والسهم لا يزال مغروساً فيه فتزعة بجثة فصاحت صيحة دلت على شدة تألمها فغير في امره وخاف ان تموت اسماء بين يديه في ذلك القفر المظلم فوضع يده على جرحها وضغطه بكفه وهو يرتعش من عظم التأثر ثم سألها عن حالها فقالت « اني مقتولة لا محالة . اظن ذلك النذل قد كتم لنا في هذا الطريق » وراودت التكم فاربع عليها فلم ير مسعود خيراً من ان يحملها على جملة ويسرع الى ذلك الدبر لمعالجتها . فاردفها خلفه وساق جملة وقاد جملها ورائه واسرع الى الدبر ولم يصدق انه وصله فاذا هو مقتول وسوره عال لا يمكن اجنيزه فتذكر ان الديور يعلتون فوق ابوابها اجراساً يدقها من يحيي طارقاً فاهتدى الى النحل فتدق فطن الجرس فلم يحبه احد فكرر الدق بعنف وصبر هنيهة فسمع صوتاً جيورياً يقول « من الطارق » فاجاب مسعود قائلاً « افتح يا شدتك الله واسرع الى اغاثتنا » فقال من انت

قال انا غرباء في اشد الضك افتح رعاك الله . قال ذلك وصبر فلم يعد يسمع صوتاً وانصرف فكره الى اسماء وهي متعارضة عند عتبة الباب تمنع عيناً عميقاً فامسكها بيدها ويد ترتجف خوفاً عليها فراها باردة فحس جرحها ففاصت انامله في الدم وكان قد تنخر وملاً ثوبها فحاول اجلاسها ليحقق صحوها فانما هي تنخر وقد ارتخت مفاصلها فزاد اضطرابه ولم ان يصيح ببواب الدبر فرأى نوراً انبثق من كوة فوق الباب فالتفت فرأى راساً عارياً قد وخطه الشيب فايضاً يابضاً ناصعاً قد اطل من الكوة والمصباح في يده ينعكس نوره عن لحيتو البيضاء وهو يقول « اصدقنا ايها الطارق من انت »

فصاح مسعود قائلاً « اننا غرباء ومعي مريض مشرف على الموت انجدنا جزاك الله خيراً »

ولم يتم مسعود كلامه حتى سمع صوت مزلاج (سقطة) كأنه شد بجبل فانفتحت خوخة صغيرة في وسط ذلك الباب المصغ بالحديد فرأى مسعود انه لا يستطيع الدخول من الخوخة وإساره في تلك الحال فتكلم الى الراهب ان يفتح الباب كله وأشار الى ما بين يديه فأسرع الراهب بخفة مع شيخوخته وجرّ عضادة ضخمة من خشب كانت وراء الباب فتفتحه وساعد مسعوداً في نقل أساه الى اقرب غرفة هناك واجلسها على الفراش وخفّ الراهب الى رئيس الدير ليخبر الخبر . ولم يمض هنيهة حتى جاء الرئيس وهو شيخ هرم قد رقى بدنه وتجمد جلد وجهه واكسى بالشعر الأبيض على خفة ولكن عينيه ما زالتا تتقدان نوراً وصحة وقامته معتدلة تدل على نشاط وهمة . فتقدم الرئيس الى الفتاة وهي ملقاة على الفراش وسأل مسعوداً عما بها فقص طوبى الخبر مختصراً . فادارها على جنبها الصحيح واخذ في كشف الجرح فحوّل مسعود وجهه عنها حياء وحشمة واشتغل الرئيس وراهبه بفصل الجرح وتضميد وامر بلبن غسلة به ثم صب طوبى ماء مقدساً يحفظون به مثل هذه الحال وربطة وامر بملائة من نسيج العباء فغطاها بها القاساً للدفء ورش وجهها بالماء المقدس ودهنه بزيت من مصباح الدير المضيء امام صورة المسيح وهو يدعو الى الله ان يقرب الشفاء . فأفاقت أساه هنيهة ولكنها لم تقل شيئاً ثم عادت الى العنينة . وكان رئيس الدير وهو يفضل وجه الفتاة يتأملها ويتفكر في ملامحها كأنه تذكر شخصاً يشبهها . وهو في أثناء ذلك يعتذر لمسعود عن تأخر الراهب في فتح الباب لتخوفهم من بعض الطارقين الذين كثروا يومئذ على اثر قدوم جند مكة الى البصرة ووقوع بعض المواقع الحربية . فلما فرغ من تضميد الجرح تحوّل الى مسعود فساءله « من الفتاة »

فقال « انها فتاة لبعض كبار الصحابة . ولم يزد »

فأعاد الرئيس نظره اليها وادنى المصباح من وجهها وكان قد امتنع ونحل وهي مطبقة العينين كأنها في سبات وقال « فهي اذاً مسلمة »

قال نعم

فلمح الرئيس في صدرها حجاباً اعتاد النصارى تعليقه في صدورهم وكان زندها

مكتوباً فرأى عليه رسم الصليب فالتفت الى مسعود وقال « ولكنني ارى عليها بعض اشارات الصراية »

فلم مسعود من تدقيقه وهو لا يجهل ما عتقد الا شفاؤها فقال « لا ادري يا سيدي سوى انها مسلمة فلعل لتلك الشارات سبباً لا اعلم »

فسكت الرئيس وجلس على مقعد بالقرب من فراش المريضة وهو تارة ينظر الى وجهها وطوراً يطرق متأملاً كأنه يبحث في ذاكرته عن شخص يشبهها

ثم نظر الى مسعود بغتة وقال له امضي يا بني الى غرفة الاضياف اذا شئت طعاماً ثم اذهب الى رقادك مهيناً فلا يضي على هذه اللثام قبل ان تحو وتحسن صحتها بقوة الله وبركة صاحب هذا الدبر

فقال مسعود اني لا اشعر بالجموع ولا انا في حاجة الى الرقاد وافضل البقاء هنا لارى ما يتم لها

قال لا حاجة الى بقاتك ولا بأس عليها لآنا ما سمعنا جريحاً او مريضاً يهنا الماء المقدس الا شفا الله اذهب الى فراشك واذا شئت البقاء خارج هذه الغرفة فلا بأس

فاستخيا مسعود من تكرار الاعتذار فخرج وجلس على حصيد وراء الغرفة

اما الرئيس فحالماً خلا بالراهب جملاً تماران ويقاطبان بلسان نصارى العراق (الكلداني) ويشوران الى اسماء . وكان مسعود لقلقه لا يغفل عن كل حركة تحدث فاستغل باله لتلك المسارة واصابع يسمو فلم ينهم من كلامها شيئاً . فجعل يرصد ما يبدو منها فانما بالرئيس امر الراهب فخرج ثم عاد وبين كتاب فصح فصح وقرأ ويتم ثم ركع الاثنان فعلم انها بصليان . فلبث ريثما فرغ من الصلاة وقاما فرأى الرئيس دنا من اسماء وهو يمسح الماء عن جبينها ويتأملها ثم جلس الى جانبها ولبت ينظر ما يبدو منها . وبعد هنيهة تحركت كأنها تحول عن احد جتيبها الى الآخر وما كادت تهل ذلك حتى صاحت من الألم . فسر مسعود لصياحها لعلوائه يدل على الصحو فدخل الغرفة فرأى اسماء قد فتحت عينها ونظرت الى ما حولها فوقف بصراً عند وجه الرئيس وحاولت التفرس فيه ولكن الضعف غلب عليها فذلت اجفانها وأطبقت عينها فصادت حالاً الى الرقاد . فأوماً الرئيس الى مسعود يده وملاح وجوه

وهو ينسب كآفة يقول « استبشر بالخير انها قد افادت » . فاستطو وجه مسعود وظهر السر عليه وتوسل الى الله ان يتم شفاءها بخافة غصب محمد بن ابي بكر . وقضت نية تلك الليلة راقدة وتنسها هادي »

وفي الصباح بكر مسعود الى غرفتها فرأى الراهب النجى الى جاسها بهمم بالكتف عن المرح وتبديل رباطه فتحول حالاً حتى اذا فرع الراهب من عمله مادي مسعوداً فدخل ونظر الى وجه اسماء فاذا هي قد افادت وفتحت عينها فحمد الله ودعا منها فلما رأته قالت له « آء من ذاك النذل الذي عمر عن مصادرتي وجهاً لوجه فاراد قتلني عذراً ولو كان رجلاً لظهر نفسه وطلب الدرازاو الطعان » قالت ذلك وحرقت اسنانها

فقال مسعود لا بأس عليك يا سيدتي ولا تعأني بما فعله هذا الفادر على اما لا تدري اذا كان هو الماثل

قالت لا ريب عندي انه هو سينو والآن فمن يعرفنا في هذه الديار سواء . . . هو هو عينو فحمد الله

قال مالنا وله فمارأيك بي هل اذهب لآخر مولاي محمداً بما وقع ليأني لا عاتلك . . .

فقطعت عليه الكلام قائلة « لا لا لا تفعل لاني اخشى اذا علم بما حل لي ان يسي الى وجه مهمته التي انتم امير المؤمنين لفنائها وهي تتعلق بمصلحة عامة المسلمين فلا يلبق ان يشغل عنها بحياة فرد من افرادهم . وزد على ذلك اني بحمد الله مستريحة لا اخالني بعد ايام قليلة الا راكية جملاً او جوارداً الى معسكر ام المؤمنين اؤدي المهمة التي ائندست نفسي لها » . قالت ذلك واصعدت بصرها الى فوق واشارت يدها كأنها تقول « فقدر لي الله ان اقف هنا في هذه الحالة » وشغقت اشارتها بدمعين كبيرتين انحدرتا على خديها ثم التفتت الى ايقونة معلقة بالحائط امامها شغلت نفسها بالنظر اليها

وكان الراهب في اثنا ذلك منشغلاً بقراءة درج (رق) في يد فيه فرض من فروض الصلاة

اما مسعود فلما سمع كلام اسماء وشاهد الدمع يحدر من عينيها على تلك الصورة

ناثر من منظرها واستعظم كيان حالها عن محمد فقال لها كيف أكرم عنة حالك وقد عهد اليّ العناية بك

قالت « افعل ما اقوله لك - اتركني هنا واذهب اليو لعله يحتاج اليك في شيء واما انا فلا بأس عليّ في هذا الدبر فان اصحابه اهل ضيافة ورعاية وقد صرت على مقربة من معسكر ام المؤمنين وبعد بضعة ايام اتفه من جرحي فاذهب اليها والانتكال على الله »

فتركها وذهب الى غرفة الرئيس فرآه خارجاً فسأله عن رأيه في حال اماء فطأ أنه ان جرحها خفيف لا خوف منه وتهدله ان يتولى العناية بها حتى تشفى فاطمأن خاطره وبكت هناك الى مساء ذلك اليوم ومات الى الصباح التالي فرأى اماء قد تحسنت حالها فارتاح باله فودعها ومضى وهي تلح عليه ان يعطين محمدًا عينا

الفصل الثاني والستون

﴿ عودٌ الى الدبر ﴾

اما رئيس الدبر فكان قد قضى بهار الامل وليله وهو يظار الى اماء ويجهد فكرته في تذكر ما يعرف عنها او عن بشيها فلم يهتد . فلما خرج لوداع مسعود عاد الى اماء وكانت قد تعبت من الرقاد فجلست في الفراش . فلما دخل الرئيس نظرت اليه وتأمّلت وجهه فتذكرت انها رأته مرة قبل ذلك الموعن في دمشق يوم سفرها منها مع والدتها الى المدينة . وكانت قد لحطت اشتباهاً بها منذ دخولها الدبر . فلما عاد من وداع مسعود جلس على طنفسة بقرب فراشها فنظرت اليه وقالت « ألا تذكر يا حضرة الاب المحترم انك رأيتني قبل هه الموعن »

قال هذا الذي شغل الي مد رأيتك بالامس ولكنني لا اذكر ان رأيتك

قالت اطلك رأيتني في دمشق في العام الماضي

فلما سمع قولها اسطمت سمته ونرس في وجهها وقال للحال « نعم نعم .. شاهدتك مع والدتك وقد جئتما الى كيسة ماري يوحنا في دمشق لزيارة القسيس مرقس الشيخ

البار... نعم اذكر ذلك... اين هي والدتك «
فلما سمعت اسماء ذكر والدتها تفرقت الدموع في عينها فبادرت الى مسحها
بطرف كفا وسكنت

فادرك الرئيس ان هناك امراً محرماً دعاها الى البكاء فسكت لحظة ثم قال
« وهل اصاب والدتك سوء »

فقالته وهي تكي « نعم يا سيدي انها ماتت و أسفاه عليها ولولا ما بها »
قالت ذلك وشرقت بدموعها

فاطرق الرئيس برهة ونظر الى الراهب وكان لا يزال جالسا وأشار اليه ان يخرج
من الغرفة ففعل . فلما خلا الرئيس باسماء جعل يخفف عنها ويعزها ويلتصص صبرها حتى
هدأ روعها ثم قال لها « وهل عرفت اباك »

فلما سمعت سؤالا توسعت من ورائه نورا لعلها تعني به الى استطلاع ذلك
السر الذي كانت تظنه دُفِن مع والدتها . فقالت « لا يا سيدي لم اعرفه وهل
انت تعرفه » فسكت برهة ثم قال « لا يا ابنتي ولا انا اعرفه ولكن ... » وسكت
فقالت « ولكن ماذا ... قل يا سيدي ان معرفة ذلك تمهني كثيرا وقد كنت احسب
امر والدي المحبني مكتوما عن كل بشر سوى والدتي . ولما توفيت حميتني ضاع
ودفن معها . فكيف عرفت انت ان والدي مجهول وقد كان ذلك سرا مكتوما عن
كل انسان على ما اعلم فاطلاعتك عليه يستلزم معرفتك حقيقته . فهل انت طارف
شيئا ... قل لي واخرج كرتي » قالت ذلك لهفته وقد نسيت جرحها وضعها

فلبت الرئيس التبع برهة صامتا وهو يمشط لحية باصابعه كماه يكتم امرا وذا
لوانه لم يفتح عليه بآلا للسؤال عنه . ولكنه لما رأى اسماء تحاطب بهك الالهة قال لها
« صدقيني يا ابنتي اني لا اعرف من هو والدك ولكنني اعلم ان الذي كان مع والدتك
يوم رأيتك في كنيسة ماري يوحنا بدمشق ليس هو والدك المحبني »

قالت وهي تخضص صوحها احتراماً لمقام الرئيس وشجوخته « وكيف عرفت ذلك
يا سيدي . ربما لا بهك امر هذا السر مطلقا ولكنه يهني كثيرا لانني علمت ان يزيدا
الذي كان مع والدتي (رحما الله) ليس هو والدي المحبني وان لي أبا غيبر كانت
والدتي قد وعدتني بذكر اسمو بعد وصولنا المدينة فقضى الله بوجها قبل وصولنا واحسرتاه

عليها . . . فظلمتُ مجهولة النسب . وأظن الله قد أراد كشف هذا الدل عنى على يدك »
قالت ذلك وجمت بتقبيل يده وفي قول « اتوسل اليك ان تطعمني على ما تعرفه من
هذا النيل »

وكانت هي تتكلم والرئيس التبع مطرق فلما فرغت من كلاهما رفع نظره اليها
وقال « قلت لك يا ابنتي اني لا اعرف من هو والدك وأما كيفية اطلاعي على ذلك
فاني اقصة عليك لعله يفيدك في شيء »

فاعندلت اسياء في مجلسها ويدها على جبين المبروح تضغط عليه تخفياً للام واصغت
لما يقوله الرئيس

فقال « اتذكرين يوم جاءت والدتك الى كنيسة ماري بوحنا في دمشق وكنت
اسم معها فترككنك مع والدك خارجاً ودخلت في لوداع القسيس مرس قسيس تلك
الكنيسة ثم خرج ذلك القسيس لوداعك فهل تذكرينه »
قالت نعم يا سيدي « اذكر ذلك التبغ المحرم وخروجه لوداعها »

قال الرئيس « وقد كنت اما يومئذ زائراً عنده فلما عاد الي رأيت على وجهه آثار
البغمة فقلت ما بالك يا حضرة القسيس فقال « ان هذه المرأة سراً عهدته الي منذ بضع
وعشرين سنة وفي الآن شاحصة الى المدينة لتبيع به هناك واخشي لضعفها ومرضاها ان
تموت قبل وصولها . فاذا حدث ذلك ظل هذا الامر مكتوماً عدي وحدي واراني
قد شفت وربما دنا اجلي فيذهب السريضا عاً وهو بهم هذه القناه » (وأشار اليك)
فقلت له « هل هو سراً اعتراف » قال « نعم » فقلت « لا سبيل اذا الى كشفه لي ولكني
اود ان اعرف موضوعه بحيث لا يكون في ذلك ما يهده اباحه » فتردد كثيراً قبل ان
اجابني ثم قال لي « ان هذه القناه التي تراها مع هذه المرأة هي ابنتها واهل دمشق يظنون
هذا الرجل والدتها وهوليس والدتها » فقلت « ومن هو والدها اذا » قال « لا استطيع
كشف هذا السر الآن ولكنه سيظهر بعد قليل لان المرأة مطلقة بتنسها لكشف
امرها لاصحاب الشأن في يارب (المدينة) لان والد القناه الخفي هو احد كبار المسلمين
هناك . . . »

فبغت اسياء وخفي قلبها فصعد الدم الى وجهها فتورد بالرغم عن ضعفها وتناولت
بعضتها ليعا الحديث . فلما وقف الرئيس عند هذا الحد قالت بلهة « وما هو اسم »

قال « لا اطم يا ابني ولم أسأل القسيس عنه لعلني انه لا يوح بو حفظاً لسر الاعراف فالذي فهمت ان والدك الحقيقي انما هو من كبار المسلمين في يثرب »
 فهمت وقد عاد لونها الى الاصفرار للهناء وتأثرها ثم قالت « ولكن كيف يمكن ان يكون ذلك واما لا اعرف يثرب قبل هذه المدة ولم اسمع والدتي تذكرها »
 قال « علمت يا ابني ان والدك كانت تباليغ في اخفاء هذا الامر عن كل انسان لانها رومانية الاصل حملها بعض قياد المسلمين الذين فعلوا الشام في جملة السبايا وادهاها الى والدك فمكنت عنده بضع ليال ثم قدم عليها اخوها (خالك) خلسة وحرصها على الفرار ففرت الى دمشق ولم تستطع الظهور خوفاً من العمون فبقيت مصر . فظهر حملها هناك وقيل ان فضلك التفت القسيس مرقس وكان في كنيسة المعلقة بمصر يومئذ وكانت تعرفه مذ كان في الشام وبنت له هذا السر واخبرته عن والدك . ثم جرت الحروب بمصر ففقدوا العرب وقتل خالك ووقعت والدتك في جملة السبايا ثانية واست طفلة فتزوجها يزيد الذي تعرفه واقام بها في دمشق واثبت معها . فلا نجني لا غفيل والدتك ذكر والدك الحقيقي لانها كانت تعتبر نفسها مجرمة وتخفي اذا عرف مكانها ان يقتص منها »

ولم يتم الرئيس كلامه حتى استولت البغلة على ابناء وتولها الدهشة ولبثت صامتة وهي لا تزال ترجو ان يكون الرئيس جارقاً اسم والدتها فتوسلت اليه ثانية ان يخبرها بو . فاكد لها انه لا يعرف اسمه ثم قال « اذا لقيت القسيس مرقس في دمشق بطلمك عليه وربما اطلمك على امور كثيرة فنيديك فاسرعي اليه حال شئتلك قبل ان ينقضي اجله لانه شيخ طاعن في السن . انظري الى شيخوختي واعلمي اني اذا قبست الاعمار بالاجمال كنت اصغر من اولاده »

وكانت اسماء قد تعبت من الجلوس فلما قبست من استطلاع اسم والدتها من الرئيس زاد تعبها فالتفت نفسها على الفراش وتنهت تنهداً عميقاً وهي صامتة تفكر في ما سمعتها واشتاقته نفسها للسيرة الى دمشق لعلها تلاقي القسيس فيقص عليها الخبر . طي اسماء علمت ان والدتها بعض كبار المسلمين فاخذت تفكر في من عسى ان يكون وهل هو حي او ميت فاستغرقت في مثل هذه الهواجس . ولما رآها الرئيس مستغرقة ظنها تبيل الى الرقاد فخرج وتركها فنامت ولا تسلم عن احلامها المزعجة

الفصل الثالث والستون

﴿ حملة علي ﴾

قضت أسماء في ذلك الدير أياماً وهي تنقلب على فراش الوجع وهواجسها تتعاضد لا تدري إذا شغيت تسير إلى دمشق لمقابلة القيس مرقس أم إلى أم المؤمنين لانتفاذ مهمتها . وكانت تتمرر لانحسارها في الدير بالرغم عنها فلم تكن تستطيع الوقوف حتى صارت تشدد وتخرج إلى فناء الدير تمرن فيها على المشي

وصعدت ذات يوم إلى سطح الدير فاطلعت منه على سهل واسع رأت في آخره ما يلي البصرة معسكراً فيه الخيام والأعلام وحوله الجبال ترى في بعض المغارس ومعاها العديد . فعملت أنه معسكر أم المؤمنين في ضاحية البصرة وكان الوقت أصيلاً فجعلت تفكر في ما تنوي من مخاطبة أم المؤمنين وما تتوقع أن تسمع من دفاعها وهي الأجوبة اللازمة . وما زالت غارقة في مثل هذه الهواجس حتى مالت الشمس إلى المغرب فأنجلبت بصرها نحوها وقد تعاضد جرمها وتكوّرت ومالت إلى الاحمرار شأها قبل المغرب . فانشغلت بالنظر إلى الأفق والتمتع بذلك المظهر البديع وقد نسبت موقفها . ولم تكن تغيب الشمس حتى احسنت أسماء بالبرد فقولت تلمس الدفء في الفراش فأسرعت إلى مخافة أن يضرّ البرد بها

فبانت تلك الليلة وهي تتوقع أن تصبح نائمة فتستقر في ما إذا كانت تسير إلى معسكر أم المؤمنين أم إلى الشام

فلما أصبحت شعرت بانتعاش ولكن الضعف مازال يمنعها من السير وخصوصاً على الجبل أو الجبلاد . فلم تَرَبْدًا من الاضطراب ريثما يتم لأم الجرح وثقوبه قليلاً فالتصمت من رئيس الدير أن يأذن لها في الخروج للرياضة في سباتين الدير فأذن لها فخرجت وحدها إلى البستان تمنّي الموبوءة فابتعدت عن الدير مسافة طويلة وهي لا تدري فأنكشف لها من الأفق قسم كان مستتراً وراء التلال فرأت فيه خياماً وأعلاماً وجمالاً وعبيداً ولم تكن تنفّس في ذلك المجمع العظيم حتى علمت أنه معسكر الإمام علي ففتح قلبها ومشت قليلاً حتى دنت من أكمة صعدت إليها وجعلت

تأماً ملة ونفسها تحبها بالذهاب اليه لعلها ترى محمداً فيه أو تسمع شيئاً عن خبره على
 انها نداء من قدوم جيش الامام لانه يدل على اقتراب الحرب
 وفيها هي غارقة في هذه الافكار سمعت صوتاً يزعج رجلاً على مقربة منها . فالتفت
 فاذا ببعير سائب يمدو ورجل يركض في اثره يستفيد الناس ليمسحوه في التبع
 عليه . فلم يمع اسماء السكوت مع ضعفها فاعترضت المجل وهو مت عليه ليرجع وكان
 قد حجج فلا برده فهو فظل مسرعاً في سبيله فاغتنظت لعدم اكترائه بهوياً
 فركضت اليه وعلقت بعنقه لانه لم يكن له رسل فضل راحكاً واسماء مسكة عتقة
 بكلتا ذراعيها كأنها تسلك للصعود الى ظهره . ولكنها ما لبثت ان شعرت بخوار قواها
 واحسنت كأن شيئاً غرز في مكان المرح فعلمت ان المرح قد انقصر واشتد بها
 الالم حتى لم تعد تستطيع صراً عليه . وكان البعير في اناء ذلك قد خفت سرعته
 فادرته صاحبه واسك بعنقه حتى اناخه فسقطت اسماء الى الارض لانني من شد الالم
 وكان صاحب البعير شاباً من عبد التيس وهي من جملة القبائل التي التفت
 عليها ^(١) وجاءت معه للحرب . فلما رأى اسماء ساعدته في التبع على بعيره ثم رأى
 ما ألم بها من التعب حتى سقطت غائرة القوى شعر انه السبب في ما اصابها فدنا
 منها واجلسها وقد هون جمالها واعجبته هينها فكلها فأفاقت ويدها ضاغطة على جنبها
 تنفي الالم . ولما رأت ذلك الغريب يجانها علمت انه صاحب البعير . اما هو فحالما
 نظرت اليه هاب عينها ورأى فيها هبة اوقفت عند حذيره وربما كانت نفسه تحذره
 بشيء فلم يستطع الا تلطف ما بها والاعتذار عما اصابها بسوء
 اما هي ففجئت واغتمت تلك الفرصة لاستطلاع حقيقة ذلك المجد فقالت له
 « من انت »

قال « من عبد التيس »

قالت ومن هم هؤلاء المجد الذين نراهم امامنا

قال اما سمعتم بما قام بين الامام علي ولام المؤمنين

قالت سمعت وعلت وهل هذا المجد هو جند الامام علي

قال نعم ونحن في نجدتو لاعتقادنا فضله على سائر الناس

قالت وكم هو عدد رجاله

قال عشرون ألفاً بين راجل وفارس^(١)

قالت انعلم عدد جند ام المؤمنين

قال اظنهم ثلاثين ألفاً^(١)

فبهتت وهي تفكر في الفرق بين المجيشين والالم ينفخها عن ذلك حتى كاد ينعما
عن الكلام على انها تعددت وقالت ولئن نظن الغلبة منها
فاجسم الشاب وقال لا حاجة بنا الى هذا الظن والامر قد قضي بالامس
قالت وماذا تعني

قال لقد تم الصلح وانصرف العداء

فبهتت اسماء ولم تصدق مقالة فقالت « وكيف ذلك اصدقني الخبر » وشعرت منذ
سمعت خبر الصلح بنشاط ساعدها على النهوض فنهضت وهي مخاطبة الرجل حتى
جلست على حجر تحت شجرة وأسندت ظهرها اليها وضغطت الجرح بكنها فوق اثارها
فأراد الرجل ان يشرح لها اصل العداء لظنوا انها خالصة للهن من خبره . فاهدرته
قائلة لا تدرج النصبة فاني اعلمها ولكن اخبرني كيف تداعوا الى الصلح

فجيب الرجل لاطلاع اسماء وودان يعرف من هي ولكنه اجابها على سؤاها
قائلاً : ان جيشنا وصل الى هذا المكان بالامس فلما تقابل الجيشتان خرج من جيش
ام المؤمنين طلحة والزبير على فرسهما يلتمسان البراز فخرج اليها الامام علي حتى
اختلفت اعناق دوابهم ونحن نتظرعاقبة ذلك الملقى لانه سيكون قاضياً اما علينا
واما لنا فنجاولو معاً ونحن ننظر اليهم لنرى ما يبدو منهم من ررار او نحو . فانام
وقوف يتخاطبون وعلنا بعد رجوع الامام انه لما لقيها قال لها « لعمرى قد اعددتنا
سلاحاً ونحوه ورجالاً ان كنا اعددتنا عند الله عذراً فانثاب الله ولا تكونا كالتي
نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً . ألم اكن اخا كما في دينكما شريفاً دمي واحرم دمكما
فهل من حدث احل لكما دمي » فقال طلحة « البتة على عثمان » قال علي « يومئذ يوفيه
الله دينهم الحق يا طلحة تطلب بدم عثمان فلن الله ثلثه عثمان يا طلحة اجبت بعرض رسول
الله صلى الله عليه وسلم قتالها وخباأت عرسك في البيت اما يا يعني » قال « يا يعنيك

والسيف على عني» فقال علي الزبير « يا زبير ما اخرجك » قال « انت ولا اراك لهذا الامر اهلاً ولا اولى به ما » فقال له علي « الست له اهلاً بعد عثمان قد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ان السوء ففرق بيننا » وذكره اشياء وقال له « أتذكر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني غنم فظفر اليّ فضحك وضحكت اليه فقلت له لا يدع ابن ابي طالب زعمه فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بهز لتقاتلنه وأنت ظالم له » قال الزبير « اللهم نعم ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا والله لا اقاتلك ابداً »^(١)

وهكذا عاد الامام اليها بالمخير وتوسمنا خيراً من ندم اولئك على عملهم . ثم طمنا ان الزبير لا يرجع من ساحة البراز سار نوا الى ام المؤمنين فقال لها « ما كنت في موطن منذ طلقت الا وانا اعرف فيو امري غير موطني هذا » فقالت له « ما تريد ان تصنع » قال « اريد ان ادعم واذهب » فوجه ابنة عبد الله وقال « جمعت بين هاتين التين حتى اذا حدد بعضهم لبعضهم اردت ان تتركهم وتذهب ولكنك خفيت رايات ابن ابي طالب وطمت ايها تحمليها فبها العباد وان تحمها الموت الاحر فخنقت » فاحذر الزبير انه حلف ان لا يقاتل طياً . ثم تفاوض بعد ذلك مع طلحة وغبره فتم الاتفاق على الصلح وبنا ليلتنا البارحة والقلوب هادئة وكل فرح بما حجب من دماء المسلمين فلما سمعت اسماء كلام الرجل اشرق وجهها وبرقت اسرتها ونسيت آلمها وضعنها وقالت « بشرك الله بالخبر يا اخا عبد القيس » وازادت الاستفهام عن محمد ومقامو فقالت « وهل جاء اهل الكوفة لصرة الامام »

قال لقد جاءوا بعد ان ترددوا كثيراً

قالت كيف يترددون عن نجدة امير المؤمنين

قال : ذهب اليهم اولاً محمد بن ابي بكر ومحمد بن جعفر فلقيبا ابا موسى الاشعري حامل الكوفة فكلما فضل القعود على المسير فعاد محمد ومحمد الى الامام فأرسل الاشتر وابن عباس فعادا ولم ينالا وطراً . فأرسل ابنة الحسن وعمار بن ياسر فجاء الكوفة وكانت عاتفة قد ارسلت رسلها تدعو الناس الى نجدة . وظل ابو موسى يمرض الكوفيين على القعود فلا يسيرون مع هؤلاء ولا مع هؤلاء . فجاءه الحسن حتى

اقتنعهم ان يقوموا لصرة امير المؤمنين فجماعه منهم تسعة آلاف
فأدركت اسماه من خلال ذلك ان محمداً في معسكر الامام عليّ وكانت قد
تعبت من الجلوس على الحجر فنهضت فلبس الدبر لمداد الجرح لانها شعرت وهي
قايضة طيو ان الدم يسيل منه . فأحسّ الرجل بمرادها فأراد مساعدتها بالمشي
فأبت فرافها حتى دنت من الدبر فودعها وخرج يحملو يطلب المعسكر
اما هي فالتفت الفرقة فلقبها الرئيس عند الباب فسالها عن حالها فقضت طيو
حديث الجبل ووقوعها . فهمّ الى الجرح فاعاد ضاده وبشرها بان لاخوف منه فلبت
تفكر بما سمعته وكانت كلما تصورت وقوع الصلح بكاد قلبها يطير فرحاً لتخلصها من
مصائب كثيرة وحجب دماء الناس . على انها كانت وهي في وسط هذه المسرات اذا
تذكرت ما سمعته من الرئيس عن والدها اتقبضت نفسها بخافة ان يضع عبء نصيب
انها حالما تستطيع الركوب تسافر الى دمشق فاذا تحققت من هو والدها علت
مدخلها وخرجها

الفصل الرابع والستون

❁ الحرب ❁

ففتت أباها وهي تنزع في كل يوم ان ترى محمداً آتياً لمشاهدتها في
الدبر لعلها ان مسعوداً لا بد من ان يخبرها بما اصابها فكيف يقم على مقربة منها
ولا يسأل عنها فلما مضت ايام ولم يأت اقتنت ان مسعوداً لم يره بعد ذهابه من الدبر
فهو لا يعلم مقرها . وكان الجرح قد لأم فلم تر بداً من ملاقة محمد لتخبر بعزمها
على دمشق وتستعينه في دأب تركبها وخادم يسير في ركبها . ولكنها تذكرت
الحسن وما لحظت منه يوم كانت في المدينة تخافت ان لا يرضى محمد بنهاها الى
المعسكر فعملت على استدعاء والها فكتمت بطاقة بهذا الشأن واستأذنت رئيس الدبر
في ارسال بعض خدمه النباه فاذن لها فبعثت احدهم وأفهمته كيف يسير والي من
يسلم الورقة ودلت على الجهة التي يلاقي فيها جيش الامام علي

فخرج وجلست هي في فراشها تنتظر رجوعه ومحمد معه . وكلما نصورت لقاءها محمداً اخلج قلبها في صدرها وأعدت عبارات تخاطبه بها تسفر عما في نفسها وقد بها من هذا الصالح انقضاء تأجيل الاقتران فأخذت تعد نفسها بالسعادة المستقبلية وخصوصاً اذا عرفت والدها الحبيبي

قضت ساعة وبعض الساعة في مثل هذه المحاجس وفي كلما سمعت سعال رجل او وقع أقدام او جمجمة بعير او صهيل فرس ظننت رسولها عائداً ومعه محمد . ولم تعد تستطيع صبراً على الانتظار فصعدت الى سطح الدير لتستطلع قدومه عن بعد ولم تكن تخطو خطوتين فوق السطح حتى رأت رسولها راجعاً يعدو ويلتفت وراءه فانشغل خاطرها ولبثت تنتظر وصوله فما عم ان وصل وهو يلهث من شدة الجري . فقالت ما وراءك

قال خرجت من الدير في الجهة التي رسمتها لي فإ وصلت المكان حتى رأيت النبال تتطاير في الجو فلما اشرفت على المعسكر رأيت الحرب محتمدة

فبقت أسماء وقطعت كلمة قائلة « الحرب . . . بين من ومن »

قال سألت بعض العبيد ممن كانوا يلتقطون النبال المتساقطة وهو خارج المعسكر فأخبرني ان الحرب انتهت بين الامام علي وطائفة وكانوا قد ارموا صلحاً فنقضوه

قالت لا حول ولا قوة الا بالله ومن نقض . . ؟

قال لا ادري ولكن العبد اخبرني انهم باتوا على صلح فاصبحوا فاذا بجيش طائفة

على الحرب

فقالت لم تلق محمداً

قال وكيف اتقاء وإنما لم استطع الدخول في المعركة مخافة ان تصيبي النبال فاموت ولا يهني من يرجع اليك بالخبر . ففارت الحمية في رأس أسماء ولم تردداً من العدول عن دمشق الى معسكر ام المؤمنين لتخاطبها بالرجوع الى الصلح قبل ان يتفانم المخطب فمألت رئيس الدير عن دابة تركها فقال ان خادمك الأول ترك هنا جملتك الذي جئت طوبى

قالت اين هو . فامر الرئيس باعداده للركوب وخرجت أسماء الى غرفتها فبدلت

ثيابها على كهيئة تشبه بها ثياب الرجال وشدت وسطها بمطقة عربية والتفت بعباءة

وغطت رأسها بكوفية وتقلدت حصاناً كان قد اعطاها اياه محمد يوم سفرها مع
 مسعود وركبت الجمل وولت وجهها معسكرام المؤمنين وكان الوقت ضحى وهي للهناء
 لم تودع الرئيس حتى اذا بعثت عن الدبر تذكرت ذلك فالتفت اليه وأشارت بالسلام
 يدها ورأسها . ولم تبعد عن الدبر قليلاً حتى أطلت على المعركة فرأت السهام
 تتطاير من كل جانب حتى كانت تحجب اشعة الشمس بدلاً من الضباب لان الجو
 كان قد امطر في ذلك الصباح فتناكس التراب . وقفت هنيهة ربما تعرف الطريق
 الذي يؤدي الى ام المؤمنين . فرأت الرجال يهرعون يمناً وشمالاً وفيهم المشاة والفرسان
 وسمعت النساء من وراء الجميع يمرضن الرجال على الثبات . وكانت الجو صافياً لا
 غبار فيه فكانت اذا تهرست في الرجال عرفتهم فرداً فرداً فجعلت تنفوس بالفرسان
 عساها ان ترى محمداً فلم تره ولكنها ادركت ان النصر للامام علي لانها رأت رجاله
 يتنسمون طوافك يفرشون يعثر بعضهم بحث بعض وم من حرج وقبيل تنفطر
 قلبها . فاجالت بصرها لعلها ترى فسطاط عائشة لتسرع اليها وتغاطيها في الكف عن
 القتال فلحقت مروان بن الحكم على فرسه يتعقب فارساً آخر طلت انه طلحة وقد رماه
 مروان بسهم في رجله فتكفها في صفحة الفرس ^(١) ثم رأت طلحة حوّل عنان جهاده نحو
 الصرة وترك الجيشين يتتلان فعلت انه انما ذهب اليها لجرح يبلغ اصابه فتاكدت
 فشل جند مكة ولكنها عجبت لما فعله مروان بطلحة وها من جد واحد . على انها اولت
 فعله الى طمعه بالخلافة لاني امية لرعوها اذا خرجت من يد الامام علي وكان طلحة
 حياً طمع هو بها وربما طمع بها الزبير وما اذا قتل هذان فلا يبقى من يطالب بها فتبقى
 في بني امية

الفصل الخامس والستون

﴿ هودج ام المؤمنين ﴾

وفيها في تأمل في حركات الجيشين وتسمع ضجيج الناس ونداء الرماة السهوف

والرماح وصهيل الخيل رأت في معسكرام المؤمنين نسطاطاً كبيراً طلت انه نسطاط طائفة ولكنهم لم يرازدحماً حوله فارتابت في امره ثم لحت جمعاً متكاتفاً حول هودج فوق بعير فطلعت من لون الهودج وشكلوه انه هودج ام المؤمنين فسافت جملها غصه . فلم يسمعها في الجري فرأت فرساً تائماً خارج المعركة وقد قتل صاحبه فاسرعت اليه وتحولت عن الجمل وركبته وسارت باسرع من لح البصر تنتمس الهودج ولم تك تلتص بالمركبة حتى رأت فارساً خارجاً عنها يطلب عرض البر لا بلنت وراءه وعرفت انه الزبير فتذكرت انه اقسم ان لا يجارب عليها فقالت في نفسها ما قد فر الزحيان ولا احوال ام المؤمنين اذا طلت ذلك الا آمرع بالكف عن القتال . فاسرعت في وسط المعركة لا تنالي بما يتساقط عليها من النبال او يعترض قريبها من جثث القتلى والجرحى ولم تدن من الهودج حتى سمعت ام المؤمنين تصيح بصوتها الجمهوري وتنادي احد رجائنا وقد مدت يدها من الهودج وفيها مصحف وفي قول « اليك يا كعب ادع الناس الى هذا المصحف » فلم يكذب الرجل يتناوله حتى اصيب ببيل فقتل . وكانت اماء قد وصلت الى الهودج فرأت الرجال حائمين حوله وطائفة تقول « أيها الناس العنوا قلة غفان وأشياهم »^(١)

فتجلت اماء واقبلت الى الجمل فرأت الهودج قد اصبح كالتنفذ لكثرة ما غرس فيه من سهام المتساقطة وارادت التسلق على الجمل لتلقى عائشة في الهودج فاعترضها بعض الرجال فازاحت اللثام ونادت ام المؤمنين فعرفت صوتها فاذا نلت لما فقال قائل من الوقوف « هي انا اذنا لك بالصعود على الجمل تسلياً فهل تستطعين ذلك » فتذكرت ما اصابها من تسلق حمل الامس فعادت الى قريبها واتصلت منه الى الهودج . فتعجبت ام المؤمنين لوجودها هناك بغتة . اما اماء فترامت عند قدمي ام المؤمنين وفي قول والسمع مله عنيها « اشقي يا اماء على اولادك احبي دماءم ارحي رجالاً يوحسون الله . لقد كفى ما اصابهم من البلاء مري بالكف عن القتال ان السلام بين شعبك وانت ام المؤمنين وزوج رسول رب العالمين . واطلي ان طلحة والزبير اللذين اضرما نار هذه الحرب قد فرّا من المعركة . مري بالله مري رجالك بالكف والقعود . امضي واطلي على المجندين وانظري القتلى في الجانين »

وكانت اسماء تكلم بخشوع وتذلل وهي جاثية عند قديمي عائشة . وكانت عائشة في معظم التأثير لاتملك وقتاً للنظر في الامر والناس حول هودجها يتلقون ما يتساقط عليهم من السهام حتى قُتل عند خطام الجمل نيف واربعون رجلاً . فنظرت الى اسماء وقد اثر فيها كلامها مع ما توهمته من قتل جندها وقالت « لقد كنا على بوعد من الصلح فلا ندري ما حملهم على نقضه »

قالت « وم يزعمون انكم انتم الناقضون »

قالت بل م لاننا يتنا مصالحين فاصبنا واذا م على قتالنا
فقالت اسماء يظهر ان في الامر حسيبة فلعل بعض الاعداء سعى فساداً فرمى الشقاق بينكم وعلى كل حال ان الصلح قريب ومحجب الدماء سهل عليك بكفيه كلمة منك

قالت وقد ملئت الجبال « لقد قضى الامر ولم يعد الرجوع ممكناً فلا تلتصبي ذلك مني » قالت ذلك وفي نفخة كلامها وملاحمها ما يزعج اسماء عن البحث في هذا الموضوع . فصمتت وعادت عائشة الى استنهاض الفئائل للدفاع حتى اصبح كل من بقي من رجالها يدافعون عن جملها

ووددت اسماء التزول من الهودج ولكنها لم تجسر عليه مهيماً من عائشة . ثم سمعت صوت علي يقول « اعفروا الجمل فانه ان عفر تفرقوا » ولم يكذب ثم امره حتى احسست اسماء بسقوط الجمل وهو يقع من الالم فعلت انهم عفروه فهتت بالخروج من الهودج ولكنها اطلت قبل ذلك فرأت كل من كان حوله من الرجال تفرقوا وعلي يقول لرجالها « ارسلوا من ينادي في الناس الا يتبعوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يدخلوا الدور » . ثم قال احملوا هذا الهودج من بين القتلى فحملوه وهي لاتزال فيه مع ام المؤمنين وام المؤمنين غافلة عنها لعظم ما ألم بها . وكانت اسماء تنظر اليها وهي هائبة التكلم معها ختية ان تسمع انتهارها وربما لا تستطيع جواباً . ثم سمعت طلياً يقول « يا محمد يا ابن ابي بكر اضرب على اخنك قبة وانظر هل وصل اليها شيء من جراحة »

فلما سمعت اسماء ذكر محمد وما امره به علي لبثت تنتظر ان تراه مطلقاً من الهودج . اما هو فلما ادخل راسه في الهودج ورأى اسماء مع اخيه اذهل ولكنه لم يكذب

يتكلم حتى سمع اخته تقول « من انت »

قال « اخوك »

قالت « الحمد لله الذي عافاك »

واشار محمد الى اسماء ان تخرج فخرجت ونظرت الى ما حولها فرأت الارض قد خلعت من الناس غير من قُتل او قُطعت رجله او جرح جرحاً بليغاً فلا يستطيع المسير - وسمعت عنين الجرحى ورأت الدم جارياً اقنية والخيل والنوق سارحة بعضها يعرج وبعضها يمعج من الجراح ورأت في بعض تلك الدواب سهاماً لا تزال مغروسة في رقابها او اعجازها وكان المنظر بالجملة رهيباً محزوناً لم يكن اكثر منه تأثيراً . وفيما هي تنظر في ذلك رأت علياً دنأ من هودج ام المؤمنين وقال « كيف انت يا امه »

قالت « بخير »

قال « يغفر الله لك »

قالت « ولك »

ثم امر احاماً ان يدخل بها البصرة ريثما تستريح وفيما هو يتكلم رأى اسماء واقفة فعرفها . فلما رآته هي ينظر اليها همت يده فقبلها وعلنها البغته فقال اهلاً بك اين كنت يا اسماء

فسمع علي عائشة تقول من داخل الهودج « احفظوا هذه الفتاة فوالله اني ما رأيت أكثر غيرة منها على الاسلام ولا اصدق لجة في الدفاع عن الحق وهي انما خاطرت بحياتها واتني تحت النبال المتساقطة تلتمس الكف عن القتال »

فخجلت اسماء لهذا الاطراء واطرقت فقال « علي بورك فيك يا بنية اني توسمت فيك هذا الخبر منذ رأيتك للمرة الاولى . تعالي »

فسار وسارت في اثره وفي مطرقة وعلي يشتغل بتدبير الجرحى والقتلى فأمر الناس ان يدفنوا قتلاهم . ثم علم ان طلحة والزبير قتلأ فاخبرته اسماء عما رآته من مروان . فقال « لا تعجبي من كان سبب هذه الفتنة ان يفعل مثل ذلك »

وظلوا سائرين الى البصرة حتى دخلوها فتزل علي في دار العامل قرب المسجد وتواردت الناس لمبايعته وقد سلم الامر له وخلا له الجو

ونزلت اسماء في تلك الدار مع بعض النسوة من جنن مع الامام وقد عرفتهن

اثناء اقامتها في المدينة . وظلّت اياماً تحاول ان ترى محمداً بعد هذه الحرب وعليّ يشغله باختوام المؤمنين فلم يكن يستطيع التخلي عنها فادركت اسماء ذلك فسارت في نحوّه بحجة زيارة عائشة

فلما التقيا ارادت ان تعرف سبب تخلصه عن زيارتها مع علو انها كانت جريئة في الدير فاستغرب قولها وأكد لها انه لم يكن يعرف عنها شيئاً لان مسعوداً لم يعد اليه وهو لا يعرف مفرّه الى ذلك الحين . فترجّع لديها انه قتل في طريقه الى الكوفة فاسأنا عليه كثيراً . وسكتا هنيهة ثم قال محمداً قد اتقضت الحرب واتصر الامام والحمد لله وإن لنا السكون والاجتماع

فسكتت اسماء لما وراء كلامه من الاشارة الى الرواج وغيرها الموضوع فقالت ولكنني على اهنة السفر الى الشام

قال ولماذا

قالت لأسأل عن والدي اخفي

قال وكيف ذلك ومن يخبرك عنه

فقصت عليه خبر رئيس الدير مختصراً فعجب واندهل واصبح اكثر اشيئاً لما لمعرفة والدها منها وارتفع مقامها في عينيه لما علم انها ابنة بعض كبار الصحابة في المدينة فقال لها لا يبعد ان تكون بيننا قرابة قل القرابة التي سعى اليها اليوم

فخجلت ثانية وارادت تغيير الحديث فقالت وكيف ام المؤمنين

قال هي في خير وقد أمرني الامام باعداد ما يلزم لسفرها الى مكة وها اتي اعد ذلك وقد جهزت لها اربعين امرأة من نساء الصرة المعروفات ليسرن معها فاذا سافرت عدنا الى ما يدحوا اليه القلب على قولك . . فخبلت

ولم يتم كلامه حتى رأى الناس في هرج وم يقولون « جاء امير المؤمنين » . ثم وصل عليّ وكانت عائشة قد تهيأت للسفر واعدت لها المودج وجاء الناس لوداعها فخرجت لوداعهم فلما رأت علياً قالت وهي تنثر الى الناس « يا بني لا يعتب بعضنا على بعض ان الله ما كان بيني وبين علي في القدم الا ما يكون بين المرأة وبين احمامها وانه على معني لمن الاخبار » ^(١)

فقال علي « صدقت والله ما كان يبني وبينها الا ذاك وانما لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة » وودعها من بقي من الناس ثم قال علي لمحمد « سر يا محمد مع اخحك الى مكة »

فلما سمعت اسماء هذا الامر اضطرب قلبها ونظارت الى محمد ونظروا اليها ففهم كل منها ما في ذهن الآخر

الفصل السادس والستون

في الخطبة

وكان الحسن قد جاء مع والده لوداع ام المؤمنين فرأى اسماء وقد علم بما اظهرته من الغيرة على الاسلام فازداد حبة لما وصم على خطبتها وهو لا يعلم ما بينها وبين محمد . ثم علم ان والده عازم على الكوفة لاخذ البيعة هناك كما اخذها في البصرة

وكانت اسماء لما فرغت من وداع محمد عادت الى عزمها على الشام لملاقاة الفسيس مرقس وسؤاله عن والدها وقد اصبحت هذا الامر شغلها الشاغل . فانت علية بعد سر محمد تودعه وتحببه لعزمها ونسالة رفيقا ودابة فلم تملك فرصة لاشتغالها بمن يند عليو من المباعين والمخيرين حتى اذا اراد الكوفة سارت هي اليها في جملة السائرين

وقضت في الكوفة اياما كأنها على جمر الغضى حتى اصبحت يوما وقد مات الانتظار فعولت على الاستئذان في السفر فسألت عن علي فقيل لها انه في مجلسه وحده فاستأنذت في الدخول عليو فاذن لها فدخلت فاذا هو جالس في قاعة واسعة ليس فيها احد سواه . فلما رآها هتف لها ورحب بها فهمت بتقيل بين وهي تقول « نحمد الله على ما اولانا من نصو في احقاق الحق ونشكره على ما اولاك من النصر »

فتنهت وقال « قد كنت اود ان تنتهي الفتنه ولا يسفك فيها دم ولكنها ابنت ان تنام الا على فراش من السماء » قال ذلك وسكت هنيهة ثم قال « وكنت

عارفاً على استفدامك اليّ لا شكرك على سعيك في هذا الامر فقد سعت فيه سعيًا حميداً »

فأطرقت ولم تجب

فقال لها « ولنا فوق ذلك اقتراح نقرحه عليك عساه ان ينال وفقاً حسناً »
فقلت « اني امة اذا أمرت اطاعت »

فقال « اننا نودّ استفادتك عندنا فتكونين بمنزلة ولدنا »

فأدركت اسماء ما وراء ذلك فأجملت مخافة ان يصح ظنها باقتراحه لعلها بما في نفس الحسن ولكنها لم تستطع غير اظهار الاستحسان فقالت « اني احتر من ان احظى بهذا الشرف العظيم »

قال « لا بل انت اهل لأفضل منه ولا اخي عنك ان ولدي الحسن راعب فيك لما آتته من غيرتك على الاسلام ورغبتك في اطلاقه فكلتو فهل ترضين به خاطباً »

فلما تخففت ظنها لم تستطع اخفاء عواطفها بما ظهر على وجهها من الاحمرار السريع ولكنها تجللت وقالت وهي تظهر الامتنان « اني لا استغنى هذا الاكرام يا مولاي لانه فوق ما توقعت فناء يئمة غريبة مثلي . كيف لا وفيه التقرب من اعظم رجال هذه الامة وان عم النبي (صلم) . ولكنني انما جئت الى مولاي الامام الآن في أمر همي كثيراً وهو يدعوني الى سفر قريب لا أرى منه بداً فجمت لاستأذن امير المؤمنين بشأنه »

قال وما ذلك

فالت « لا اخن مولاي ابا الحسن بجهل حال والدني يوم قدومها المدينة وما ظننا نفسنا فقدناه بوقائعها من السر »

قال « لا اجهلة »

فالت « وهل تجهل يا سيدي ان يزيداً الذي كان معنا في ذلك اليوم المتوهم .

ليس والدني الحقيقي »

قال « ظننت ذلك فيه منذ رأيت ثم سمعت انه ليس والدك »

فالت « وكنت انا ايضاً عالمة بذلك من والدتي فقد اخبرتني انه ليس والدني

وانها ستخبرني عن والدي الحقيقي عند وصولنا المدينة ففضى الله نوافها قبل وصولنا
وأسفاه عليها (وتنهدت) فظننت خبر والدي عدم من الوجود فأسنت وبكيت
ولكن التفادير ساقني بالامس الى دير مجوار البصرة بعد جرح اصامي في اثناء سفري
فأقمت فيه اياماً اعالج الجرح فرأيت هناك راهباً شجاعاً عرفني وعرفته وكنت قد
رأيت في كيسة دمشق قبل سفري فاخبرني خبراً اعاد اليّ آمالي بالاطلاع على كنه
ذلك السر »

فقال عليّ « وهل اخبرك عن والدك »

قالت كلاً يا مولاي ولكنّه اخبرني ان قميس كيسة دمشق يعرفه لان والدي
اعترف له بـ دون سواء « ثم قصت اسماء ما اخبرها برئيس الدير بنفاصليو
ولم تكذ ثم كلامها حتى ظهر الاستغراب والدهشة على وجه الامام لتولها ان
والدها من كبار المسلمين في المدينة وان والدها جاءت المدينة للبحث عنه فقال
لها « الم يخبرك عن اسمو »

قالت « اوّاه باليتة فعل ولكنّه لا يعرف الاسم وهذا ما حملني على الاسراع
الى دمشق استطلع خبر والدي لاني مع ما نلت من التفات امير المؤمنين وما اصبحت
من الحظوة في عيني وعيني ابنته لا ازال اشعر بذل عظيم لضبوط نسبي فعساي ان
ارفع عني هذا العار على يد ذلك القميس »

وفيما هي تتكلم استأذن الحسن ودخل فوقمت له اسماء فسلم ونظر الى والدك فانس
في وجهه تغيراً وهم ان يسأله فاذا هو قد اشار الى اسماء واليه بالجلوس وقال
« ان اسماء يابني راضية فرحة ولكنها في شغل جديد فمهي ذاهبة الى دمشق سريعاً
لتتحقق نسبا من قميس كيسة ماري يوحنا هناك اذ لا يخفى عليك ان يزيد الذي
زعم انه والدها ليس الا زوج والدها واما والدها الحقيقي فلا يزال امره مجهولاً »
فشق ذلك على الحسن وقال « ان البحث عن والدها واجب ولكنّه لا بدعو
الى تأجيل الخطبة على ما اظن »

فقال « بلى انه يدعو الى ذلك لاسيما وقد فهمنا الآن ان والدها الحقيقي احد
كبار الصحابة بالمدينة فما ادراك ان كان بيننا وبينه ما يجرّم الزواج من قرابة عصب
او رحم او رضاعة او غيرها فلا فضل يابني ان وُجل هذا الامر الى حين عودتها »

فسكت الحسن وسرت أسماء لتخلصها مما كانت تتوقفه فأمر لها يهودج نسيفيو
فقال اني افضل ركوب الجراد . فأمر لها بجراد وخادم أمين وقال لها تنتظرين
قافلة سائرة من الكوفة الى الشام تسيرين رفقتها لان الطريق يصير سلوكه على
شخصين منفردين

قالت سأرى اصحاباري . وودعته وخرجت وهي تود ان تطير الى دمشق
للمقابلة القسيس وصمت في باطن سرها على الاسراع ما استعانت لا تنتظر
قافلة ولا ركبا

الفصل السابع والستون

﴿ معاوية وعمرو بن العاص ﴾

كان معاوية في الشام كما علمت محالنا علي في خلافته نائماً عليه وقد حرض
اهل الشام على مطالبة بدم عثمان . فجعل قيس عثمان هذا واصابع مائلة امرأتو علي
المتر بدمشق ينظرها الناس . فثار اهل الشام وانكروا مباحة علي وبعت مباحة
الى علي بالظومار كما تقدم وهو عازم على مقاومتهم ما استطاع الى ذلك سبيلاً . وحدثت
نفسه ان ياتمس الخلافة ولكنه كان لا يزال يرى ذلك بعيداً حتى سمع بنقض الخلع
والزير وسيرها في اهل مكة الى البصرة . فقال لأصبرن حتى ارى ما يكون من
عاقبة تلك الحرب فسمع بفروج علي من المدينة ووقعة الجمل ومقتل طلحة والزبير
فعلم ان ليس ثمت من يطالب بالخلافة غيره

وكان عمرو بن العاص القائد الشهير فاتح مصر في اوائل الهجرة ومخرجها من
ابدي الروم (سنة ٥٣ هـ) على عهد الامام عمر بن الخطاب — لما فهموا تولاهما هو
واصلح شؤونها^(١) فلما افضت الخلافة الى عثمان بن عفان وكان عثمان كما قد علمت
من ايجاره ذوي قرايتو في ولاية الاعمال فعزل عمرًا عن مصر وعهد ولايتها الى اخيه
من الرضاة عبد الله بن سعد فخرج عمرو نائماً على عثمان وكان من دهاة العرب
المشهورين . فلما كانت الفتنة وثار الناس على عثمان وجاء اهل الامصار الى المدينة

كان هو في جملة من ندم عليه - ولكنه غادر المدينة قبل حصر وسار الى فلسطين وأقام فيها ينتظر ما يكون - فلما علم بمقتل عثمان قال « اني قتلته وأنا في وادي السباع » وجعل يفكر في من يلي الخلافة بعده وما هي علاقة ذلك بمصلحته فقال في نفسه « ان يلي هذا الامر طلحة فهو قتي العرب وإن يليه ان اني طالب فهو أكره من يليه الي » فلما بلغت بيعة علي اشتد عليه الامر ولبت ينتظر ما يصنع الناس قبله مسير أم المؤمنين وطلحة والزبير الى البصرة فاقام ينتظر ما يكون من امرهم - فجاءه الخبر بوقعة الجمل وانتصار الامام علي فارح عليه ووقع في حيرة - ثم بلغه ان معاوية في الشام لا يبايع علياً وأنه يعظم شأن عثمان وكان معاوية احب اليه من علي لانه داهية مثله - فاخذ ابنه محمدًا وعبد الله وسار الى دمشق وانفق مع معاوية على الطلب بدم عثمان ونفس عمرو طامحة الى مصر يحسن اليها لانه فاتحها وكانت مصر يومئذ على دعوة علي - وعمرو يعلم ان علياً لا يوليها اباهاً فلم يبرح خيراً من الانتهاء الى معاوية لهذا الشأن فجعل يحرّض اهل الشام على الطلب بدم عثمان ويقول لهم « انتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم »^(١)

الفصل الثامن والستون

اسماء في دمشق

قضت اسماء ابائاً في مسيرها من الكوفة الى دمشق ولم تصدق انها اشرفت على غوطتها المشهورة بالخصب ونظرت الى دمشق عن بعد فاذا هي في متبسط من الارض تحف بها الحدائق الغناء والبساتين النجباء وفيها اغراس الشمس واللوز والسفرجل والخوخ والدراق والليمون وسائر انواع الفاكهة وفيها الاعشاب والرياحين وكلها يانعة تجري بينها جداول من الماء القراح - وكانت اسماء ملتفة بالعبادة والكوفة فوق جواد يسابق الرياح ومعها الخادم على جواده فاقبلت على دمشق في الصباح وقد تعطر نسيمها بشذا الازهار تخلله نغامت الاطيار فلم يشغلها ذلك كله عما قام في خاطرها من الشوق للاطلاع على اصلها - فدخلت المدينة من باب الجماية بعد ان ترجلت

وامرت الخادم ان يسير في اثرها بالمجددين فمشت بعباءتها وكوفيتها تلتمس كيسة ماري
يوحنا من اقرب الطرق وهي تعرف دمشق معرفة جيدة . وظلت ملثمة لئلا يراها احدهم
اهلها او جيرانها فيعترضها فيشغلها عما هي ساعية في طلبه . وخوفاً من ان ينتبه الناس
لها اذا مشت والخادم والمجددان في اثرها امرت ان ينظرها في خان دلته عليه وقالت
له « امك هناك حتى اعود اليك » فاطاعها

وظلت هي ساعية حتى دنت من الكنيسة فتذكرت ان هذه الكنيسة العظيمة
المعروفة باسم القديس ماري يوحنا لما فتح المسلمون الشام اتخذوا نصفها الغربي معبداً
يصلون فيه وتركوا النصف الآخر وهو الغربي للصاري^(١) وفصلوا بين القسمين
بجائز . فالمست الباب المؤدي الى القسم الغربي وهي لا تزال بلباس السفر .
فاستقبلها خادم الكنيسة واستغرب مجيئها بعد الفراغ من الصلاة فكلها باللسان الرومي
وكانت قد تعلمت من والدها في حديثها فساءلها عن غرضها فقالت انها تريد التمس
مرقس فدعاها للاستراحة على مقعد من رخام في صحن الكنيسة وسار السؤال عن
القسيس فلفت في انتظاره وهي تلهي نفسها بما هناك من فخامة البناء كالاعمدة الضخمة
الشاهقة والقش البديع من التسيينات وغيرها ناهيك عن الصور على الجدران
والسقف في اشكال غريبة واللوان زاهية . ولم تكن تلك اول مرة دخلت هذه الكنيسة
ولكن غرابة ذلك البناء وفخامته يستلزمان النظر ويتغلغلان البال
فالمست الخادم ان عاد وهو يقول تنظلي الى غرفة الاستقبال فتقابلين الثماس
وهو يجيبك على ما تريد

فخرجت من الكنيسة الى دار في وسطها بركة من الرخام يتدفق منها الماء كسائر
دور الشام فانصلت من الدار الى قاعة فخيمة استقبلها فيها ثماس حالما وقع نظرها عليه
تذكرت انها رآته يوم زارت الكنيسة مع والدها قبل سفرها الى المدينة فاستأنست
به وسألت عن القسيس مرقس فدعاها الى الجلوس على بساط من السجاد وبين يديها
بركة اخرى اصغر من بركة الدار والماء يسيل عن جوانبها الى قناة تحيط بها
وتصرف من هناك . فلما جلست قال لها ان القسيس مرقس سافر منذ بضعة اشهر
فاجلست وقالت الى ابن

قال الى بيت المقدس

قالت ومتى يعود

قال لا ادري متى يعود لأن سفره لم يكن لشغل خاص بالدير ولكنه خرج فراراً
ما أقلق راحته من اصوات البكاء والويل التي ترن في آذاننا كل يوم في القسم
الآخر من هذه الكنيسة

قالت وما هو هذا العويل وعلى من

قال ربما سمعت بمقتل الخليفة عثمان في يثرب فان بعض رجال حاكنا معاوية
جاء بميصو المملوح بالدم واصابع امرأتو التي قطعت وهي تدافع يدها عنه ووضعوها
على المنبر الذي يصلون فوقه وكلما اجتمعوا للصلاة وذكروا مقتل الخليفة أصبح الناس
رجالاً ونساءً شيوخاً وأطفالاً يبكون ويولولون حتى تكاد تصم الآذان وتشتت
القلوب . وكان ابونا القسيس في اثناء ذلك مريضاً مرض الشجوخة فزاده ذلك الحال
ضعفاً فاشار عليه طبيباً ان يسافر الى القدس يقيم فيها ربنا بتغير الحال فسار ولا
نزال في انتظاره وقد بلغنا انه لا يزال مريضاً

فقالت ألا تدري متى يعود

قال كلاً وإذا كنت تريدن خدمة فانتا نوّديها عنه

قالت « كلاً » وانما غرضي يتعلق برأساً » وفكرت في ماذا تعمل هل تقيم هناك
ربنا يعود ام تخرج الى الحان . وفيما هي صامنة تفكر اجتدها الناس قائلاً اذا شئت
ان تقيمي ضيفاً في هذه الدار ربنا يعود ابونا القسيس اقمي على الرحب والسعة
فان عندنا نساء يقرن بخدمتك . قال ذلك وصنق فجاء الخادم فامرته ان يبدل اسماء
على غرفة القسيمة فصعد بها الى قاعة علوية فيها امرأة طاعنة في السن بلباس اسود
وعليها هياة الكمال والوقار فنهضت لها واستقبلتها واجلستها الى نافذة تطل على بعض
ابنية دمشق وامرت لها بما تحتاج اليه من طعام ونحوه فاعذرت انها لا تحتاج
الى طعام

وجلست اسماء وقد استأنست بتلك المرأة ولكنها ما زالت متشبّهة بالنفس من
تعرقل مساعيها بغياب القسيس وتصوّرت لشدة كدرها ان ذلك التعرقل من نفس
طالها وخجل لما ان القسيس مرقس سيموت في القدس لضعفه وشيوخه فيضيع السر

وتذهب آملها ادراج الرياح . فخطر لها ان تذهب في اليه وتستطلع الشرق قبل دنو
اجلها وكانت تفكر في ذلك والقسيسة تبالغ في ملاطفتها وتدعوها الى نزع العاءة
والكوفية وهي تنزع

الفصل التاسع والستون

﴿ القميص والاصابع ﴾

ودنا وقت الظهر فخرجت القسيسة للصلاة كالعادة وظلت اسماء منفردة فاطلعت
من النافذة فوقع نظرها على صحن الكنيسة كله وفيه القسم الذي جملة المسلمين مسجداً
فرأت في أرضه الابسطه والطنافس والمصابيح وشاهدت على جدرانها رسوماً مسجية
في جملتها صور صلبان وقديسين لا تزال كما كانت قبل الفتح . وفيها في تأمل مجدران
المسجد ومفروشاته سمعت المؤذن يدعو الناس الى صلاة الظهر . وما كاد يفرغ من
آذانه حتى رأت الناس يتقاطرون الى صحن المسجد زرافات ووحدانا وفيهم الرجال
والنساء شيخوخاً وشباناً واطفالا على غير المألوف . فاستغل خاطرها بالنظر اليهم
وفيهم جماعة عرفت انهم من المهاجران الذين كانوا يزورون والدها
ثم رأت الناس يوجون موج البحر يتقهقر بعضهم شمالاً والبعض الآخر يمينا حتى
فعلوا طريقاً واسعاً فادركت ان احد الكبراء داخل . فصبرت . واذا برجل جميل
المخلقة ايض الشرة ذي هيئة وقار عليه ثياب موشاة تأتلق كبير العامة عرفت
حالا انه معاوية بن ابي سفيان والي الشام ورأت الى جانبيه رجلاً قصير القامة
وافرالهما اذعج الملع عيناه تكادان تنقدان حدة . فمشيا وهما ينظران الى الجمع
والناس سكوت اجلالاً لهما فلم تعرف اسماء رفيق معاوية ولكنها سمعت واحداً من
الحضور يقول بصوت عالٍ « انت لما يا عمرو يا ابن العاص انت نصير الخليفة
المظلوم » فعلت انه عمرو بن العاص

فوقفت تنظروا يدها منها فرأت معاوية ظل ماشياً الى دكة عليها قميص ايض
ملطخ بالدماء وطلعت ان الدكة المنبر وان القميص قميص عثمان فتذكرت مثل ذلك
الرجل على مشهد منها وتذكرت نائلة المسكينة وقالت في نفسها اين هي الآن ياترے

وكانت تفكر في ذلك وهي تنظر الى معاوية فرأته صلى ركنين وصعد المنبر فسكت الناس واصفوا فوقه واجال ينظر وحمد الله واثنى عليه وامر بالمعروف ونهى عن المنكر . ثم سكت لحظة وهو يخط لحية باصابعه وعينه تنقلان في الناس واحداً بعد واحد ثم تناول عن المنبر هات كانت معلقة بالقميص جعل يقلبها بين يديه وينظر الى الناس ويقول « اتعلمون ما بين يدي » . . . انها اصابع نائلة زوج الخليفة المظلوم قطعت بسيف القتاة وهي تدافع عنه « فتأملت اماء في الاصابع فاذا هي اصبعان وثي من الكتف واصبعان مقطوعتان من اصلهما ونصف الاجسام ^(١) ثم امسك معاوية القميص بيده وقال « اتعلمون قميص من هذا . . . انه قميص الخليفة المظلوم . . . انه قميص عثمان المقتول ظمناً »

ولم يكذبهم كلامه حتى ضج الناس من جوارب المسجد بصوت واحد « قتل عثمان مظلوماً . . . قتل مظلوماً » وسمعت بعضهم يقول بصوت عالٍ « اقم بالله ورسوله وخليفته ان لا يسني ما لا للفصل من الجنازة وان لا اتام على الفرش حتى اقتل قتلة عثمان ومن قام دويهم » وما اتم الرجل كلامه حتى ضج النساء والاطفال بالبكاء والعويل وبما تقوى على المنبر ليكبوا على القميص والاصابع فجرم معاوية فعادوا الى اماكنهم وعاد هو الى كلامه واسماء تكاد تميز غيضاً لما سمعته من التعريض بعلي ومحمد وما آسفته من التهديد . فنارت المحبة في رأسها ولكنها صبرت نفسها لعلها ان موقفها خطر . فسمعت معاوية عاد الى كلامه بين تحريض وتعريض وهي صابرة حتى سمعته يقول « ان علياً قتل عثمان وآوى قتلته » فلما سمعت ذلك لم تعد تستطيع ضرباً فتحولت من النافذة اسرع من لمح البصر وهرولت الى باب الجامع بعباءتها وكوفتها . وفيما الناس يسمعون خطاب معاوية اذا بفتاة وقفت فيهم وعينها تنقدان غيضاً وحنناً والى ما به تعلق في حياها فاستلعت اتباهم ففشطوا بالظر اليها عن سماع الخطاب اما هي فصعدت الى دكة من الرخام ولت وجهها الى الناس وظهرها الى معاوية وقالت وصوتها يرتعش وركبتها تصطكان « ايها الناس اراكم تسمعون وتذهبون لامر لم تشاهدوه ولا اتم على بيعة منه لانكم لم تكونوا في المدينة ولا شاهدتم مقتل الخليفة . يقولون لكم انه قتل مظلوماً بان علياً امير المؤمنين قتله وآوى قتلته وهو

افتراء واخلاق لان علياً اول من دافع عنه بلسانه وسيفه ولولاديه . قُتل عثمان ايها الناس والحسن والحسين في داره وقد تطلع وجه الحسن بالدم ولولم يأمرها عثمان بالكف عن الدفاع لبدلا النفس عنه . على انها لم يجعوا مع ذلك من تأنيب الامام . وقد شهدت ذلك بنسي ورأيت رأي العين . فاتهم علي بمقتلوا افتراء وقتله لا يصيب القائم بها الا ما اصاب اصحاب الجمل في البصرة . فزعمون انه قتل مظلوماً وربما كان زعمكم صحيحاً ولكن علياً لم يرد قتله بل هو اول من قال باستيقاظه خوفاً من هذه الفتنة فكيف تقولون انه قتله »

وما ائمت اسماء كلامها حتى صاح معاوية « من ذا الذي يتكلم من انت يا رجل »
فالتفت اسماء اليه وقالت « اني فتاة يا معاوية ولست رجلاً »

فجيب هذه الجسارة من فتاة بمثل سنه وتأثر من هيبتها وجمالها وانفتحا ومع كل غمظو وحنقوا لم يأمر بالقبض عليها ولا المثلة بها ولكنه دعاها اليه والناس شاخصون ينظرون كأنه يريد مجادلها في الامر . فاشار اليه وعرو اشارة فهم منها انه لا يليق به ان يجادلها امام الناس لان الجدل يقلل قيمة برهانه عندهم ويزيدها وقاحة . فاعجبه دهاء عمرو . فلما صارت اسماء بين يديه امر بالقبض عليها فتكاف بضعة عشر من رجاله لشد وثاقها فصاحت فيهم « تعبهروا على فتاة وانتم رجال ولا حاجة الى شد الوثاق فاني لا افر من بين ايديكم . ولكن طار عليكم ان تدفعوا الحق بالقيود والاغلال وهو انما يدفع بالبرهان والجدال »

فاشار معاوية ان يسيروا بها الى السجن كما هي حتى ينظر في امرها بعدئذ .

الفصل السابعون

❁ حلمٌ لذيذ مزيج ❁

ولا تسل عن حال اسماء لما وجدت نفسها في حجرة لا يدخل اليها النور الا من كوة في اعلى الجدار وليس في الحجرة الا حصير ال . فتأملت في حالها وقد جردت من سلاحها مع ما هي فيه من الضنك وما تتوقعه من الشفاء فتدتمت على ما ابدته من الجسارة

في الدفاع عن عليّ ولكنهما شعرت انهما فعلت ذلك بالرغم عنها فقد كانت لا تسمع ذكر عليّ الا طربت واستعرت او خافت وطميت وهي لا تقدر على كبح احساسها فلما خلت بنفسها في تلك الحجرة المظلمة تمثلت لما حالها كما هي فتذكرت ما مرّ بها من الاحوال منذ حداثتها وما قاعدته من البلاء في اسفارها وجهادها وما كان من وفاة والدتها قبل وصولها المدينة وضياح ذلك السر (ولما وصل ذهبا الى هناك اعترض ظلمة كدرها نورٌ ضعيف لما تجد من آمالها بكشف السر على يد القديس مرقس) ثم تصورت مروان وما ساعها من العذاب في بيت الخليفة عثمان وتذكرت ان هناك كاشفت محمداً بامر الحب فانيسطت نفسها . ثم تذكرت اسفارها الى مكة وما لاقته فيها من المرض والصب وما عتب ذلك من اسرها ومسيرها في الصحراء تحت خطر الموت والعار حتى قضى الله بجهاتها فمادت الى خطر آخر ونجت منه ثم بشرت بالكشف عن اصلها ثم حضرت وقعة الجبل ...

وما زالت تتسلسل الافكار في ذهنها حتى وصلت الى ما جرّ عليها ذلك السجين فعظم الامر عليها واشتد الاسف بها حتى اجشمت للبكاء فحاولت التقلد لئلا يقال انما بكيت من اليأس او الخوف وهي انما بكيت لتكد حظها وسوء طالعها وما يقف في سبيلها من العقبات التي لم تكن تخطر لها بال . فالتفت الى ما حوّلها فلم تجد احداً وتماولت بعنقها الى باب السجن فرأت السجان في غفلة عنها . فاطلقت لنفسها عنان البكاء واخذت تناجي نفسها تارة تذكر والدتها وطوراً يحيبها وآونة عليها وأخرى تندب حظها . واستغرقت في ذلك حتى نمت نفسها وغاب رشدها كأنها اصيبت بنوبة عصبية فلم يعد في أمكانها اسماك عراطها عن البكاء والصب

وما زالت في ذلك حتى تعبت فغلب العاس عليها فنامت على ذلك المحصر . فرأت في منامها كأن والدتها ماشية غوها على بساط من الورد المشور وعليها حلة ارجوانية طويلة الذيل مزركشة بالذهب فجرّ وراءها وعلى رأسها تاج من زهر الرمان — رأها تمشي الهويناء وهي تلمس الخطى كأنها تحاذران نشوش مهيب النسيم . فبلغت اماء لرؤية خيال والدتها وخصوصاً لما رأها صحتها الكاملة وقد ارتد اليها لونها وتوردت وجنتاها واشرق وجهها . وظلت اماء مبغونة شاحصة الى ذلك الخيال حتى سمعنها تقول بصوت رخم وهي تنسم « هل عرفت والدك يا اماء »

فأسرعت اسماء اليها وألقت نفسها على صدرها فاشتكت رائحة الوالدية فاتعشت وجعلت تنشفها وهي تقول « لا لالا يا اماء لم اعرفه بعد ... قولي لي ... قولي فقلد نلد صبري »

فضمها والسمها الى صدرها وهمت في أخذها قائلة « اخفضي صوتك لئلا يسمعك الامام »

فاطاعنها وقالت بصوت خافت « قولي لي يا اماء من هو والدي » قالت « اما جئت اليك الآن لاخبرك بذلك فاعطي اب والدك هو ... » وسكنت لحظة وهي تلتفت بينا وبيننا وشالاً وعيناها تلعبان كان الماء يقشاشها واسماء شاحصة اليها يصصرها وقلبها يكاد ينشق لاستقبالها طأذنها مفتوحة لسماع اسم والدتها . ولكنها ما لبثت ان شعرت بوالدتها ترتعد وقد اخذ لونها بالانقطاع وهي شاحصة الى شيخ قادم اليها . ثم رأنها اجثت وحاولت الفرار فتعشبت اسماء بها وهي تقول « امكبي بالله لا تذهبي قولي لي اسم والدي » فلم تنفث اليها ولكنها حاولت القمص منها واسماء ممسكة ثوبها . وفيما هي في ذلك افاق من نوحها مذعورة فرأت نفسها في تلك المنجزة المظلمة على ذلك الحصار القدر وسمعت صوتاً لم تكن تتوحيته تدرك طلة اذها حتى ارتعدت فرائصها لمشابهة صوت مروان بن الحكم عدوها القديم . فقالت في نفسها « اعود بالله من تكذ حطلي على يد هذا الرجل ألا يزال ذكره شوماً علي حتى في احلامي . كنت في الد الاحلام فابقظني بصوته »

وكانت تتكر في ذلك وهي تمسح عينيها باناملها لتفحق اذا كانت في بقتة ام في منام . فما كادت تفتح عينيها حتى رأت مروان واقعاً امامها وقد قلد حسامة طاقن هندامة . فلما رأتها استعادت بالله ولم تلتفت اليه

فتقدم مروان نحوها وهو يقول : لقد صفنا عما مضى يا اماء اذا كنت ترجعون عن غيبك وتعلمين ان محمداً وطليلاً لا يقينان عليك فتبلاً . ها انت الآن في دمشق مسقط رأسك ومقر آبائك . مالك وللمدينة والكوفة . اصغي لصحي وارجعي عن عداك واعطي انك اذا اطعني هذه المرة صفحت عما مضى وكتبت اسعد فناء وألا فالك مقتولة لا محالة لانك في قبضة يدي افعل بك ما اشاء . واعلمي ان معاوية سيبحث اليك يستطلع اقوالك بشأن ما همت به في المسجد ما لا يأتيه الا كل مختل الغمور فاذا شئت البقاء حية

اعذري عما فرط منك وكوفي مع القوة ولا يفرنك انتصار علي في البصرة فانتميلني منا
سيوفاً نفلٌ ورجالاً لا تردُّ وقلوباً كاشجر الصلد وستخرج الخلافة من يدي فيضع
لنا هو واولاده وكل من يلوذ به »

وكان مروان يتكلم واسماء ترتمش وقلها بكاد يفر من صدرها لشفة الناثر
وصعد الدم الى وجهها فتوردت وجنتاها واحمرت عيناها وهي مع كل ذلك لا تزال
مطرقة تفكر في ماذا تنجي وقد اجنت ان حياها بين يدي ويدي معاوية فحدثها
نفسها لاول وهلة ان فصل يمتنضي عواطفها فتنبهر مروان وتوبخه ولكنها تذكرت
مؤثرها في ذلك الصباح في المسجد وما آكل اليه امرها بسبه فامسكت نفسها وتجلدت
وهي تكلم اللفظ ولكنها لم تستطع جواباً

فظن سكوتها ليلاً او رضاء فدنا منها وبالح في نفسها فقال « لعلك تذكرين
ما عاينتي به من الجفاء حتى الآن وانا اعذرك وارجو ارفعاءك لانك انما كنت
مدفوعة الى ذلك بطيش الشبهة وكنت تحمين محمداً اهلاً لك وقد رأيت كيف
انقلب امرهم جميعاً وكيف قام المسلمون عليهم يطالبونهم بدم الخليفة عثمان . ولا اظنك
تجهلين ما فعله محمد يوم قتلوه وقد كنت في جملة الشهود . ألم تريو دخل على الخليفة
وامسك بالحيثية وم يقتله فوبخه الخليفة وذكرته بوالده فرجع . اتحصين ذلك دفاعاً وانت
مع ذلك ترعين ان محمداً خيراً من مروان »

ففعل كلام مروان على اسماء ولا ثقل الجبال حتى كادت تصرح باحتقارها له
ولكنها حاولت الكفم والسكوت فظفحت عواطفها عن طريق العينين فانسكب دمعها
قطرات تسابق بعضها بعضاً وهي مطرقة لانتظر اليه

ففرح مروان وتحقق ندمها وم بالذنوب منها والرجوع الى الحديث واذا بالسبحان
دخل وقال لمروان « ان الامير بصت رجالاً يستقدمون السجينة اليه » فاخذن بدخولهم
وقدم السبحان وهو لا يحسر على مخاطبة اسماء الا بالوقار فقال لها تنظلي يا مولاتي
الى الامير . فوقفت وقد مسحت عينيها وخرجت فرأت خارج السجين بضعة رجال
بالسيوف والحراب فقال لم مروان لا حاجة الى سلاحكم وخفارتكم فانها تسير بنفسها
الى مجلس الامير سيروا انتم عن بعد

الفصل الحادي والسبعون

﴿ مجلس معاوية ﴾

وسارت اسماء بقدوم ثابتة وقلب لا يهاب الموت ومروان يمضي وراءها وقلبة مبتغى
بما تجدد من آمالو في الحصول عليها . لانه كان لا ينظر اليها الا سحر جمالها ومهيبتها .
ولقد يكفي من الثغر في الحصول عليها ان يهر محمدًا وينقلب

وبعد بضع دقائق وصل الجميع الى قصر منيع من بناء الرومان كان في الاصل
قصرًا لحاكم الشام من الروم وعند بابو بعض المقر بالسيف والحراب . فدخلت
الى دار واسعة ومروان يسير امامها يهديها الى قاعة المجلس فخرج بها حول البركة
حتى دخل قاعة كبيرة فيها الوسائد والطنافس على الجانبين وفي صدرها معاوية على
مقعد وإلى جانبيه عمرو بن العاص ولداه محمد وعبد الله وبين ايديهم جماعة من
الامراء لم تعرفهم . فدخلت ووقفت ونظرت الى الحضور نظرة فاحص بسكينة
وجلال ثم وجهت نظرها الى معاوية غير هائبة

فظهر معاوية اليها وتأمل ما يعجل في وجهها من الهابة وكانت لا تزال غاضبة
وقد قطعت اسرها وازدادت هبة فاعجب معاوية بهيبتها وجمالها وكان قد أعجب
بشجاعها واقدامها . فلما وقفت بين يديه قال لها « ما الذي حملك على الجرأة التي
ظهرت منك في المسجد اليوم »

قالت انما حملني على ذلك الحق والصدق فقد سمعت تعريضاً برجل اهتمتوه
بهما هو بريء منها

قال معاوية وما ادراك ببراءته وانت فتاة قاعة في بيتك
قالت اني اعلم من الامرقوق ما يعلم كل واحد منكم وقد تحققت بنيتا ان علياً
امير المؤمنين بريء من هذه التهم
فاعترضها عمرو بن العاص قائلاً لا تتولي « امير المؤمنين » فاننا
لم نبايعه

فقالت واذا لم تبايعوه انتم فقد بايعه سواد المسلمين في المدينة والبصرة والكوفة

ومصر وسائر الحجاز وهو ابن عم الرسول (صلم) وإحقى الناس بهذا الامر فقال عمرو اراك تحكيمن وتفصلين في امور يظهر انك تجهلينها . فلو اجمع الناس على بيعتي ما اضطر الى الحرب وسفك الدماء . يكفيوا انه سبب قتل الخليفة عثمان الذي اصبح دمه طليعة ما سفك ويسفك من الدماء فنظرت اسماء الى عمرو وقالت الست عمرًا ابن العاص

قال اللهم نعم

قالت « ألم تكن اول ناظم على ذاك الخليفة المقتول لانه عزلك عن مصر وولاهها أخاه عبد الله . . . ألم تفرح بقتله . . . ولكن الدهاء اوجب بمدك والناس يعلمون من هو القاتل او الساعي في القتل » قالت ذلك وقد ظهر التأثير على وجهها مما بدا عليه من الاستفاح

فعظم جوابها على عمرو وخاف تماذيبها في الجراء فقال لها « من انت يا فتاة » قالت من هذا المكان

قال اني اسألك عن اميك

فسكتت ولم تجب فتقدم مروان وهو يرجوان يخفف غضب معاوية وعمرو عن اسماء طبعًا برضاها واستبقاها وقال « انها أموية وهي بنت يزيد الأموي وقد قتل ابوها رحمة الله في جملة من قتل يوم مقتل عثمان

فقال معاوية أموية انت فلم تجب

فقال كيف تكونين أموية وتقولين غير قول بني امية وهم مجمعون على ان عثمان قتل ظلماً وقد نهضوا جميعاً للاخذ بثاره

فقالت « لا بهمني أموية كنت او غير أموية ولكنني اشهد بما اعلم . فانا لا أرى احداً مظلوماً في هذه التهمة الا امير المؤمنين علي بن ابي طالب واني اقول اعتقادي رضيت ام غضمت . ولعلكم تهمدوني بالقتل او السجن فلا ابالي بالتهديد ولا بالوعيد هذا قولني قلته فافعلوا ما تشاؤون »

وكان مروان في اثناء كلامها يفكر في ما يرجوه من رضاها وعيناه شاخصتان الى المحذور لئلا ينظر اليها احد فنظر الراغب فيها وودّ لو انهم يقطعون الحديث لئلا تقول قولاً يثير غضب معاوية فمأمر بقتلها

اما عمرو فرأى بحسن فراستو ودهائه ان يظهر الاستخفاف بكلام اسماء ويبدى
الرفق بها لانه رأى لا ترضخ بالمف . وخاف ان نقادى في كشف ما كان ساعيا فيه
على عنان قمل قتلوه . فقال لما اراك بابنية مغرورة ومن الصب ان نجادلك وخصوصا
ان النبي (صلم) اوصانا النساء رفقا لانهن ضعيفات وبالأخص امك أموية
من لحمنا ودمنا . فارقتي بنفسك وارجعي عن غيك وامكثي عندنا في امن واقلمي عما
انت فيه

فقلت لا تستضعفوني ولا ترحلوا رجوعي ولا تحسوني أموية ولا هاتمية فافعلوا
ما تشاؤون وقد قلت لكم اني لا اهاب الموت ...

فتقدم مروان الى معاوية وهمس في اذنه قائلا « أرى الاقتصار عن جدالها
فاتركي امر اقناعها اليّ لاني اعرفها قمل ذهائها الى المدينة فقد كانت مقبلة في
دمشق واعرف والدها ووالدتها واما ضمن اقناعها اما طوعا واما كرها اذ لا يلقى
بنا استنباهها على هذا العناد فاما ان ترجع عن رأيها او ان نقتلها والقتل امر
مستدرك فأرى ان نقنعها بالحسنى » ثم تحول الى عمرو وقال بجملة اثنان
ولا سمعة اسماء « ولا يحق علينا اننا اذا اكتسبناها لحزبا اطلعنا على كل غمات
على ورجالها لانها عالمة بكل اسرارهم فاتركا هذا الامر اليّ » قال ذلك وتعي جاسا
واسماء خاتمة ما بدا منه . فقال معاوية خذوها الآن الى منزل مروان وسنظر
في امرها

فقطعت الحديث قائلة العلى منزلة بحسن

قال كلا

قالت « بل خذوني الى السجن حيث كنت في هذا الصباح »

فخاف مروان اذا اصر على امرها ان تصرح بشيء ضده فقال « خذوها
الى السجن » وحول إلى ان يحاط بها هناك



الفصل الثاني والسبعون

﴿ ظلة السجين ﴾

وأشار معاوية الى المختر فساروا واسماء تمشي امامهم غير هائبة ولا جزمة . وأما مروان فانه اسر الى كبير الخفران يجعلها في غرفة من غرف السجين منفردة وان يضيئوا عليها لعلها تشعر بجاحتها الى استنجاده . ولم يدركوا السجين الا بعد الغروب فدخلوا بها والسجين معهم من باب كبير الى دار كبيرة اتصلوا منها الى دهايز مظلم اتهموا فيه الى بضع درجات تزلوا عليها الى دار صغيرة تستطرق الى غرف عديدة دخلوا في احداها واتصلوا من هذه الى حجرة اخرى واطلة السقف مظلمة تتصاعد منها رائحة الرطوبة والعنونة وقد نبتت الطحالب على جدرانها وتغلب الماء عليها . فأقعدوها على حصر بال ورجعوا وظل السجين وحده . فلما خلاها نظر اليها وكأنه اشفق على شبابها وتوسم فيها مهابة وجلالاً ولكنه لم يخاطبها فتركها على ذلك المحصر وعاد وهو يروحان تخاطبه هي وتلتبس بجذته متى احسّت بالوحدة او شعرت بالمجوع والخوف اما هي فلما رأت نفسها في تلك الغرفة وقد خلا المكاتب من الناس واستولى السكوت على تلك الجدران العفنة لمحت تفكر في حالها وما صدر منها في حضرة معاوية من الاقوال مخافة ان تكون قد فاهت بها يدل على عجز او خوف فرائت انما ادت الامانة حقها . ولكنها مع ذلك تأسفت لانها لم تسمح لها الفرصة باستئناها الكلام وقضت ساعات وهي جالسة لا تبالى بالظلمة ولا بالمجوع او بالخوف لعظم تأثرها ثم انتهت لنفسها وما هي فيه من الخطر اذا لم يكن من معاوية ورجالوه من مروان وآماله وايقنت انه آت اليها تلك الليلة طمعاً برضاها . والموت عندها خير من اجابة طلبه فالتفت الى ما حولها وهي لا تكاد ترى جدران الغرفة لشدة الظلام فاصفت بسمها لعلها تسمع شيئاً او كلاماً فانما كل شيء هادئ ساكناً لا يكرسكونه الا وزوزة البعوض حول وجهها وتيق الضنادع نقيقاً ضعيفاً يظهر من جهته وضعفه ان السجين قائم على ضفة نهر بردى الذي يتشعب في دمشق فيسقي اهلها بمسائل من الحجارة او الخنزف متفرقة في كل منازلها . فاستأنست بذلك النقيق ولكنها استوحشت الظلمة الدامسة مخافة ان تغتالها عقرب او ثعبان على غرة

وفيا في ساحة تكرر في حالها وقد شغلها الوحشة عن الافتكار بالمخطر المهدق بها سمعت خطوات بطيئة تدل على سرقة صاحبها في مشيتو فجبذ الدم في عروقها وخافت ان يكون ذلك القادم مروان آتياً نحوها . فوجهت انتباهها نحو الخطى وقلها يخفق بشدة وسرعة حتى كادت تشعر بخفتائو في عثها . فاذا بذلك الصوت يقترب نحوها فاجلست ونهضت ونهيات للدفاع اذا رأت لزوماً وليست تتظر ما يكون . فاذا بالمخطرات تسرع وتبتعد وتضعف حتى لم تعد تسمعها . فعلت ان واحداً كان قادماً نحوها ثم رجع فازدادت قلقاً وظلت واقفة وركبائها ترعدان لعلم التأثر وودت لو ان ذلك القادم وصل اليها لتعلم من هو وما غرضه واما رجوعه فقد زاد بليلها . وصمت في باطن سرها ان تسهك في سبيل الدفاع وان القادم اذا كان مروان فتصرح له بما في ضميرها ولو آكل ذلك الى القتل

ولبت برهة لم تعد تسمع في اثناهما صوتاً ولكنها ما برحت مضطربة شاخصة بعينها الى الجهة التي سمعت بها الصوت وطال ثغوصها حتى لم تعد تستطيع اطباق اجفانها ونسيت موقفها برهة

وفيا في ذلك لحت نوراً ضميئاً في دار السجن الصغرى فاستأنست به ولكنها تذكرت مروان فخافت ان يكون قادماً اليها . طلى انها تنبصت وقالت في نفسها فليأت اما اقتله او يقتلني فاسترجع من هذه المخاوف . ولم تك تكرر في ذلك حتى رأت النور يتعاطم ويقترب ثم بان المصباح بجملته رجل عرفت من لباسه وقيامته انه السجان فهذا روحها . ونظرت اليه فاذا هو يحمل المصباح في احدى يديه ويحمل بالآخرى قصعة فلما دنا من غرفتها تاكدت انه السجان

فلبست تتظر ما يبدو منه فاذا هو يقول لها ساعيني يا سيدتي لاني تركتك الى الآن بلا طعام ولا نور فاني لم اكن اعرف امك تنهين الى الامور مروان فلما سمعت ذلك الاسم ارتعدت فرائدها ولكنها لم تحب . وكان السجان قد دخل الغرفة ووضع المصباح على الارض وقلم القصعة اليها وفيها خبز ولحم وهو يقول هذا طعام بعث به الامور مروان اليك وكنتني ان اطعمتك امك لن تبيق في هذا المكان الا الليلة وفي الغد ينقلك الى منزله

فغرت منه وقالت لا حاجة بي الى طعام فارجع من حيث اتيت

فقال لقد قضيت طول النهار بلا طعام ألا تأكلين شيئاً
 قالت لا لست جائعة عد بالطعام حالاً
 فحسب السجان لقولها وقد كان يتوقع ارنياحها لالتفات مروان فقال لها « ولماذا
 هذا يا سيدتي . . . كي . . . تناولتي لقمة تسدين بها جوعك
 قالت خذ الطعام اني لست جائعة . قالت ذلك وحولت وجهها عنه
 فقال دعي التصمة والمصباح هنا افعلي بها ما تشائين وما اني حائد . قال
 ذلك ورجع
 فلما خلت بنفسها ظل بصرها على المصباح ثأمل حركاته والبعوض يحوم حوله
 وفكرها تائه وقلها يخفق كلما تصورته مروان قادمة نحوها . وراحت ان تسد ظهرها
 الى الحائط فاحسّت برطوبة فمادت عنه

الفصل الثالث والسبعون

﴿ طارق مفاجيء ﴾

وعاد المكان الى السكون مع طويلة وقد غرقت اسماه في مجار الهواجس ونسيت
 وجدانها ولكنها ما لبثت ان انتهت لموت اقدام تمشي في الغرفة الخارجية هدير
 فأبضت وتأكدت ان مروان قادم فحنق قلبها وصعد الدم الى رأسها ومجأت
 للنفك بـ . وحولت نظرها الى الخارج فرأت شيئاً قادمًا بخطو خطو السارق المتلصص
 وقد اقف بهيمة . فخافت ولكنها تجادت لثرى ما يبدو منه فلما دنا من باب الغرفة
 همّت ان تخاطبه فاذا هو يقول بصوت خافت « لا تخافي يا سيدتي اني جئتك
 بالفرج لا تخافي »

فلما سمعت كلامه ارتعدت فرائصها وتذكرت انها تسمع صوتاً نكرة فقالت
 « من انت »

قال اني عبدك مسعود لا تخافي . وقد جئت لاناذك
 قالت ومن اين انت ومن ارسلك هل هبطت من السماء ام خرجت من جوف الارض

قال لم يرسلني احد ولكنني كنت سجيناً في هذا المكان منذ تركتك في دير البصرى .
لاني خرجت من الدير وفيما أنا عاتد الى الكوفة ظفرتي جماعة من بني امية كانوا قادمين
بهمة من معاوية فقبضوا عليّ وساقوني الى هذا السجن لاني من صنائع ابن ابي بكر
واشكر الله لوجودي هنا لعلني استطع انقاذك من ايدي هؤلاء الظالمين
فاطمأن بالها ولكنها حسبت نفسها في منام مثل منام الامس . فقالت وكيف عرفت
اني هنا

قال رأيت المنظر لما أتوا بك عند الغروب ولبثت انتظر فرصة آتت بها اليك
وقد جئت منذ ساعة حتى كدت اقترب اليك فسمعت خطوات السجان فهرولت
راجعاً ولما الآن فلا خوف طيننا من السجان تعالي معي
قالت واين هو السجان

قال انه ذهب الى بيت مروان

قالت وكيف ذلك واخشى ان يكون باقياً

قال لا تخافي لاني حرضت على المسير الى مروان ليجزى برفضك طعاماً ومجرعة على
الجهنم للانتقام منك واطمئنت بهال يناله منه اذا فعل ذلك وعولت على الخروج في
اتناء غيابه
قالت « والباب »

قال يظن السجان المسكين انه اقله ولكنه لا يزال مفتوحاً تعالي قبل ان يعود
السجان أو يأتي مروان . فترددت برهة وقد اعطمت القرار
فأدرك سمعود تردها فقال لما التحسين خروجك من هذا السجن فراراً وما
في بقائك فيه غير الموت او العار . . تعالي . . اسرعي فاشدتك الله

ومشي فمست هي في اثر ثم عاد الى المصباح وقال ارى ان نطق هذا المصباح
لتأبى بدل طيننا . واطناً فاطمأن المكان ولم تعد اسماء تعرف الطريق فأملك بيدها
ومشوا وهي ترتعد حتى خرجا من الفرفة الثانية الى الدار الصغرى واطلاً على الدهليز
وما صعدا الدرجات حتى ممبا كلاماً في طرف الدهليز الآخر ما يلي الدار الكبرى
فوقنا يتصنان فاذا بمروان والسجان قادمين ومروان يقول * لا بد لي من قتلها اذا
ظلت على عنادها وقد كنت اتوقع هذا العناد منها ولذلك فاني ارسلتك بالطعام

وسرت في اثرك .

فجهد الدم في عروق مسعود واسماء ولينا بالهلاك وشق ذلك على مسعود بالاكتر
لانه عرض اسماء للخطر

اما هي فامسكت اضطرابها وثبتت على يد مسعود وجرت الى خلوة وراء باب
الدعاز ازرعوا فيها وقلباها يخفان والظلام حالك ولينا يتظران دخول مروان
والسجبان فسمعا مروان يقول « هات المصباح ونعال »
فأجابته السجبان « ان في حجرتي مصباحاً تركته عندها »

قال ذلك ودخلا في الدعاز وصدى خطواتها يتعاضد رويداً رويداً حتى
بلغا الباب الثاني الذي اخبأ مسعود واسماء وراءه . فلما رأى مروان المكان مظلماً
وقف وقال للسجبان « اين هو المصباح اني ارى السجبان مظلماً »

فقال السجبان اني وضعت في حجرتي ولعلها اطلأ انه لكدها ووقاحتها لم يها لتري
فقال مروان اني لا ارى الطريق لئلا الظلام هات مصباحاً آخر
قال « لم يها تدخل ثم آتيك بالمصباح . . . ازل هذه الدرجات على مهل . .
ها اني اخطوها امامك . . تمسك بهصرع الباب من عندك » قال ذلك وتزلا ومروان
يؤكد بأحدى يديه على السجبان وبالاخرى على الباب حتى وصلا ارض الدار الصغرى .
فمشيا حتى دخلا الغرفة وهما يلمسان الارض

ولا تسل عن حال مسعود واسماء في تلك اللحظة فقد كانت عندها اطول من شهر
فحالما علما بدخول مروان والسجبان الى الغرفة اشار مسعود الى اسماء ان تخرج نعلها لئلا
يسمع وقعها وكان هو بلا نعال فخلعت نعلها وحملتها بيدها ونحوّل كلاهما من وراء
الباب الى الدعاز بخفة وسرعة ومنه الى الدار الكبرى فالباب الكبير وكان لا يزال
منفوحاً واسرعا الى الشارع وما صدقاها نعل

وكانت اسماء تعرف طرق الشام معرفة جيدة فلما بعدا عن السجبان وقفا برهة
يتدبران المكان الذي وصلا اليه فرفة اسماء فسارت تلتبس كهيئة ماري يوحنا

الفصل الرابع والسبعون

﴿ النجاة ﴾

وقل ان نصل الى الكيسة تذكرت خادمها والجوادي في الخان فوقنت تردد
بين ان تسير الى الكيسة أولاً او الى الخان . فسا لما مسعود عن سبب تردها
فقلت ان تردد بين ان اذهب الى كيسة ماري يوحنا فأقيم فيها او اسير الى
الخان حيث يقيم الخادم ومعه اندواب
فتعجب مسعود لترددنا بين الاثنين وهو لا يرى حاجة الى لكيسة لانه لا يعلم بما
اننا ها هو الراهب في دير الصرة . فقال وما لنا وللكنائس هم بنا الى الخان ومرة الى
الكوفة حالاً فقد بلغني ان الامام علياً وسائر الصحابة هناك
فتنهت وقلت نعم انهم جميعاً هناك ولكن لي في هذه الكيسة غرضاً يهمني واما
انما جئت دمشق من اجل ولا بد لي من انما . ولكنني ارى ذهاني الى الكيسة في آخر
هذا الليل ما يوجب شبهة او تساؤلاً والكيسة والمسجد متلاصقان اوها بناء واحد
فأرى ان امضي بقية هذا الليل في الخان فأرى الخادم وادبر اموره ثم اسير الى
الكيسة . قالت ذلك ومشت ومسعود الى جانيها فسألته هل انت عازم على الكوفة
قال نعم ان شاء الله

قالت اذا لم يكن ذلك فأوصيك ان تبلغ الامام ورجائه ما م فبواهل
الشام من النقية لعمان والطلب بدمو . وقصت عليهم ما رأته في المسجد من المعريض
والهديد بالاصابع والقبض الى ان قالت . وقل لم اتي باقية ما بضعة ايام اخرى
ربما تم مهدي و . . . ثم ادركت ان مسعوداً شديد الميل لمحنة السبب الذي يدعوها
الى البقاء هناك مع ما قاسته من المخاطر والعذاب وشعرت ان قاسها على كتمان عنة
مبالغة في احقاره بعد ان كان سباً في اغاذه من الموت والمار . فأجبت احاذعة
على بعض السر تشجيعاً له لما في ذلك من دلائل ائمة و الاعتقاد على وثقت بالكلام
فاذا ما قد وصلا الى باب اثنان ففرع مسعود الباب ففتح له صاحب الخان واراد ان
يسنهم عن ها وما غرضها فابتدرته اسما بالسؤال عن خادمها هل قيم هناك فاستأسن
بها ودعانا الى غرفة الخادم فدخلنا . وجلسا هناك في ما من وقد استولى التعب

على اسماء على أثر مناقشة من الجهد والسفر والسر والخطر
 واحس مسعود بعميقا فقال لما ها انا ذاهب الى الكوفة وساخير امير المؤمنين
 ومحمدا بما جرى ولكن اذا سألتني احدهما عن سب فائلك هنا ماذا اقول له
 قالت « قل له ان القسيس الذي جئت في التماسه غائب في بيت المقدس فاما
 ان انتظر قدومه او ان اسافر اليه » وقصت عليه بعض الحديث ونهض وودعها
 وخرج وظلت هي والخادم قبلت ثيابها وتناولت بعض الطعام ونامت والخادم في غفلة
 نامة عما وقع لها في ذلك اليوم . وظلت راقدة الى ظهر اليوم التالي حتى ارتاحت
 على ان نومها كان متقطعاً فتخلله هاجس وبلايل . وفكرت طويلاً في هل تنجم
 في دمشق ام تنفص بيت المقدس لمشاهدة القسيس ولكنها تركت ذلك الى ما بعد
 السؤال عن مة اقامته هناك وما يرجوه من الاسراع في قدومه

وقصت بقية ذلك اليوم في الخان وفي الصباح التالي لبست ثوباً غير الذي
 كانت فيه يوم المجد . واوصت خادمها ان يكتم كل شيء . فاذا سئل عن سب اقامته
 هناك لا يذكرها وخرجت تنفص الكنيسة من غير طرفها العمومية فدخلت الكنيسة
 وسارت تورا الى القسيسة فاذا هي في غرفتها تصلي فمكثت ريثما فرغت من صلاتها
 ودخلت عليها فلقيت منها ترحاباً عظيماً وكانت قد علمت بالقبض عليها وقالت لها
 لقد بكيتك يا ابنتي وتندبك مخافة ان تكوني قد اصبحت بسوء فقصت اسماء عليها خبرها
 من الوجهة التي تمها . ففهمت القسيسة ان حالها تستدعي الكتمان فقالت لها اقبلي هنا
 ما شئت وليس لاحد سبيل اليك اذا اقيمت معي في هذه الغرفة فانك بمنزلة ولدي

فلما سمعت اسماء قولها « ولدي » تذكرت والدتها فهاجت اشجانها وقالت في نفسها
 « لو كانت والدتي لا تزال حية لكنت في غنى عن كل هذه المناعب . آه ما اعز
 الامهات وما اشده حاجة البنات اليهن » . ولكنها اجابت القسيسة شاكرة وقالت اعلم
 ذلك جيداً ولولاه ما جئت بنفسى وقد كنت عازمة على الخروج من هذه المدينة لو
 لم اكن في انتظار القسيس مرقس . هل نظيتني بقم طويلاً في بيت المقدس

قالت لا ادري عزمه بقاءً ولكنني لا اظنه يطيل الاقامة هناك

وقصت اسماء اياماً في عجاها عند القسيسة تنتظر قدوم القسيس فابطاً ومكثت
 الانتظار وخافت ان يموت قبل رجوعه بالنظر الى شيخوخة وضعفه ولما تصورت موته

قبل اطلاعها على اسم والدعاهب جسمها واقشعر بدنها وخافت اذا سارت اليو ان يأتي هو من طريق آخر فلا يلتفتان فلبثت تتردد بين الامرين

الفصل الخامس والسبعون

﴿ خلافة الامام علي بعد وقعة الجمل ﴾

مرّ بنا ان الامام علياً لما انصر في وقعة الجمل نزل البصرة فبايعه اهلها فاستعمل عليها عبد الله بن عباس وسار على الكوفة فتمزما وانتظم له الامر بالعراق وبصر واليمن والحرمين وفارس وخراسان وبايعه اهلها ولم يبق خارجاً عنه الا الشام وفيها معاوية واهل الشام مطيعون له في الطلب بدم عثمان كما قد رأيت

وكان علي قد ولي على مصر قيس بن سعد بن عباد وهو من خيرة المهاجرين وكان من جهة الامام علي وهو من دعاة العرب . وكان في مصر جماعة يجرى بنا يرون غير رأيه ويظالون بدم عثمان ولكنهم معتزلون لا يخرجون لحرب فرأى قيس من السياسة والدعاه ان يكف الحرب عنهم ويداهم لئلا ينضو الى معاوية

وكان معاوية قد كتب الى قيس يستميله ويبدل له الولايات العظام فلم يجبه قيس الا دفاعاً عن علي . فاصطع معاوية عن لسان قيس كتاباً قرأه على الناس في الشام يوحىهم ان قيساً معه . وانه لذلك لم يقاتل المعتزلين في غرنا . فلغ ذلك علياً فصدق الوشاية في قيس وعزله عن مصر وولي عليها محمد ابن ابي بكر (١)

ولم يكن لعلي شائل جهة بعد وقعة الجمل الا معاوية وجنود الشام فرأى ان يبعث اليه يطلب يعمته فبعث اليه جرير بن عبد الله البجلي في ذلك ويطلب منه الدخول فيها دخل فيه المهاجرون والانصار . فسار جرير الى الشام فاطلة معاوية منه ريثما اراه حال اهل الشام وما يقاسونه من البكاء والعويل عند قبض عثمان واصابع نائلة كما تقدم فرجع جرير بذلك الخبر الى علي . فلم ان لا بد له من الحرب فسار من الكوفة في جيش يئتمس الشام وقد علم بما تحالف عليه معاوية وعمره . وسار

معاوية وعمرو من الشام يطلان طياً ولكنها ابناً في السهر حتى التقى الجيوشان في صفين . ودخلت سنة ٤٢٧ هـ والجمعان في صفين (صفين) وصِفْن موضع غرب الرقة على شاطئ الفرات من غربيه (١) بحيث تكون الرقة على الضفة الشرقية وصفين في الغربية والفرات بينهما . او هو بين الرصافة في الجنوب والفرات في الشمال . بين صفين والكوفة نحو ثلاثين ميل او أكثر وبها وبين الشام نحو نصف ذلك . وهي من الشام في الشمال الشرقي ومن الكوفة في الشمال الغربي

هناك نزل الجيوشان العظيمان بقودها اعظم رجال الاسلام وغلبة المهاجرين والانصار . في ذلك السهل الطامح جرت واقعة صفين المشهورة التي قتل فيها عشرات الالوف من الرجال . وقد نال فيها علي ما ناله في وقعة الجمل من النصر والغلبة . ولكن هل انتظم له الامر بعدها . كلا . فانها كانت خاتمة نصرته على مناظرته في الخلافة . ولم يكن ذلك لضعفه عزو ولا لعلو حسبه ولكنهما حيلة دبرها عمرو ان العاص فتنت فيو وفشل رجاله واقسموا فيما بينهم كما سمعوه

الفصل السادس والسبعون

﴿ اسماء وجداهها ﴾

ولثت اسماء اياماً واسابع عند القبيصة تنتظر عود القبيس من بيت المقدس فلم يرجع فقصت لابطائو الف حساب وانفل بالها ولم تر خيراً من ان تدرج في اليو بنفسها فاستشارت القبيسة في الامر فاستغرت قلتها وتسرعها في مشاهدة القبيس فقالت لها وهل تحتاجين الى القبيس في امر يدعو الى هذا القاتل فتأومت الغاة وسكتت كأنها تريد مكاشفتها بما في ضميرها لعلها تخرج كربتها فقالت لها القبيسة قولي يا ابنتي ما الذي اوجب تهديك عساي ان اشكك قالت اني احاج الى سيدي القبيس في سرعه عن والدي لا يعرف احد سواه

وقد كانت والدتي فقط تعرفه وباحت بالقميص . ولما الآن فلم يبق غير عارفاً به فادركت القيسة ان والدتها ماتت فلم تنأ أن تذكرها بها ولكنها احبت ان تعرف ما هو موضوع ذلك السر فقالت وهل يجوز ان اعرف ما هو ذلك السر قالت اعترف لك يا سيدتي اني رست في دمشق في حجر والدتي ورجل كنت احببه والذي فاخبرتني والدتي يوماً ان ذلك الرجل ليس والذي فسالها عن والذي المخوفتي فوعدتني باطلاعي عليه في فرصة اخرى . ونصت اماء قصتها على القيسة من اولها الى آخرها ما يتعلق بحقيقة والدها

وكانت اماء تكلم والقيسة تنظر اليها وتتأمل ملامحها فلما فرغت من كلامها تبسمت القيسة وهشت لما وضعتها وقالت أليس لك امر مرم

قالت « نعم يا سيدتي » واستأنست بجنونها

فقالت مسكية والدتك

فقالت اماء وهل تعرفتها

قالت اعرفها جيداً قل ان تزوج وكانت كثيراً ما تأتي الكنيسة للصلاة مع والدتها وكنت اما بونث شابة وهي صبية وكنت احبها كثيراً فلا يضي عيد من اعيادنا الكبرى كالصح والسماون واليلاذ وغيرها الا كنت انا والقيس على مائدة جديك رحماً الله . واذكر انه كان لوالدتك اخ جميل الصورة حاد الذهن كان يأتي مع امك والدتها الى الصلاة . وظلنا على ذلك حتى جاء ما العرب مذ بضع وعشرين سنة فدخلت هذه المدينة واسئلوا عليها وفرقوا ثملها . وكانت والدتك قد اصحبت شابة وهي في مثل خالك جمالاً وذكاه ولم اعد أرى جديك ولكنني سمعت انها قتلت . اما امك فبلغني انهم اخذوها سبية ولم اعد اراها الا مدحام وهو في العام اذ انت الى القيس وادكر اني رأيتها وهي داخلة فمكثت عنده رهة ولما احسبني اعرفها ولما خرجت سألت القيس عنها وان يكن سؤالي تطللاً وقلت « اليست هذه مرم بنت قسطنطين (وهو اسم جديك) » قل لي هي ولكنني رأيت على وجهه بعد خروج والدتك من عنده اثر الاقباض ورأيت الدمع في آماقها فانتقل خاطري ولم أسأله عن السبب مخافة ان يكون سؤالي من قبل التعليل لعلي ان القيس مستودع اسرار كثيرين وقلت في نفسي لو كان غير هذه المرأة ما يجوز ذكره

لما تأخر عن ذكره لي فسكت . اما هو فكان انه ادرك عظم قلبي لمعرفة خبر والدتك لما يعلمه من رابضة المودة بيننا فلما جلسنا على المائدة في المساء اخبرني عن كيفية سببها وسبب غيابها عنا كل هذه المدة وفهمت من خلال كلامه ان الرجل الذي كان معها يومئذ ليس والدك وان والدك رجل آخر

فقلت اسماء بلهفة « الم تعرفي اسم والدي » . قالت كلاً لاني لم اسأله عن ذلك فاستأنت اسماء بالتسيسة وازدادت ميلاً اليها فقالت لما بماذا تشيرين علي الآن أنتظر رجوع التسيس ام اسير الى القدس فاستطلعه السر فقصت التسيسة كآنها تنكر في امر ثم تغير لونها بفئة واتبض وجوها ونظرت الى اسماء والسمع يتلأأ في عينيها وقالت اري ان تنهي الى بيت المقدس لان التسيس اصبح شجاً هراً . قالت ذلك وغصت بكلامها

فادركت اسماء انها تخاف انقضاء اجلها عاجلاً فتجاهلت عما بدا من عواطفها وقالت ها اني ذاهبة والانكال على الله . ونهضت للحال فودعت التسيسة وخرجت تلتبس الخان وفيه خادمها والجواري فامرته بالاستعداد وفي صباح اليوم التالي ركبت وسارت قاصدة بيت المقدس

الفصل السادس والسبعون

✽ التسيس مرقس وانطاكية ✽

وكان التسيس مرقس كما تقدم يعرف جدي اسماء واهلها قبل النسخ وله انعطاف خصوصي لما فلما نزل السر من مريم والدة اسماء شاركها في عواطفها وبلاياها وازداد انطاقاً لها وود لو استطاع ما يفرج به عنها . فلما جاءته المنة الاخيرة قبل سفرها الى المدينة واخبرته انها عازمة على كشف امرها لاصحاب الشأن هناك سر ولكنة رآها مريضة ضئيلة فتشام من منظرها وتوقع قرب انقضاء اجلها فاوصاها ان تبيت اليوم بما يتم لها وهو انما يريد بذلك تخفى وصولها الى ما منها حجة . فلما مضى الامم ولم يرد عليه خبر تعاطف قلقة عليها وكان كلما سمع اسم يثرب (المدينة) تجدد بلباؤه وود

لو يرى اسماء ليغيرها عن والدها ولكنه لا يعرف مقرها . فلبث وذلك شأنه حتى جاء
الامويون فقبض عثمان واصابع نائلة وكان ما كان من بكائهم وعويلهم وعلم ما حدث
من الفتنة في المدينة فازداد انشغال خاطره واثرت تلك الغفوة في صحوه فاضطرب
ضعفه وعجزه ان يبرح دمشق الى مكان يستكن فيه ريثما تهدأ الاحوال . فخطرت له
المسير الى بيت المقدس لان له فيها اهلاً يرتاح الى مجاورتهم فركب الهياكل ووصل
اسماء الى دمشق ومكث هناك مدة وهو لا يزداد الا ضعفاً ولم يجد رحب اهلوا واحباؤهم
به نفعا واحسن بقرب الأجل

فخطرت له الركوب الى انطاكية وهو الكرسي البطريركي الذي سيم فيه قسيساً
فهرى البطريرك الانطاكي ويترود الاسرا الى المقدسة على يدك قبل الوفاة واتفق ان مركبا
امبراطورياً كان راسياً في مياه عسقلان انفذ الامبراطور قونسطانس الثاني ليجلب
البطريرك الاورشليمي الى انطاكية لخايرة بطريركها في بعض الشؤون الدينية التي
كان الخلاف قائماً عليها في تلك الايام . وكان البطريرك الاورشليمي قد علم بزم
القيس مرقس على انطاكية فدعا له ليمر اليها معه بجرأ لان العمل صعب ولا
خوف من الانواء والطريق في البر شاق لما يقتضيه من ركوب الدواب وقطع
الجبال والادوية فسر القيس بتلك الدعوة وسار في حاشية البطريرك على البغال
والحبر الى عسقلان على ان يسيروا منها الى انطاكية في المركب الامبراطوري

واتفق وصول اسماء الى القدس بعد خروج القيس منها ببضعة ايام ولما اخبروها
انه قصد انطاكية استعادت بالله ما اتفق لها من النص في اسفارها الاخيرة وبانت
ليلة وصولها في الخان حزينة لم ينشف دمعها طول ذلك الليل لفرط ما تولاه من
الفتنوط فاصبحت شديدة الاعتقاد بنفس طالعتها

على انها اصيبت في اليوم التالي وقد هدأ روحها فاستغسنت ارادتها وتمقلها
وعادت الى رابطة جاشها فقالت في نفسها لا ذهبن الى انطاكية على عجل قبل ان يخرج
القيس منها والاتكال على الله . فركبت جوادها وسارت والمخادوم في رفقتهما يقوم لها بما
تحتاج اليه من الخدمة في السفر . وفي حوثا توجهت متنكرة بلباس الرجال مخافة ان
يعلم مروان بها ولا ينهبها منه شيء الا التل وكان المسافر من القدس الى انطاكية
يغلب ان يمر بدمشق اما هي فجعلت طريقها في لبنان . وبعد مسيرة ايام وليال

اشرفت على انطاكية

وكان وصولها اليها في الصباح قبل طلوع الشمس والشمس لا تشرق على انطاكية الا متأخرة لاجتماعها بالجبل الشرقي. واشرفت اسماء على تلك المدينة العظيمة ام مدن الشام وكربي بطاركتها بل هي ثالثة مدن تلك الايام (رومية والاسكندرية وانطاكية) (١) فاطلت عليها من مرتع مشرف فاذا هي مستطيلة الشكل على ضفة نهر الاورنتس الجنوبية تحديق بها البساتين الفناء وفيها الاثمار والناكهة من كل الانواع. فانذهلت اسماء لعظمة تلك المدينة وما فيها من الابنية الشاهقة واكثرها من الكنائس فوقها القباب المزخرفة مهابك عن الشوارع التي لا تكاد تشرق الشمس حتى تنص بالناس. وما ذهبا بنوع خاص سورها العظيم وما طيو من الاراج التي يبلغ حددها ٢٦٠ برجاً وله خمسة اجاب. وتبعث ذلك الدور الواسع بنظرها لعلها تحيط بسعة المدينة فرأت انها تحاول حثاً لان السور يصعد مع الجبل الى اعلاه ثم يتزل من الجهة الاخرى بحيث يحيط بالمدينة ومزارعها جميعاً (٢) بها تزيد مساحتها على بضعة عشر ميلاً مربعاً

فبهتت اسماء لتلك المناظر العظيمة وكان بحر الروم يترامى لما عن بعد في الافق كأنه هلال مستطيل. وبعد ان وقفت هناك برهة تأمل بعظمة هذه المدينة تحولت الى باب من ابواب السور في الشرق اتصلت منه الى الشارع الاعظم وهو يتأخر المدينة في طولها من الشرق الى الغرب طوله اربعة اميال طوله من الجانبين اربعة صنوف من الاعمدة الرخامية تعلوها اقواس جميلة وفي الوسط طريق واسع مكشوف مرصف بالفرانيت. يحد من الجانبين مقعد من الرخام المنقوش. والشارع كله على استقامة واحدة تنفرع منه طرق صغرى الى كل من الجانبين فذهلت اسماء لما شاهده من العظمة والبذخ في انطاكية مما لم تر مثله قبلاً. وما زاد ذهولها واندهاشها انها رأت نيجان الاعمدة في ذلك الشارع الطويل محلاة بالذهب الخالص مما يتدر مثالة في اعظم مدن الارض. على ان ذلك المنظر الجليل كان ممزوجاً بما يدعو الى الاسف الشديد لما توالى على هذه المدينة من الرلازل التي دكت معظم ابنيتها فشوهت وحجها وغويت مجرى نهريها على ان العظمة مع ذلك ما زالت تنجلي فيها (٣)

(١) الانسيكلويديا البريطانية (٢) مراد الاطلاع (٣) الانسيكلويدية البريطانية

وما زالت أسماء سائرة تلتمس دار البطريق لعلها ترى القسيس هناك فوصلت الى بناء شامق يدخلون اليه من باب عظيم قائم على اعمدة من الرخام عتيبة العليا من الغرانيت الاحمر الجميل عليها نقوش باليونانية لم تستطع أسماء قراءتها . فاطالت من ذلك الباب الى فناء واسع مرصف بالفسيساء ينتهي الى سلم عريض يصعدون منه الى دار رحبة رأت فيها جماعة من القموس والثماسة وغيرهم يقطرون وكل اثنين او ثلاثة منهم في شاغل من الحديث . فقالت في نفسها أأدخل . . . فانذا كان القسيس ليس هنا فما الذي يدخلني . ثم سألت بعض الوقوف عند الباب عن القسيس مرقس فقال انه لا يعرفه . فتذكرت انه قادم على مركب البطريق الاورشليمي وانها يصلان معاً . فسألت عن البطريق فقالوا انه لم يصل ولا هم يعلمون زمن وصوله لان السفر في الجرائنا هو تحت رحمة الرياح فاذا هبت في جهة مسير المركب اسرع وصوله واذا حاكتة تأخر اياماً واسابيع . وطئت أسماء ذلك فقالت لا بد لي اذا من التريص ريثما تصل السفينة . وامرت الخادم ان يسير بها الى خان تقيم فيه

الفصل السابع والسبعون

* المسير الى صفين *

وقضت أسماء في الخان اياماً وهي على مثل الجمر تصعد احياناً الى الجبل تنطلع منه الى البحر لعلها ترى مركباً قادمًا . ولكن بعد الجمر من انطاكية كان كثيراً ما يحول دون رؤيتها شيئاً فاذا ملأت الاصطبار أرسلت خادماً الى الطريكية يسأل عن القادمين حتى لم يبق لها صبرٌ على البقاء هناك وايقست بسوء طالعها فقالت في نفسها لا يبعد ان تفرق السفينة بمن فيها نعيماً لشقاوي

وكانت غرفتها تشرف على الشارع الاعظم فاستيقظت ذات يوم من فراشها على ضجيج الناس وغوغامهم وجاينهم في الشارع فاطلعت من النافذة فاذا م جماعات من العرب بالعتة والسلاح سائرون على غير نظام بعضهم يحملون الاعلام وفيهم الفرسان والمشاة يتقدمهم بعض النساء بالدقوف بين مربع ومستدير يضرن عليها ويتشدن

الاشعار الحماسية يستغنون بها الرجال ويتنصن منهم . فطعت اسماء انهم من جند انطاكية ولكنها لم تنهم معنى جلبتهم فنادت الخادم فلم يجيبها لانه كان قد انخرط في سلك المارة بمجادثهم ويستنهم منهم عمام فيؤ . وبعد قليل عاد مسرعاً وامارات البغنة بادبة على وجهه

فقالت وما وراؤك . . من هؤلاء

قال م جماعة من جند انطاكية سائرون لنجدة جند الشام في صفين

فقالت بلى من

قال على جند امير المؤمنين علي بن ابي طالب

فقالت بلهفة وهل م في حرب هناك

قال نعم يا سيدتي انهم هناك منذ مدة طويلة لان بعض الذين خاطبتهم الآن يزعم انه كان في حملة سابقة وانه شهد معركة هائلة هناك انكسر فيها جيش الامام

ولم يبق كلامه حتى اقتشع بدن اسماء وصعد الدم الى وجنتها غيرة وحجة وقالت ابن في صفين

قال انها على بضع مراحل من هذا المكان شرقاً

فلثت في حيرة بين ان تظل في انطاكية حتى يصل القسيس او ان تسير الى صفين

وترى ما تم لجند الامام فلبثت صامدة برهة فتركها الخادم وخرج . اما هي فقالت في

نفسها ان انتظاري مركباً قادماً في هذا البحر قد يطول كثيراً لان سفر البحر لا حدود

له وقد بتهي انتظاري بالنشل اما بفراق المركب واما بموت القسيس قبل وصوله لثم

تماسي . قالت ذلك وتناثر الدمع من عينها اسفاً على حالها وغوطاً مما احقد بها

من البلاد فبككت ثم عادت الى هواجسها فقالت واما الحرب في صفين فان عليها

توقف سعادة المسلمين او شقاوتهم وما انا خير من اقدم ولا بد لي من الاسراع

الى هناك عساي ان استطيع خدمة اولي اقتل في ساحة الوغي فانجو من هذه المتاعب

ثم نادى الخادم فلما حضر قالت اسرع الى دار البطرك واسأل عن القسيس مرقس

فاننا قبل انه لم يأت عد حالاً واسرج الجواد واعد معدات السفر

فخرج الخادم وبعد قليل عاد ومعه بعض الزاد مما لا غنى عنه في الطريق

واخبرها ان السفينة لم تصل ولا يعلم احد زمن وصولها وما اعدت ما يحتاج اليه في الطريق

قالت تذهب اذا الى انطاكية حتى اذا انقضت الحرب وظللتنا في قيد الحياة نعود الى انطاكية والا... فعلى الدنيا السلام

ولم يمض ساعة حتى ركبت اسماء وركب خادما في اثرها وخرجا من المدينة فالتفتا بالبحر ساعة امامهما ففكرت اسماء بماذا تستطيع خدمة الامام وفي يد واحدة لا تنه في القتال فامتن تذكر ملاح لها ان تخدم في استطلاع حال العدو وكشف عوراتهم وهبائهم ولا يتم لها ذلك الا اذا اختلطت بجند الشام . وذلك لا يكون الا اذا تنكرت وانخرطت في سلوك

وقضت مسافة الطريق وفي تنكر في الامر وكانت قد سقت نجاة انطاكية فاطلت في صباح الخميس بعد بضعة ايام على سهل صين من جبل عال فهاها ما شاهدته في ذلك السهل من الخيام والاعلام والبنيد والخيول والجمال ولم يكن في ذلك الحين قتال . فرأت هناك معسكرين احدهما في الشرق والاخر في الغرب بينهما ساحة خالية فعلت انهما معسكرا معاوية وعلي في هدنة وشاهدت الجمال سارحة في المراعي وراء الخيام ومعهما الصيد ترعاها . وتأملت معسكر الشام لانه اقرب الى موقعها من ذاك فرأت في وسطه قبة كبيرة حولها الرجال والخيول فعلت انها قمة معاوية ابر تلك الحملة...

وما كادت تتأمل في ذبلك المجندين ردة حتى رأت فيها حركة وقد نهياها جميعا للقتال والحجم الميشار ونفايرت النبال وصهلت الخيول وخفقت الاعلام وصاح الفرسان من الجانبين . فلم تر بقاء من العمل فقالت لخادما اعاني ثيابك وخذ ثيابي واتق انت هنا بالجنادين

انفصل الثامن والسبعون

وقعة صفين

فلبست اسماء ثياب خادما حتى اشبهت بعض رجال حملة انطاكية وكانت

لم تصل بعد على انها وصلت بعد هنية فاخرطت اسماء في سلكها وسارت مع المشاة لا يتبها لما احد حتى دخلت معسكر معاوية والحرب محتمة وكل مشتغل بنفسه وما زالت تفترق الجماهير وهي تتظاهر بالمقاتلة معهم حتى وصلت الى قبة معاوية فرأت حولها خمسة صنوف من الرجال قد عقلوا انفسهم بالعالم^(١) حول القبة للدفاع عن معاوية بحيث لا يستطيع احد منهم الفرار وحده . فعلت انهم مستهلكون في سبيل نصرتهم او مستقفلون في الدفاع عنه . وتطلعت من خلال الصنوف فرأت معاوية والى جانبيه عمرو بن العاص وكلاهما في وجل واعينها تكاد تطير شعاعاً تطلعا لما سيكون من عاقبة تلك الواقعة وما يستفنان الرجال على الدفاع ويحرضانهم على الثبات والنبال تطاير كأنها الجراد في السحاب . فاحتالت اسماء في الدخول الى قبة معاوية فرأت فارساً جاء مسرعاً ودخل من شق بين تلك الصنوف فدخلت هي في اثره ودخل غيرها ايضاً فلم يتبها لما احد سمعت معاوية يسأل الفارس عما قال ان وطأة العدو شديدة ولكننا سنفلهم باذن الله

ونظرت اسماء الى وجه عمرو بن العاص فاذا هو ممتنع وقد ظهرت البهجة عليه وكذلك معاوية ومن معها من الامراء . ثم رأت عمراً خرج مسرعاً فركب فرسه وسار بفتق الصنوف يسحق الرجال ويحرضهم واسماء واقفة في جملة الوقوف وقد سرت بما شاهده من شعور معاوية بقوة رجال علي . وبعد هنية عاد عمرو مسرعاً ودخل القبة واخلى بمعاوية فلم تعلم اسماء ما دار بينهما ثم عادت الى فرسها يشرفان عنها على الواقعة واسماء تترقب حركاتهما

وفيما هي في ذلك سمعت صوتاً كالرعد القاصف رن في اذنها رنيناً مطرباً لانه صوت الامام علي يقول

اقتلهم ولا ارى معاوية * الجاحظ العين العظيم المحاوية^(٢)
فالتفت فاذا هو علي على فرسه وقد تلغى ثيابه وسالت الدماء من نصال حسامه . ولما دنا من قبة معاوية صاح فيه « الي يا معاوية علام يقتل الناس بيننا هلم احاكك الى الله فاني قتل صاحبه استقام له الامر » فسمعت اسماء عمراً يقول لمعاوية هماً « والله اصفك » فقال له معاوية « ولكنك ما انصت » . اما

الامام علي* فانه صبره نبيه فلما لم يتزل معاوية لمبارزوه عاد على فرسه يهب الارض
 نهبا وعينا اسماء تشيعانو وفي تدعوله بالنصر
 وانقضى النهار والحرب قائمه وخيم الظلام والناس لا يزالون يتقاتلون فاغتمت
 اسماء ظلام الليل لاستطلاع نية معاوية فدنست من القمة حتى كانت بالقرب من
 معاوية ليس بينها وبينه الا الجدار وهو لا يشه لها . فسمعت يخطب عمرآ وفي حديثها
 ما يشف عن خوفها من طاقه تلك المعركة . وما سمعت قول معاوية « ارى اهل
 العراق قد ثبتوا امام اهل الشام »

فاجابه عمرو « انهم ثبتوا . نعم . . ولكن لا بد من الحيلة والا فقلنا وانقضى
 الامر علينا »

فقال معاوية « وما الحيلة يا ابا عبد الله »

قال « تدبص على ما نحن فيه الى الصباح فاذا تحققتنا قتل جندنا عمدنا الى
 الحيلة وهي عندي هينة »

قال معاوية « وما هي »

قال « ساقولها غدا صاحا وارحوا ان لا رى حاجة اليها »

فودت اسماء لوانة ذكر حيلة لتسرع بخبرها الى علي ولكنها لم يقلها

الفصل التاسع والسبعون

* رفع المصاحف *

واصبح يوم الجمعة والحرب لا تزال متواصلة وقد تفقر جند معاوية حتى
 وصل رجال علي الى الصفوف المعنولة حول القمة . فالتفت معاوية الى
 عمرو وقال « ما الحيلة يا عمرو »

قال « ارفعوا المصاحف على الرماح وقولوا كتاب الله بيننا وبينكم فان قبلوا
 بذلك جميعا ارتفع القتال عنا . وانما قبل بعضهم دون البعض الآخر تفرقوا وانقسموا
 على انفسهم فيكون لنا باقتسامهم راحة »^(١)

فلما سمعت اسماء ذلك خافت انقلاباً تلك الحيلة على علي فتهربت مسرعة
تحترق الصنوف وقلها يرقص فرحاً لأنها استطاعت خدمة تنفع بها علياً وهي على
يقين من فشل جند معاوية وإن علياً إذا ظل على القتال فاز بالنصر المبين وإذا
صدق حيلة عمرو ضاعت الفرصة منه

أما علي* فكان قد حارب بمسالة عظمى حاول نهار الامس وليله وقد تخفق
فوز جنت وما أنتك يطوف في صنوفهم يستغيثهم على الثبات ويدعولهم بالصرح حتى عاد
في الصباح الى فسطاطه لغرض له وفيما هو هناك جاءه مخبر ان اهل الشام رفعوا
المصاحف على الرماح وهم يقولون « هذا حكم كتاب الله عز وجل هبتنا وبينكم من
لغور الشام بعد اهلوه . ومن تغور العراق بعد اهلوه . » فلما سمع علي* كلامهم قال
« لا لانجيهم الى ذلك لأنها حيلة منهم »

فجاءه نفر من رجاله وقالوا « يجب علينا ان نجيب الى كتاب الله »
فوقف علي* وقد خاف التثنية وقال :

« عباد الله امضوا على حكمكم وصدقكم وقال عدوكم فان معاوية وعمراً وابن
ابي معيط وحبيبا وإن ابى سرح والضماك ليسوا باصحاب دين ولا قرآن اما اعرف
بهم منكم قد صحبهم اطلاقاً ثم رجلاً فكانوا شر اطفال وشر رجال ويحكم والله ما
رفعوها الا بخديعة وههنا ومكة »

فقالوا له « لا يسعنا ان ندعى الى كتاب الله فنأبى ان نقبله »

فقال لهم علي « فاني انما اقاتلهم ليدبوا لحكم الكتاب فانهم قد عصوا الله فيما
امروم ونسوا عهدك ونبأ كتابه »

فقال له مسعر بن فدكي التيمي وزيد بن حصين الطائي في عصاة من القراء
الذين صاروا خوارج بعد ذلك « يا علي اجب الى كتاب الله عز وجل اذ دعيت
اليه والآن دفعتك برئت الى التوم او تفعل لك ما فعلنا بان عفان »

قال « فاحفظوا عني نهي اباكم واحفظوا مقالكم لي فان تطيعوني فقاتلوا
وان تصوفني فاصعلوا ما بدا لكم »^(١)

قال ذلك وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً . وفيما هو في هذا المجدال انشق

الجمع وخرج من وسطهم شخص بشباب ولكنه اسماء فانها وصلت وسمعت الناس يحاجون علياً فهرولت حتى وقفت بينهم وبين علي وقد ثارت الحمية في رأسها وعلا وجهها احمرار العصب من شدة الجري فصلاً عما قام في نفسها من الاسف لتلك الحال . فكشفت عن وجهها وسلمت على الامام بحمية الخلافة والتفتت الى الوقوف هناك وقالت لم « اعلوا اني قادمة من معسكر معاوية وقد سمعت حديثهم عن هذه الحملة بأذني وانا جئت مسرعة مخافة ان تنطلي الحملة عليكم وتكفوا عن القتال . انها والله خديعة اخترعها ابن العاص ليلقي التفاق بينكم . واخشى ان تنفذ حيلته فيكم فاطيعوا امير المؤمنين واتم الغائبون »
فضحكوا من كلامها وقالوا « كيف ندعى الى كتاب الله ولا نجيب . هذا لا يمكن ابداً »

ثم وجهوا كلامهم الى علي وقالوا « ابعت الى الاشر فليأتك » وكان الاشر الغني من اشجع قواد تلك الحملة وقد اُلي في تلك الحرب بلاء حسناً وكان لا يزال يجاربهم وإنما طلبوا استغداة ليكف عن الحرب . فبعث علي اليهم فلم يأت لانه رأى النور بين يديه واذا تحوّل عن موقفه فسدت اعماله فلما ابطأ قال اولئك الناس لعلي « نفلت امرته بالحرب فابعت اليه والاهل والله اعتزلناك » فبعث اليه علي ثاية فحياه وهو يقول « اظنكم تدعونني الى الكف عن القتال بعد رفع المصاحف »
ثم اقبل عليهم وهو يقول :

« يا اهل العراق يا اهل النذل والوهن آحين علوم القوم وظنوا انكم لم قاهرون
رفعوا المصاحف يدعونكم الى ما فيها وهم والله قد تركوا ما امر الله به فيها وسنة من
ازلت عليه قاهلوني فواقا فاني قد احسست بالفتح »
قالوا « لا »

قال « ام لو اني عدو الدرس فاني قد طمعت بالنصر »

قالوا « اذن تدخل معك في خطيتك »

قال « فخبروني عنكم متى كنتم محقين احين تقاتلون وخياركم يقتلون فانهم الآن
اذا اسكنتم عن القتال مبطلون ام انتم الآن محضون فقتلكم الذين لا تنكرون فضلمهم

وم غير منكم في النار »

قالوا « دعنا منك يا اشتر قد قاتلناك لله وتدع قتالهم لله »

قال « خذعنم واخذعنم ودعيتنم الى وضع الحرب فاجبتن يا اصحاب الجباه السود كنا نظن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوقاً الى لقاء الله فلا ارى مرادكم الا الدنيا الا قبحاً يا اشياء السب الجلالة ما اتم رائيتن بعدها عزاً ابداً فابعثوا كما بعد القوم الظالمون »

فسبقوهم وضربوا وجهه دابو بسياطهم وضرب وجوه دوابهم بسوطو . فصاح به وهم علي فكفوا وقال الناس قد قبلنا ان نجعل القرآن بيننا وبينهم حكماً وطال الاخذ والرد بينهم واماء واقفة وقلها يكاد يتقد غيظاً من عناد اولئك المخالفين فلما سمعت الاقرار على اجابة الدعوة تناثرت الدموع من عينيها بالرغم عنها والفتت الى علي فاذا هو مطرق وقد اخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً كأنه يرى عاقبة ذلك بعينه فتعاطم غيظها وارادت توبيخ اولئك وتقريمهم فخافت ان بعد ذلك وقاحة بعد ان وقع الاقرار فتصمت جانباً ولبتت تنظر ما يكون

الفصل الثمانون

﴿ أمر الحكيم وعقد التحكيم ﴾

فتقدم رجل من خاصة علي فقال نرى الناس قد قبلوا مادعوا اليه من حكم القرآن فهل تأذن ان نسع ما يدعونا معاوية اليه من هذا الامر قال علي سر اليه واسأله عن ذلك

فذهب وعاد وهو ينول سألت معاوية عما حمله علي رفع المصاحف فقال « الرجوع الى ما امر به الله في كتابه فابعثوا رجلاً ترضون به ونبعث نحن رجلاً رضى به نأخذ عليها ان يحملا بما في كتاب الله لا يعدوان ثم تبع ما اتفقا عليه »

فقال علي قبلنا بذلك فأمر رجل اختاروا
قال اختاروا ان يتوب عنهم عمرو بن العاص

فالتفت علي* الى من حوله وقال « ومن تخارون انتم »
قالوا « تخار ابا موسى الاشعري »

فلما سمع علي* كلامهم اجعل وقال « لا لا .. انكم لم تصيبوا . وقد عصيتوني
في اول الامر فلا تصوني الآن . لا ارى ابا موسى كنوا لابن العاص وهو مع
ذلك ليس بشيء فقد فارقتي وخذل الناس علي ثم هرب مني حتى آتته بعد اشهر .
فكيف نركن اليه في مثل هذا التحكيم . هنا ابن عباس اوليو ذلك »
فصاحوا بصوت واحد « والله لا نهالي انت كنت ام ابن عباس لا نريد الا
رجلاً هونك ومن معاوية سواء »

قال علي* « فاني اجعل الاشتر »
قالوا « وهل سعر الارض غر الاشتر »
قال « قد ايتهم الا ابا موسى » (١)

قالوا نعم

قال افعلوا ما اردتم
وكانت اسماء تسمع ذلك الجدل وهي تكاد تميز غيظاً ولكنها لم تكن تجسر على
الكلام مهيماً من علي

وبعد قليل جاء ابو موسى الاشعري وعمرو فدخلوا علي* ليكتبوا القضية بحضوره
وهي صورة عقد التحكيم قديماً وبكتابة « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى
عليو امير المؤمنين .. » فاعترض عمرو قائلاً « هو اميركم وليس اميرنا » وطال
الجدل في ذلك حتى وقع نور شديد بين علي وعمرو وانتهى الامر ان يكتب العقد
علي هذه الصورة

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليو علي بن ابي طالب ومعاوية
ابن ابي سفيان قاضي علي علي اهل الكوفة ومن معهم وقاضي معاوية علي اهل الشام
ومن معهم . اننا نترل عند حكم الله وكتابه وان لا يجمع بيننا غيره وان كتاب الله
بيننا من فاضلنا الى خائننا فحي ما احيا ونميت ما امات . فما وجد التحكيم في كتاب
الله وهما ابو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عملايو . وما لم يجداه في

كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة . واخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن
المجندين من اليهود والمناثني انهما آمنان على نفسيهما واهليهما والامة لما انصار على
الذي يتفاضيان عليه . وعلى عبد الله بن قيس وعمر بن العاص عهد الله وميثاقه ان
يحكما بين هذه الامة لا يردانها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا . واجل القضاء الى رمضان
وان احبا ان يؤخرا ذلك اخرا . وان مكان قضيتها مكان عدل بين اهل الكوفة واهل
الشام » (١) (ولي ذلك اسماء اليهود)

وقد كتب ذلك العقد في ١٢ صفر سنة ٤٧ هـ

ولما تمت الكتابة تلى العقد على الناس وانتفض المجلس ولجأت المجنود الى الهدنة
رغبما يجل الاجل المضروب لمجلس الحكم

وتراجع الناس عن صنيون وم علي بالتروغ الى الكوفة فجاءته اسماء في ساعة
كان فيها مخملياً وقبلت به فسألتها عن حالها وما تم لها بعد سفرها فقضت عليه
خبرها وما الذي حملها على القدوم قبل مقابلة القيس فاثني على غيبتها ودعاها الى
الذهاب معهم الى الكوفة

فقلت يا حبذا ذلك ولكنني اقرب الآن الى انطاكية فأذن لي بالذهاب
اليها فقد آن لي ان اعرف حقيقة نسي . فاطرق علي برهة يتأمل فغاضت اسماء ان
يكون في شاعل آخر فودعته وخرجت على ان تعود يوم الحكم لتسمع حكم الحكمين
وكان المسلمون كافة في انتظار ذلك اليوم لانه سيكون يوماً عظيماً ولم تنتقد
محباً لعلها انه كان يومئذ في مصر يتولى امورها

الفصل الحادي والثمانون

﴿ قطعت جبهة قول كل خطيب ﴾

حادث اسماء الى الجبل حيث تركت جوادها وخادما وبدلت ثيابها وركبت
الى انطاكية لانتيم ليلاً ولا نهائراً كأن قلبها حدثها بما ستلقى من الفشل هناك
واشرفت على انطاكية من جبلها الشرقي واطلقت على البحر فلحمت شيئاً كأنه مركب

ولكن البعد حجة عنها فخلق قلبها سروراً فترلت من الجبل حتى اذا دنت من المدينة سمعت دق الاجراس دقاً بطيئاً متقطعاً فقالت في نفسها لعلهم يحفلون بقدوم البطريرك ولكنها لم تكن تدخل الشارع الاعظم حتى رأت الناس يجثدون فيؤيدقدمهم سرب من الاكلروس بالمباخر فعرفت انه احتفال بجنازة

ولا نسل عن حالها لما طمت انها جنازة القديس مرقس وقد مات بعد وصواؤه انطاكية يومين فانها لمعت وجهها وتهدت به حظهها ولكنها تحولت حالاً الى الحنان واغلقت باب غرفتها واطلقت لنفسها غنان البكاء وجعلت تعدد ما اصابها من الاحزن منذ ولادتها وكما قاست من المصاعب والمشااكل والاعطاش حتى اذا دنا وقت سعادتها وآن لما ان تعرف والدها وهي ترجوان تكون مرفقة سيباً في زيادة سعادتها داهها القدر بذلك العشل

وتذكرت مروان وما قاست من اليلام بسبه وتذكرت اسرها في الصحراء بين سكة والبصرة وما قاسته على اثر ذلك من الجرح وغيره . وغرقت في بحار المهادن وتلحقت تعاسها وودت ان تموت فتخلص من العذاب . ولما تمت الموت اجلست وتدمت لانها تصورت محمداً وحبه لها وما ترجو من المعادة فربو فقالت « لا . لا اموت بل احيا لاجل حبيبي واقصى مرادي وهو تعزيتي الوحيدة في هذا العالم فادنا خسرت الدنيا كلها وفاتني كل نعمها وحصلت على محمد فذلك يكفيني »

ثم تذكرت ما قاله الامام علي الحسن يوم سألها ان يجنبها له فانه جعل غموض نسبها مانعاً من زواجها فقالت في نفسها ان لي في وسط هذه القماسة رجاء وبشرى ان غموض نسبي يدينني من محمد ويعدني عن سواه وهذا هو مرادي . . . ان الحسن لا يلبس الزواج بي بعد . . . ولكن ربما كان ذلك عينه هيباً في اقصاء محمد ايضاً . ولما تصورت ذلك اقنعت بدنها واظلمت الدنيا في عينها ولكنها عادت بغثة الى فكر انشائها فقالت « واذا كان غرض نسبي يمنع محمداً من زواجي فهل يمنع من ان يكون اخي فتعيش معاً بقية حياتي . لا فترق ابداً . . . هم اني اتخذه اماً رفيقاً اتبع بمشاهدتي وحديثي »

وظلت اماءاً في انطاكية بضعة ايام رثماً استراحت من السفر وقناة طبع جل رجائها من قبيل اصلها واقتنعت ان تعيش مع محمد عينة الاثنت يوم انيا اذا رأى موما يمنع

الزواج او اشار طليو علي* بذلك . ولكنها تذكرت الحكمين وما يخوفه الناس من حكمها فقالت اسمع حكم الحكمين ثم اتى مصر فأتى محمدا فيها وبعث خادمها يستطلع مكان التحكيم وزمانه فأتى ما أنه سيكون في اذرح من اطراف الشام من اجل السراة يتواحي البلناء وعان^(١) في زمن معلوم . فلما دنا الاجل تنكرت وسارت تلتبس اذرح والخادم معها

الفصل الثاني والثمانون

﴿ حكم الحكمين وحيلة عمرو ﴾

ولما جاء الاجل المعين لللاق حكم الحكمين بعث علي* ابا موسى الاشعري في اربعة رجل ومعهم عبدالله بن عباس . وبعث معاوية عمرو بن العاص في اربعة رجل من اهل الشام والقتل باذرح . وكان عمرو بن العاص قد استقدم كل دهاثو في اقناع ابي موسى ان يوافق علي خلع علي وتولية معاوية لانه المطالب بدم عثمان فلم يفلح فذكر تولية احد ابناء الصحابة كم عبدالله بن عمرو عبدالله بن الزبير . وبعد جدال عنيف اتفقا علي خلع علي ومعاوية وان يثتار المسلمون واحدا غيرهما بالشورى . وكان من دهاء عمر انه ما زال يدافع ابا موسى في الكلام حتى طلب هذا خلع الاثنين فاصح هو البادي في الكلام عند اصدار الحكم

فلما جاء اليوم المعين واجتمع الناس من الافطار وصلت اسماء ايضا في ذلك اليوم فوفقت بين الناس بحيث لا يعرفها احد فقرأت ابا موسى وعمرآ في مجلس علي دكة وبنية الناس في جانب آخر وكان علي رؤوسهم الطير ينتظرون ما يكون من الحكم

فوقف اولآ ابو موسى فأصغى الناس لهما فقال بصوت عال بحيث يسمعه المحاضرون كافة « ايها الناس انما قد نظرنا في امر هذه الامة فلم نرَ اصح لامرها ولا اتم لشعبها من امر قد اجمع رأيي ورأي عمرو علي وهو ان نخلع عليا ومعاوية

وبولي الناس امرهم من احبوا . واني قد خلعت عليا معاوية فاستقبل امركم وولوا من رأيتموه اعداء » قال ذلك ونحى

وكان لقوله وقع عظيم ولبت الناس ينتظرون قول عمرو فاذا هو وقف وقال « ان هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه (عليا) وانا اخلع صاحبه كما خلعه واثبت صاحبي معاوية فانه ولي ابن هان والطالب يدمو واحق الناس بمقامه »

فلما سمع اصحاب علي قوله طمأن انه غدر من عمرو وتغفل من ابي موسى واتفقوا بالنشل ووبغوا ابا موسى واثق فقال ما العمل وقد غدرني

اما اسماء فلما سمعت القولين طلت ان معاوية قد اشتد ساعته وان رجال علي لا يدان ينقسمون بين من يقل الحكم ومن لا يبدله فلم تعد تستطيع صبرا على البقاء هناك فخرجت من بين الجمع لا تلوي على شيء وقد صغرت نفسها . وما زالت سائرة والحامد معها حتى اتت شجرة مفردة في الصحراء فاستظلت بها وشغلت الحامد بتدبير الجوادين وخلت بنفسها فجمعت تنكر في حالها وما اتفق لها من النشل المتوالي من كل الوجوه وخصوصا موت القيس وضباع اسم والدها وفشل رجال علي وخروج الخلافة من بين يدي الحكمين . فغلب عليها اليأس فلم تر لها فرجا الا بالبكاء والغيب فظفرت الى ما حولها فاذا هي مفردة وليس من يسمع بكاءها ما أطلقت لنفسها العنان حتى كاد يغيب عليها وما زالت تشبه وتزداد شبيها كلما ذكرت عليا او والدها او محمدا .

حتى نعتت وجف دمعها فألقت رأسها على حجر وامت ولكنها لم تستغرق في النوم فترأى لها طيف محمد فأفاقته مذهورة وهي تقول « اعداء محبي لا تعزية لي الا بـ... انه في مصر الآن ... هل من يطلع بها حل بامر الخلافة ان عمرا قد كاد فيها كيدا عظيما ... آه يا محمد هل من حيلة تخدم بها عليا رجل هذه الامة ... لا اظن الامر بعد الآن الا صائرا الى معاوية

» اما انا المسكينة اليئسة المجهولة النسب والنعمة المحظ فرما كنت انا وحدي سبب هذا البلاء وربما كانت تعاسي هي التي جرت كل هذه المصائب لكي اموت مدهورة ... » وسكنت ههنا ثم انتهت بفئة وهي تقول « محمد محمد ... انت تعزيني في احزاني ومصائبي هلم لي اليك فأعيش بقرتك فانك لدي افضل من الوالد والوالدة والاع والاخت . انت ملجائي وملاذي . ولكن عليا سيدي وفخري بل اذهب اليه واموت في الدفاع عن امره . ولكن ... »

الفصل الثالث والثمانون

﴿ الخوارج في الكوفة ﴾

وفيا هي تخاطب نفسها لمت الخادم عاتقاً بالجوادرين وهو يسرع نحوها فقالت ما وراءك

قال التقيت وأنا اسرح الجوادين بشرذمة من رجال الشام ركوباً مسرعين وفيهم عمرو بن العاص وكلهم فرحون بما مالوا وسمعت عمراً يقول لقد استقام لنا الامر ولم يبق عليّ الا ان افتح مصرفاً ذا كنت لي حدث الى ولايتها ثم لا يبق في يد علي الا العراق والمجاز فجرد طلبها ونفحها

فلما سمعت ذكر مصر ونفحها انتشعرت بدنها وتذكرت محمداً فيها فقالت في نفسها بل اذهب الى مصر الآن وارى ما بأول اليو امرها . ثم التفتت الى الخادم وقالت وما ظلك في مسيرهم الى مصر

قال لا ادري متى يسرون ولكن لا بد لهم من التخص الى الشام اولاً وتدير امورهم ثم يجهلون على مصر

فلبثت مدة نرد بين ان تسير الى مصر لتري محمداً او الى الكوفة لتري علياً وما اكل اليو امر الخلافة عنه . فلما رأت امر المحملة على مصر بطيئاً عولت على قصد الكوفة سريعاً ثم تعود الى مصر بعد ان تخار طلباً ببيعة محمد . ولكنها رأت ان تكتب الى محمد تخبره بعزمها وتبثه باحوالها استعداداً للقاء فكنتت اليو ما نصه :

« من اماء الهبة المبيعة الى حبيبها محمد بن ابي بكر

« اذا لم يكن بلغك ما اصابني بعد سفرك الى مكة اخبرك اخي بميت الشام ابحت عن اسم والدي فرأيت حامل السرافر الى بيت المقدس فلبثت هناك مدة قاسيت فيها من الخطر والعلاب اليأس أقصا عليك متى اجئنا ان شاء الله ثم فررت الى بيت المقدس اسأل عن القسيس حامل السرفقالوا انه سار الى انطاكية فنصدتها فأبطأ حضوره . وطلعت في اثناء ذلك مجبهة اهل الشام على مولانا امير المؤمنين في صنين فحضرت المعركة وشهدت ما نصبة عمرو بن العاص من الجمل ورفع المصاحف ثم

ما كان من امر الحكم ما اظنه يبلغك من اخذته لك الغاية ولكنني متى التقيت بك
اقصه عليك مفصلاً

واما الآن فاكتب هذا اليك والقلب لولا الامل بلتيك ذاب وطار شعاعاً . فقد
اصحبت بتيمة حزينة مجهولة النسب لان ذلك القسيس الشيخ قضى شعبة واما في
صفين . ولا نسل عن حالي لما رجعت الى اطاكية ورأيت الناس يحفلون بمنازه
فلطمت وبكمت واتحيت ولولا الامل بهترك لنضيت على نفسي بالنفل . وكيف يلد
طعام او مقام لفناء احدثت بها الثعاسة وتولتها الفئوس من كل جاسب لم تشرع في
امر الا فسلت . فاصبحت يا محمد بتيمة غريبة متروكة لا اعرف من هو والدي بعد
ان رجوت بان يكون احد كبار الصحابة . فضلاً عما اتاني من البلاء بسبب ذلك
الرجل الاموي ولا اسمي لان اسمي يؤلمني

« واعلم ان كل ما قاسيته من الشقاء انتهى من ذاكرتي بمجرد الامل بلتيك
حبيبي ومنتهى املني محمد . آه ما الد ذكر هذا الاسم ينهي
« وكنت قد عولت على القدوم اليك على اثر حكم الحكمين اليوم لولم اكن في
شغل على حال الخلافة وعلى مولاي وفخري بل فخر المسلمين كافة اعني و الامام علي
امير المؤمنين . فما اني شاخصة الى الكوفة لملي استطيع خدمته ثم آتي اليك . وبكفني
من قربك ان اراك واسمع حديثك . وارجو ان يكون لي نصيب في جددك فاذا حمل
عمرو بن العاص على مصر كما سمعت لا يلقى فيها مقوقساً يسلمها اليه فحارب صوبه
فاما نعيش معاً واما نموت معاً والسلام »

ولنت الكتاب وجعلته في انبوب من القصب ودفعته الى الخادم واصلته ان
يوصله الى محمد بن ابي بكر في مصر وبقى هناك حتى تأتني في لانها ستلقى و
جالاً . فمضى الرسول وبقيت هي وحدها وبعد قليل ركبته الى اذرح وانه اجرت
دليلاً سار في ركاها الى الكوفة وهي مع ذلك مائة الى مئتين قلها هناك وخصوصاً
بعد ان سمعت نزم عمرو على فقها فوصلت الكوفة بعد ايام فلم تر طياً فسألت
عنه فقيل لما انه خرج لحرب الخوارج في النهروان

فقال ومن م الخوارج

قالوا الذين قطعوا على علي لانه رضي بالحكم

فقال اعوذ بالله من هؤلاء التوم يعملون امير المؤمنين على قول الحكم ثم

ينتمون عليه لانه قبل به

وفكرت في الامر ومصره وشاورت نفسها في الذهاب لصريح علي او الخروج الى مصر لمشاهدة محمد . وقضت في ذلك اياماً وفيها هي تفكر فيه ذات يوم رأت في الكوفة هرجاً واضطراباً فقالت ما ذلك . قالوا ان الامر استقام في الشام لمعاوية حتى انفذ الى مصر من ينقمها انذ عمراً فتحملها الاول . فأرسل جاملياً بذلك الى الامام يستفيئ

فلم يبق عندها شك في المسير الى مصر فأسرت الى جوادها وركبت وقد يست ما اصابها من الفشل وتولاها من النفس وسارت وهي تملل نفسها بلقيا محمد حيث لا رقيب ولا منازع . وكانت قد ملكت الاسرار والاطهار على غير جدوي فموتت في باطن سرها ان تقيم في مصر لا تنفذ الى شيء . وهي لا تدري ما أسفاه عليها بما ينظرها هناك ما لم يخطر لها ببال ولا يستطيع الصبر عليه انس ولا جان

الفصل الرابع والثمانون

* فتح مصر *

قد تقدم ما كان من اجتماع دعاة عثمان في مصر وعزل قيس بن سعد عنها بما دس معاوية من المحلة حتى افسد ما بينه وبين علي . وما كان من تولية محمد بن ابي بكر . فلما تولاها محمد بعث رجلاً من خاصته لحرب اهل خربنا القائمين بدعوة عثمان فقتلوه وتعاظم امرهم وفسدت مصر كلها على محمد . فبلغ ذلك علياً فقال ما لمصر الا احد الرجلين يعني قيساً او الاشتر وكان قد عزل قيساً فلم يرجع اليه فبعث الى الاشتر وكان قد عاد بعد صفين الى عمله في الجزيرة . فلما حضر اخبره خبر مصر وقال ليس لما غيرك فاخرج اليها فاني لو لم اوصك اكنيت برأيك . فخرج الاشتر وشخص الى مصر . واثمت معاوية عيونه بذلك فعظم عليه وكان قد طبع بمصر لكثرة خيائها يستعين بها على اعماله وحروبه . فلم ان الاشتر ان قدمها كان اشد عليه من محمد بن ابي بكر وكان على حدود مصر بؤنة بلد اسمه القلزم بالقرب من مكن السويس يغلب للقدام من الشام الى مصر ان يروا فيه وكان القلزم في حوزة معاوية

بعث معاوية الى صاحب خروجه في القلزم يبعث يسيّر الاشتر الى مصر وقال له
« فان كفيتموه لم آخذ منكم خراجاً ما بعيت وبعيت »
فلما مرّ الاشتر بالقلزم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده
فأناؤه بطعام فلما أكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيها سماً فسقاه فمات فظلت
مصر بامرة محمد بن ابي بكر . فازداد طمع معاوية فيها وهو يرجو منها خيراً فاستشار
عمرأ فقال عليّ بها اني فاتمها الاول ومن أولى بها مني . وجرّد جيشاً كبيراً وسار
قاصداً مصر فلما علم محمد بمجيئه بعث الى الامام عليّ يستغيثه وطمت ابناء بذلك
فقدمت كما مرّ

وكان محمد لم ينظر ابناء منذ اذترقا في البصرة يوم خرج مع اخيه ام
المؤمنين الى مكة . وكان قد علم بها دار بينهما وبين الامام عليّ على اثر وقعة الجمل
بشأن خطبتها للحسن . اخبره بذلك الحسن نفسه وهو لا يدري انه مناظرها عليها . فاخبره
كيف ان والد جعل غموض نسبها مانعاً من زواجه بها فسرّ ذلك وهو على يقين
من بقاء ابناء على عهد . واخبره الحسن ايضاً انها سارت الى بيت المقدس لاستطلاع
اسم والدها . ونظراً لانشفالو بامارة مصر وما احاط بها من المشاكل وما قام فيها
من الثورات المتوالية التي اضرم نارها دعاة عثمان في خربها وغيرها لم يتمكن من
مكائبتها ولكن كان يسأل عنها وينجس اخبارها . فكان تارة يعرف مقرّها وطوراً
لا يعرف . وآخر ما علمه انها كانت في مجلس الامام عليّ يوم خالفة اصحابه في قبول
الحكم وسمع ما اظهرته هناك من المحبة والغيرة فتذكر حديثها وتصورها امامه تشبه
بيديها وتكلم وتهدد فارتاح لذلك الذكرى واشتاقتم زينة للقيامها

على انه تذكر ما رآه الامام عليّ في غموض نسبها حتى جعله مانعاً من الاقتران
بها فقال في نفسه « اذا عرفت والدها كان امرها متكبلاً لان الحسن لا يتحلّى عنها
وانا ارادها الحسن وطلبها والد فكيف اطلبها انا » فلما تخيل ذلك عظم عليه الامر
حتى وكد ان لا تعرف والدها فتكون اقرب اليه ولو بدون اقتران . وسوّلت له الغيرة
ان لا يأخذها احد منها خير من ان يأخذها الواحد دون الآخر

وما زال يردد هذه التصورات في ذهنه حتى جاء كتاب ابناء الاخير من
اذرح وعلم بموت النسيب وضياع السر وما يشير اليه ابناء في كتابها من رغبتها في

المعيشة معه كاختٍ او صديقة فتحقق صدق مودتها وبنائها على العهد فانهبطت نفسه
ولبت ينتظر عودتها وهو يكرر تلاوة الكتاب وقد استأنس بولائه هاج اشجانته
بعد ان طال زمن الفراق وكان كلما تلا الكتاب تصور اسماء واقفة بين يديه
تخاطبه ويخاطبها

ولكن استئناسه بذكرها لم يطل لانشغاله بهام الحرب . فبينما هو ذات يوم في
النسقاط عاصمة الديار المصرية في ذلك الحين جاءه عموده بجبراهل الشام طاهم
حاملون عليه بقيادة عمرو بن العاص

وكان عمرو قد كاتب محمداً يطلب اليه التسليم فارسل محمد الكتاب الى علي
يستعين فكتب اليه علي ان يجمع شيعته ويذهب للقتال ووعد بانقاذ المجوش . فأخذ
محمد في التآهب من عنده من الرجال فجهز كنانة بن بغير في الفين وسار هو في
الثن بالئين

اما عمرو فانه دخل مصر من الشرقية وجعل يسرح الكنائس كتيبة بعد كتيبة
وكنانة يلقي كنانته ويفترقها حتى كاد النذل يحيط بجيود الشام لولم تأتهم نجدة قوية
بتجارة معاوية بن حديج فاشتد أوزم

اما جند مصر فلم تأتهم نجدة لنفاذ اهل العراق عما دعاهم اليه علي ولكنهم حاربوا
حرباً شديدة دافعوا فيها دفاع الابطال ونزل كنانة عن فرسه وما زال يقاتل
حتى قتل (١)

الفصل الخامس والثمانون

محل الواقعة

وسارت اسماء من الكوفة وهي كلما تقدمت نحو مصر ازادت هولاجتها
على محمد . وكانت قادمة وحدها على جبالها فاضطرها ذلك الى المسير بجوار المدن
استئناساً بالباس ومعانة العطش في الصحراء والجبال لا يصبر على العطش فسارت على

ضفاف الفرات ثم تحولت الى الشام حتى وصلت دمشق فسمعت هناك بمسير حملة عمرو فأخذت تبحث عن الغالب فعلمت ان عمراً بحث يستنجد معاوية وان جيش بمصر غالب . فسرت ولم تلبث في دمشق الا ريثما استراحت وركبت تلبيس مصر . ولما دنت من الرمث وقيل لما انها على حدود مصر تذكرت ما قاله رئيس دير البصرة عن والدتها وانها ولدتها في مصر وانها عرفت بزيديا . اياك . فهاجت احزانها ولكن افكارها جمعت شغلها عن كل ذلك

ولما دخلت مصر مرت اولاً بالفرما وهي مدينة كانت في ما يجاور نور سعيد الآن . وما صدقت انها وصلت هناك حتى اخذت تبحث من حال الحرب بين محمد وعمرو فاخبروها ان عمراً جاءته النجدة بعد ان كاد ينفل فتستد و لحقت من خلال حديث القوم انهم على دعوة عمرو وانهم مبالون الى معاوية فاقبضت نفسها وخرجت من الفرما لتلوي على شيء وبجست عن مكان اقبال فقالوا انه في ضواحي السطاط فجدت في السير . وهي في كل سفرها لا تنام من الليل الا قليلاً حتى وصلت بليس فرأت اهليها في هرج ورأت جماعة من الناس يدخلونها وفيهم من ربط يده او شد زنه او عصب راسه فعلمت انهم طائرون من قتال . فاضطربت حولها واستنهمت منهم عما كان فقالوا ان جنود الشام تكاثروا بما انضم اليهم من اهل مصر ممن هم على دعوة عثمان وقد بايعوا معاوية وهو بعيد . وان كرامة بن بشر قتل وتشتت جند مصر . فساءلت عن محمد فلم ينبها بخبر مخبر فاختلج قلبها في صدرها فقالت ومعنى كان ذلك . قالوا كانت الواقعة اول امس وان عمراً دخل السطاط

وكانت الشمس قد مالت الى المغرب فلم تستطع صبراً فركبت وخرجت تلبيس مكان الواقعة وهي ساعرة وعيناها شائعة الى الامام لاتبالي بما يتهددها من الخطر وسدل الليل نقابة فلم تعد تستطاع التطلع الى بعيد وخافت ان تبصر عن الطريق فلبثت تفكر في الامر وهي ساعرة الهوا . وقد جهزت للدفاع سلاحها اذا احتضرها معترض فابلت ان رأت الافق يبرق ثم اطل القمر طامساً فتلته بالترحاب واحست عند رؤيته بانفراج الازمة ولكنها رأت بعض ناقصاً وهو قبيل ربه الاخير فخيّل لها لشدة هولها بالحرب انه خارج من المعركة وقد شطب وجهه بالسيف ولما طلع القمر استنارت بوجده في الدير تلبيس السطاط . وكانت لما خرجت

من بليس ترى بعض المارة قادمين اليها افراداً وازواجا ولكنهما لم تكن تبعد عنها حتى غابت الطريق من الناس فالتفت نفسها سائرة في طرق لا تؤدي الى الانسلاط فوقفت وتبنت المجاهات جيدا فرأت انها اخطأت الجهة والتفتت فلم تر امامها الا صحراء قاحلة فخرجت يميناً حتى اصبح في ارض زراعية وسارت تلمس الجنون والقرالى يسارها يعلو رويداً رويداً حتى اصبح يربها الاشباح عن بعد . ووادي النيل ارض مبسطة لا جبال فيها ولا اودية

ومضى معظم الليل وفي سائر حتى تعبت وجاعت واحست بالبرد وهو شديد في مصر بعد منتصف الليل حتى في ابان الصيف . فخرجت ومشت تلمس الدفء وقادت جوادها ورائها والجوهادى والارض خالية من الناس لا تسمع غير وقع حوافر قرسها وثغور

وفيما هي ماشية تفكر في حالها سمعت جوادها يصهل وقد اجلت فالتفت الى ما اجلته فرأت شجراً منطرحاً على الارض وانثنت راحته الثانية . فدت من الشبح فاذا هو جثة قتيل جاثمة لمخفق قلبها وطلعت انها على مقربة من مكان الواقعة فتشدت وتجلدت وقد شعرت منذرأت تلك الجثة بارقاش نسبة الى البرد وما هو في الحقيقة الا نجيبة ما طرق ذهبا من الصورات المربعة عن محمد

ومشت والجواد ورائها والروائح تعاطف ثم رأت جوادها اجلت ثانية اجفالا عظيماً من جيفة جواد ورائها جيف كثيرة تصابرت عنها السور محملة في الجو وصنفت بطوارها تصنيفاً زاد الفرس اجفالا . فارتبكت في امرها وهي تود البحث بين تلك الجيف مخافة ان يكون محمد بينهم والجواد يمنعها باجفال وصهيل فعملت الى شجرة شدة اليا وعادت وقلبها يخفق وركبها ترتعدان وعيناها شاخصتان الى تلك الساحة وفيها البحث ملقاء ازواجا وثلاثاً وبين اولئك القتلى من استلقى على ظهره وبسط ذراعيه كأنه يستقبل طفلاً يستغيث به ولكنه حول وجهه الى احد البانين كأنه شعر بقيق منظره وقد جملة الى جاداً على عظم واكلت بعضه السور — لئلا يخاف الولد منه . ورأت آخر مكبا على بطنه وقد قبض باحدى يديه على ربح وبالاخرى على التراب ورأت هناك رؤوساً مدرجة وجثتا بلا رؤوس متراكمة بعضها فوق بعض . وارهب ما رأت رجل وامرأة مانا متعاقبين ولم تعرف المرأة الا من ثوبها لان الوجوه لم تعد تميز

ولا ازيدك علماً بحالة اماء ساعته فقد كانت تجر نفسها جرّاً بين تلك الجحف وهي تحاذر ان تدوس على يد اورجل أو رأس وقلها يخفق خفقاناً شديداً تكاد تسمع صوته في انبساطها . ولوثأتى لها ان تنظر الى وجهها امرأة لرأته اشدّ امتعاضاً من وجع تلك الجحش . وتعبت من الفرس بالوجع والليالي طارت تلك الرائحة الكريهة في رأسها مع ما كانت فيه من التعب والجوع فأصابها دوار وخافت ان تسقط فوق القلي فاستدركت نفسها ونهت الى الشجرة التي شددت فرسها اليها وجلست هناك ولم تدت رأسها الى جلعها تلطمس الراحة . ولكن افكارها ظلت تائهة ولم تريح صورة محمد من امام عينها . ولم تكك تلمي رأسها حتى غلب عليها النعاس فغمضت جنبها فتصور لها محمد مقتولاً فارتعدت فرائصها وبهضت مذعورة . وفيما هي تنهض رأت الفرس يده رأسه الى الارض فالتفت اليه فرأته ألنقط دميّاً مضطرباً بين اسنانه فسمعت له ففقا كفتش القصة اذا كسرت بين الاضراس ثم ما لبثت ان رأت الفرس يلتظ تلك الهناة فلمحت فيها شيئاً ايضاً فتناولته فاذا هو قصة وفيها رق هو كتابها الى محمد لا يزال في قصبتها كما ارسلته اليه فازداد بالبالها وتحققت ان محمد كان في تلك الواقعة وتلك القصة معه فسقطت من جبهه في اثناء الدفاع . . . فآين هو . . . وكانت قد بشت من وجوده هناك وفي ذلك الّاس فرج لانها تخفق فجأة من تلك الواقعة فلما وجدت كتابها خافت ان يكون محمد قتل هناك فعادت الى الجحش تبحث فيها

وكان التمر قد تكبد الماء وصنا الجوع وظهر كل شيء امامها جلياً واضحاً كأنها تنظر اليه في رابعة النهار . وهي لا تخاف في بحثها عن محمد الى تمنع وتجر ولو لاحت طرف ثوبه او بعض عمامته ولو عن بعد لفرقة لان صورته نصب عينها . ولكن الاثواب والعائم تشابه . فلا تمل عن خفان قلبها وارتعادها كلما رأت شيئاً يشبه



الفصل السادس والثمانون

﴿ البحث عن محمد ﴾

وما زالت في ذلك حتى لاح الفجر وتبينت الوجوه فدارت بين القتلى تجدد البحث فطلع النهار وهي تجول وتفرس فلم تر أثراً لمحمد ففحقت انه لم يقتل في تلك المعركة . فلما سكن روعها من هذا القيل أحست بالنصب والتعب والمجوع فالتفت الى ما حولها فرأت بيتاً تكاد تشارى بعدها فعلت انها منازل بعض اهل القرى ففعلت اليها تلتبس طامعاً لها وطفلاً لجوذاها فوصلت المكان وحجت اهله . فرأت هناك امرأة معها صبيان عراة مجومون حولها وهي تحلب لم لبناً من غنمة . فلما رأى الصبيان اسماء قادمة على فرسها صاحبها بهم ففرغت وفزعوا جميعاً . فتركها الغنمة ودخل الكوخ فادهم اسماء وطيبت خاطرم فعادوا فقالت لم هل ذلك علف لهذا الجواد قال لي نعم واعتذروا لخوفهم بهم فاسأ في تلك الاثناء اهلاً من الجند المحارب لانهم كانوا يهبون كل ما تصل اليه ايديهم

فأكرموا وفادة اسماء وجاؤها باللبن والجوداها بالعلف وانصبت حصيراً تتكى عليه فنهض صاحب الدار فأخذ الفرس وشبهه الى وتدر وجاء به حصيراً كان قد خبأه تحت فراشه اهلاً ما حرصاً عليه فانكأت اسماء على ذلك الحصير في ظل الكوخ ونامت نوماً عميقاً لم تنق منه الا قبيل الغروب

ولم تنتع عنيتها حتى رأت رسولها الاخير الذي انقلته الى محمد من اذرح واقفاً عند رأسها فصاحت فيو اين كنت ومن اين اتيت . . اين هو محمد فعرض على شئتو السئلى وأشار بيديه يلمس سكوبها لئلا يسمعا احد اهل البيت فنهضت ونحلت اهل الكوخ بعناية لقاء خدمتهم وسلمت الفرس الى ذلك الرسول ومشت الى جانبها وسألتها عما يعلمه عن محمد ومكانه وما الذي جاء به الى ذلك المكان فقال ابشري يا مولاي ان مولاي محمد قد نجا من هذه الواقعة

فقالت واين هو . . وماذا تم لك اخبرني

قال اعلمي يا سيدتي اني ما فارقت سيدي محمد يوماً واحداً منذ جئته بكتابك

وقد آتست فبه انعطافاً مجوي لا ادري سببه وحيثما توجهت في ركابك اما راجلاً او راكباً . ولما كانت الواقعة منذ يومين في هذا السهل وقتل كنانة بن بشر قائد مقدمته ففرق رجاله عنه حتى اصبح وحيداً فالتحمت عليه ان يخرج من المعركة خوفاً من ان يقتل

فلما وصل الرسول الى هذا الحد امتنع لون اسماه وشخصت بعصرها لسماع نعمة الحديث وخفق قلبها

فقال « واما هو فقد كان عازماً على البقاء في ساحة القتال الى الموت فالتحمت عليه بالخروج فأطاعني فمسينا حتى انتهينا الى خربة ^(١) في ناحية الطريق بالقرب من هذا الجبل (ولما اشار الى المقطم) فأوربا اليها خاتمين . وقد مضى علينا هناك يومين بلا طعام ولا ماء . فلما رأيت سيدي غلماً استأذنته في الخروج لآتي ببعض الماء والطعام ولوصاني ان ابحت عن كتابك فقد كان في جيبه اثناء المعركة وفقد منه »
فقالت « اما الكتاب فقد وجدته بل وجدته هذا الجواد . وابن هو عبيد الآن هلم بنا اليه ومعنا الماء »

فقال « انه حيث قلت لك على مسافة قصيرة من هنا »

فالت « احمل له الطعام والماء . هلم بنا »

قال « لا نظلن علينا بأسا »

فالت « لا تلبث الشمس ان تغيب ونجيم الظلام فلا يراها احد . وارى ان نتي هذا النرس هنا ثلثاً بدلّ علينا »

فأخذ الرجل النرس وعاد الى الكوخ . وبعد قليل رجع بقربة مملوءة ماء وبأرغفة وثي من الجبن

الفصل السابع والثمانون

* الحربة *

مضيا وقد خيم الظلام والرجل يمشي امامها يدها على الطريق وهي تكاد تعثر

(١) ابن الاثير وابن خلدون وغيرهم

بأذيالها لهنبتها وسرعها - وقضت مسافة الطريق لا تكلم لانشغال خاطرها بما توقعت
من الناء نرعد لنيا محمد

وقضيا ساعة سائرين واللبل داس لا يكادان يميزان الطريق لولم بكل جبل
المقطع ظاهراً امامها في الافق - فجلاء وجهتها لان غنباً محمد بالقرب منه - وكانا
نمران نارة بين خيام وأوتة في اعشاش او أكواخ صغيرة حتى وصلا الى جانب المقطم
فتقدم الرجل وسارت اسماء في اثره وشى هو يتلمس الطريق بين اغراض بعض الاخربة
وهي تبعة وقلها يخفق توقفاً للبقعة التي ستصيبها عند المقاتلة بعد طول الغيبة - وكان
قلها يرقص فرحاً لما تتصور انهما آتت بالماء والطعام

وبعد هتية اخفى الدليل في ظلمة مدلهمة هناك فنادته بصوت مخفض فقال انا
وصلنا - فدخلت في اثره الى بيت خرب لم يبق منه الا الجدران وبعض السقف ولم تك
تدخل حتى سمعت الرجل يقول « اين انت يا مولاتي » فلم يجبه احد - فقالت اسماء
« العله كان هنا وغاب »

قال « تركته في هذه الخربة »

قالت فلنفتش عنه في غيرها لعل الخرب تشابه عليك - وقتشاً كل الخرب
المجاورة فلم يقف له على اثر حتى تميا وبلاً الفتش فقالت اسماء « ما ظلك بدبيب نعيم »
قال « لا ادري واخشى ان يكون عمرو قد عرف بمكانه فبعث في القبض عليه
وهو اعزل لاسلاح معه »

فلما سمعت ذلك اقتصر بدنها وقالت « وكيف العمل الآن »

قال « اني رهين اشارتك في ما تأمرين »

قالت « عد بنا الى حيث كنا نلبث هناك الى الصباح ثم نسير انت للبحر عنه »
قال حسناً - وعادوا حتى انها الكوخ وعرفاه من صوت الفرس فانه حالما اشنم
رائحة القادمين حتى صهل ورفس الارض بجافره
وبانت اسماء عند تلك المرأة وبكر الرجل في الصباح للبحر عن محمد ومكانه
ولبث في هناك في انتظاره



الفصل الثامن والثمانون

﴿ خبر الفاجعة ﴾

وابطاً الرجل في رجوعه فانشغل خاطر اساء وتلعت لانيها لم تسر في التفتيش معه . واضحت الشمس ولم يرجع فازداد قلقها ولم يعد يطيب لها مقام فمشت وراء تلك الاكلوخ الى الجهة التي تتوقع ان يكون رسولها قادماً منها حتى بعدت مسافة . وفيما هي تتطلع في آخر الطريق رأت شهياً مسرعاً نحوها عرفت من قياضها انه رسولها فاخيل قلبها وتحننت اليه ببصرها لترى ما يبدونه فاذا هو ما زال مسرعاً حتى وصل اليها وهو يلهث من شدة التعب وقد طنت البغلة واحمرت عيناه وكلل العرق جبينه فصاحت فيه ما وراءك .. قل .. ما خبرك ... هل وجدت محمداً .

قالت ذلك وقلبا يزداد في الخفقان
فقال وهو يلهث لها شديداً « آه يا مولاتي ... نعم وجدته ... ولكنه ...
ولكنه في خطر القتل ... »

فصاحت « وكيف ذلك ومن يفتله »

قال « انهم عارطوا على مكانه في الخربة قبل وصولها اليها بالامس ... آه ضاق صدري من التعب اهبطني لانسق الهواء ... وقد دلم عليه بعض ابناء الحرام فحملوه وهو اعزل الى النسطاط ... »

فالت « وبعد ذلك .. ما ذا جرى »

قال — لما مضيت من عندك في هذا الصباح تصدت النسطاط رأساً لاني اعلم انه لا يذهب الى مكان اذا لم يقضى له عليه فوصلت الجامع وتظاهرت بالصلاة فرأيت هناك عمرو بن العاص وعبد الرحمن بن ابي بكر اخا سيدي محمد وممعت عبد الرحمن يقول لعمرو « انتقل اخي صبراً ابست الى ابن حديج فانبه عنه » ^(١) فقلت ان معاوية بن حديج هو الذي قبض عليه ويريد قتله . فطار صولي ووددت ان اعرف اين هو ابن حديج لاسير اليه فسمعت عمراً يقول لبعض رجاله « اذهب الى ابن

(١) ابن الاثير ج ٣

حديج ان يكف عن قتل محمد وبأُتي به « فخرجت في اثر ذلك الرسول حتي وصلت الى مكان وسط بين الخربة والفسطاط رأيت فيه جمعا متكاثرا بينهم ابن حديج ومعه رجاله احاطوا بهولاي محمد وقد رُق جسمه من العطش والجوع ٠٠٠ آه من اولاد الحرام ٠٠٠ ونقدم رسول عمرو الى ابن حديج وابلفه امر عمرو فاجاب « قتلتم كنانة ابن بشر واعلي انا محمدا اكفاركم خير من اولكم ههنا ههنا »^(١)

ولا نسل عن اسماء وشدة اصغائها لقال الرجل وكيف كان وجهها يتلون . فلما سمعت ذلك الكلام تناولت بمنها وحدفت بعصرها لترى ما تم بعد ذلك وهي تقول « جرام الله شرًا على هذا القول ٠٠ لالا لاهله يقتله بلا امر عمرو ولكنه اسماء الادب »

فقال الرجل ولو انتصرت اسماءه على ذلك لكان خيرا ولكنه منع سيدي الماء فقد سمعته باذني طلب منهم ان يسقوه فقال له ابن حديج بوقاحة واستخفاف « لاسقاني الله ان سقيتك قطرة ابدًا انكم منعتم عثان شرب الماء والله لاقتلك حتي بسقيك الله من الحميم والنساق »^(٢)

فلما سمعت اسماء ذلك قالت « غسي النمل » واصاحت بصمها . فام الرجل كلامه وقال — فاجابة سيدي محمد « يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك اليك انما ذلك الى الله يسقي اوليائه ويغني اعداءه انت وامالك اما والله لو كان سوني يدي ما بلغتم مني هذا »

فلم تعد اسماء تستطيع صبرا على استماع الحديث وهي تود ان تعرف النتيجة طاجلا فقالت « وماذا جرى اخيرا »

قال سمعت ابن حديج يقول له « اتدري ما اصنع بك ادخلك جوف حمار ثم احرقه عليك بالنار »

فصاحت اسماء والدمع يتساقط من عينيها وهي تشدد وتجلد « غسي ابن اليهودية والله انه لا يحسر على ذلك »

فقال الرجل « فلما سمعت قول ابن حديج اسرعت لاخبرك لانني رايت في اوجه النوم المبادرة الى الشر »

فالتفت أسماء وراءها فرأت الكوخ بعيداً ولا سبيل لها إلى الرجوع ولم تعد
تتالك من المبادرة إلى محمد فقالت « وهل المكان بعيد من هنا »
قال إنه قريب

فقالت لهم بنا اليوم ومشت وهي لا تدري كيف تنقل قدميها لجهلها ولهنيتها والرجل
لا يستطيع اللحاق بها لأنه كان لا يزال نعباً وليس في قلبه نار تستجلب خطواته كما
تستجلب خطوات أسماء . فمشت نصف ساعة ولم تدرك المكان فندمت لجهتها ماشية
وقد كانت تظن المسافة أقصر من ذلك

الفصل التاسع والثمانون

﴿ قضي الأمر ﴾

ثم أشرافاً على ساحة . فقال الرجل « كأننا في هذه الساحة والظاهر أنهم ساروا
إلى النسطاط » فمشت حتى أتت المكان الذي كأننا فيه فرأت آثار دم وكأن
شيئاً جرحوا على الأرض جرحاً . فارتعدت فرائضها وجد الدم في عروقها وصاحت
« ويلاه ويلاه إنهم قتلوا ... قتلوا ... آه يا محمد يا محمد ... يا حبيبي »
فقال لها الرجل « وكيف عرفت ذلك »

قالت « أما ترى الدم وآثار جراحهم » قالت ذلك ولطبت وجهها وانحدرت
الدمع على خديها ومشت تتبع آثار الجرح وعيناها لا تريان الطريق لما يغشاها من
الدمع ولم تمش قليلاً حتى اشتمت رائحة شواء . فصبحت عينها ونظلمت فرأت دخاناً
يتصاعد من خربة . فأيقنت أنهم قتلوا وأحرقوا في جوف الحمار كما قالوا
فهرولت إلى الخربة لا تلتوي على شيء فرأت هناك جيفة حمار حولها النار موقدة
وجوفها مشقوق ففترست في ذلك الشئ فرأت من خلال اللهب رأس محمد مغمض
العينين كأنه في سبات عميق فصاحت « محمد يا محمد ... لقد صبح قوالم وفعلوا
ما أرادوا إنهم قتلوا قتلهم الله » وهمت أن تلقي نفسها في النار فأمسكها الرجل بثوبها
ونقذها إليها أن لا تقع . فلطمت وجهها وحلت شعرها وأخذت في التندب والمويل

وهي تمسح عينها كل لحظة وتنظر الى حبيبها من خلال اللهب فتراه لا يزال قائماً فتنادي
فلا يحجب عنهم^٢ بان تلقي نفسها فوقه والمخاض يمسكها
فضاقت بها الحمل فجعلت تدور حوله وتندب بل تندب نفسها وتقول « آه
يا نعماسي وشقائي .. آه يا حبيبي يا محمد انك لم تصب حنك الا لص طالعي ولو
لم احبك لم تمت .. وبلاء ط اسفاه ماذا اعند من القوس المهدقة لي ... لم يبق
عندي شك في اني ولدت شوماً على نفسي وعلى كل من هم حولي ... ولدت لا أعرف
والذي ولما دنا زمن معرفتي اياه ماتت امي ... آه يا والدتي المحنونة
نزلت في دار عثمان فقتل ذلك الخليفة وكان قتله شوماً على الاسلام فقامت الفتنة
وقتل فيها جماعة من غيرة الصحابة . قتل فيها طلحة والزبير والوف من المسلمين توسدوا
الثرى وجرت دماؤهم مجرى الانهر . وسعيت في تلافي الفتنة بيلي وبدي ولساني فلم افز
لان الفقادير كانت تعاكفي . يكفني ما فاسفته من مرطان . ثم نصحت لي باب اعرف بو
والذي الخفي ورجوت ان يكون احد كبار الصحابة فا زالت الاحوال توغرني
وتقدمني حتى مات حامل السر قبل ان اراه . ولا ريب انه كان في شوق ان يطلعني
على ذلك السر اكثر من شوقي انا للاطلاع عليه

« نعم ما كفي الدهر ولكنت لم يصب مني مثلاً لان آمالي كانت عالقة بك يا حبيبي
يا محمد ... قبلت بكل مصابي املاً بلفانك وقعت ان اعيش معك معيشة
الاغتصا والمخادمة او الامه ... ولكن آه .. آه .. لولا هذه الآمال لم تقتل انت لانك
انما قتلت لغرام نعماسي فانما هو سبب القتل ... كيف تموت .. كيف يخطئ بدنك
بالتراب بل كيف تموت هذه المونة الشنيعة وابقي انا حية ... كلاً ثم كلاً ... »
قالت ذلك والقت نفسها في اللهب قبل ان يبادر المخاض الى منها فالهب شعرها
ولكن الرجل اسرع الى اسنائه بعد ان اشتعل معظمه ولغ بعض وجهها وفي ما
زالت تحاول الفاء نفسها في اللهب عن غور هدى وتقول « اتركوني دعوني انام
مع حبيبي محمد ... دعوني اعاقة »

فاسندها الرجل وحملها الى جانب فأجلدها على الارض وقلبه يكاد يتنظر على
حالتها وخاطبها فلم تسمع . ثم افافت من غفلتها فنظرت الى اللهب وقالت بصوت
خافت « لقد مات عطشاً ناكيف اشرب الماء - بعده وقد مات جائعاً فكيف آكل

الطعام بعده ... انت روح اماء فكيف تعيش اماء بلا روح . انك آمال
اماء فكيف نجيا اماء بلا آمال آء ما احلى الموت وما الله

ثم وقفت بغفة والتفتت الى ما حولها كأنها استوقظت من رقاد وقالت بلهجة الجدد
والسكينة « وأفضل من الموت يحيا انك ان آخذ بمارك ... ولكن من ... انهم
اجمعوا على هذه المصيبة ... آ استجد الامام علياً ولا اراني الا شوثاً طيو ولم يمل
عملاً منذ عرفني الا عاد بالنص طيو . آ أعيش لاريد نعاسة مولاي الامام علي رجل
هذه الامة وخيرة من سقى على سطح الارض بعد الرسول (صلعم) ... انك امير
المؤمنين بالرغم عنهم اجمعين .. ولكنهم اجمعوا على خلافتك طبعاً في الدنيا وانت لا
مطيع لك الا في الآخرة الآخرة ... »

ثم سكنت هنيئة وهي مطرقة كأنها تفكر في امر ذي بال ثم قالت « الآخرة ...
نعم ان الآخرة خير من هذه الدنيا دماً الشفاء ... هل نلتقي هناك بعد الموت ..
أجل نلتقي .. لا بد من عالم آخر نلتقي فيه لان الله عادل لا يرضى ان اقضي شباني
سعياً في تعزير كلتي وفصرة ان عم سيو بقلب مخلص ونية سليمة ولا ارى من نصيحة
انعاني غير البلاء والشفاء . ثم ارى حبيبي ومتى املي يحرق امام عيني في جيفة
مشفة وهو ان اول الخلفاء وشقيق زوج الرسول الطاهرة ... فلا بد من عالم
آخر ينال فيه كل ذي حق حقه . هناك نلتقي ... نلتقي هناك . إذن لماذا
اعيش هنا ... أريادة الشفاء وما في مقائي حية بعد محمد الا طول اغترابي
عنه ... بل كيف يموت محمد وانى انا بعينه عنه والموت احسن وسيلة تجمعني
و . دعوني احترق بناره فيختلط رمادي برماده كما احرقني في حياتي فأتحد فؤادي
بنفوسه ... الموت الموت »

قالت ذلك وجمت بان تلتقي نفسها في اللهب ثم اجمعت ووقفت والتفتت الى
يمينها ويسارها كأنها تنفث عن شيء ... ثم نظرت الى السماء وصاحت « بل
اموت فالق هناك والدتي ايضاً فساها ان تحبرني عن اسم والدي » ثم جست
رأسها يدها فرأته عارياً من الشعر وشعرته بما اصابها من الحرق فلم تنال بل
تقدمت الى تلك الجيفة الملتببة وكانت النار قد اكلت معظمها فنظرت الى وسطها لعلمها
تري رأس محمد ثانية فاذا هو قد اسود ولم يعد يتميز من سائر اجزاء الجيفة فصاحت

« محمد محمد .. محمد .. الوداع الوداع يا حبيبي يا أملي يا رجائي يا أخي يا شقيقي
يا سيدي ... الوداع الوداع ... لا بل اللقاء اللقاء ... كيف أودعك ونحن
ذاهبان معاً ... اللقاء اللقاء يا ما أحلى اللقاء ولو في النار ... »
قالت ذلك وألقت بنفسها في اللهب كأنها تمنى محمدًا ووجهها فوق
وجهه .. فاسرع الرجل الى انتشالها فاذا هي تمزج اخلاجات الموت وكان اللهب
قد خضعها
فبكى الخادم لذلك بكاءً مرًا وصبر حتى خمدت النار فجمع رفات المسلمين وضمها
الى مدفن واحد وترحم عليها

﴿ انتهت الرواية ﴾

هكذا انتهت حياة عذرائنا القرشية بعد ما فاسته من العناية في نصرة الحق فلم
تلق غير الفناء . ولا غرو اذا بكاهم القارئ فقد بكيناها قبله . وهي تمثل النعاسة
التي تحلق ببعض اولى النفل فلا ينالون جزاء لنضام وبرهم غير الشقاء ولولا
تأسيهم بدار الخلد لما اتوا حزاني بائسين

ويعز علينا ان تكون نهاية هذه الرواية محزنة وهي اول رواية خشناها على هذه
الصورة ولكن حوادثها قضت علينا بذلك . وكيف يكون خناها غير محزن وفنائها
التي مدار حديثنا عليها علقت بمحمد بن ابي بكر الذي قضى التاريخ بؤسها على هذه
الصورة . فقد قضى عليها بالنعاسة منذ أحبته وذلك شان الخلق يسرون في الحياة
الدنيا لا يدرون مصيرهم ولا ما خبأته الاقدار لم فقد يفرحون بكسب او يتعجبون
بمولود او يلدون بحبيب والاقدار تتوعدهم وتهزأ بمواظفهم حتى اذا جاءهم امر من
رهبهم او غير ما يرجون وذاقوا غير ما يتوقعون . والله في خلقه حكمة لا تتركها العنول





❖ رواية تاريخية ادمية . الطلعة الثانية ❖

❖ تأليف منشيء الملل ❖

تتضمن حوادث مصر وموريا في النصف الاول من هذا القرن وفيها شرح وافٍ عن اوصاف الامير بشير الشهابي الكبير والمنصور له محمد علي باشا وولده المرحوم ابراهيم باشا مالك اسيا وأفريقيا القديمة والحديثة خلاق اهلها اثناء المدة المشار اليها . ووصف الخليفة والطوفان ونمرق الانسان مع الاشارة الى المحملة من الرسوم لزيادة الايضاح . وعدد والمهور الذي تدينه الرسوم لزيادة الايضاح . وعدد الملوك الذي نجما من منجحة المالك في القلعة . والرواية تنبؤ الى القراءة لتتأسق حوادثها ولا يبدأ قارئ بمطالعها الا اضطر الى انماها بالرغم عنه . عدد صفحاتها نحو مائتي صفحة . ثلثها ٨ غروش مصرية واجرة الوسطة غرش ونصف

فَتَايَا عَسَا

❖ رواية تاريخية غرامية . جرآن ❖

❖ تأليف منشيء الملل ❖

هي الخاتمة الاولى من سلسلة روايات تاريخ الاسلام واسمها يعني عن وصفها شرح فيها المؤلف ظهور الاسلام وانتشاره وما آلت اليه حال العرب بعد ذلك مع بسط حال جاهليتهم وما قاموا به وما كان لظهور الاسلام من التأثير في سائر احوالهم وعاداتهم واخلاقهم ما لا يمكن الوقوف عليه الا بمطالعة المجلدات الضخمة ثم ما كان من الجهاد في نشر الاسلام وما تم على اثر ذلك من الفتوح في جزيرة

العرب والشام والمجند ... الوداع الوداع يا حيي يا آمل يا رجاء عمار بن المنذر
وهو ابن ابي طرادة الوداع ... لا بل اللقاء اللقاء ... حتى وبيت المقدس
والمدائن وواقعة اليرموك والفاطمية ووصف الكعبة وكيف تكمرت اصنامها
وغير ذلك . وقد نشر الجزء الاول منها في السنة الخامسة « لللال » والجزء الثاني
في السنة السادسة ثم نشر الجزء الثاني على حدة . فمن كل منها عشرة غروش واجرة البوسطة
غرش ونصف وغن الجزئين معا بما فيه اجرة البوسطة ٢٤ غرشاً

عليها

❖ انتهت الرواية ❖

❖ رواية تاريخية غرامية . الطبعة الثانية ❖

❖ تأليف منشيء اللال ❖

هي الحلقة الثانية من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وتتمثل على ام حوادث
التاريخ الاسلامي وأكثرها تعلقاً بالقطر المصري اعني ظهور الاسلام وفتوحاته
وخصوصاً فتح مصر ويان حقيقة اسباب ذلك الفتح وما كان من حال انبط
مع الروم وشرح احوالهم وعوائدهم واخلاقهم وملابسهم منذ ثلاثة عشر قرناً او هي
عبارة عن تاريخ فتح مصر في صدر الاسلام مع تثيل حركات الجند وملابسهم
ومداولات القواد في خيامهم ونصورهم وما جال في خواطرم مكتوباً على اسلوب
حكاية يقرأها المطالع ولا يمل بل يزداد اشتياقاً الى مطالعتها وهو يحسب نفسه يقرأ قصة
فكاهية فلا يأتي على آخرها الا وقد فهم تاريخ الفتح وحوادثه كأنه شهد بنفسه . ومن
ابطالها عمرو بن العاص والمقوقس حاكم مصر والاعرج قائد جند الروم
فيها وغيرها . ثمنها ١٠ غروش مصرية واجرة البريد غرش ونصف



✽ تأليف مؤلف هذا الكتاب ✽

الجزء الاول

يتضمن مختصر تاريخ ممالك اسيا وافريقيا القديمة والحديثة بعد ذكر مقدمات
جغرافية عمومية وحكاية الخليفة والطوفان ونمرق الانسان
وفي الكتاب كثير من الرسوم لزيادة الايضاح . وعدد صفحاته ٢١٦ صفحة
وفيه من الرسوم ٢٥ رسماً ثمة ٨ غروش مصرية واجرة البوسطة غرش واحد

جغرافية مصر

✽ تأليف مؤلف هذا الكتاب ✽

الطبعة الثانية

طبعَت الطبعة الاولى لهذا الكتاب في الاخر سنة ١٨٩١ ولم تفس سنة ١٨٩٢
حتى نفلت نسخة كلها وزاد اقبال المطالعين على اقتنائها فاعيد طبعة ثانية . ولما
كانت تقاسيم المديرية والمحافظة لا تنبى على حالها زمتا طويلاً لما بطراً عليها
من التغيير والتبديل لما تراء الحكومة من تجديد انتظام والترتيب فقد كاتب المؤلف
كل مديرية ومحافظة على حدة وتلقى الاستعلامات الخفيفة عن آخر تقسيم لها حتى
تكون هذه الطبعة اكثر تدقيقاً من سابقتها واوفر فائدة . ثمن النسخة ٣ غروش مصرية
واجرة البوسطة ٢٠ بارة ولما ارع خارطات ثمنها غرشان

الوداع الوداع يا حبيبي يا ألي يا ربي
 الوداع لا يل اللقاء اللقاء
 مولد والفاضية وولدت العجبة وكرف
 عا ليل لموتك عا ليل

صدر الجزء الاول من تاريخ إنجلترا وفيونانجها من اول عهد ما الي
 انقضاء دولة النوركة سنة ١٤١٥ مزيئا بالرسوم والاشكال ثلثة غرويش صاغ
 واجه البوطة ٢ باره

مَطْبَعَةُ الْمُهَلَّلَانِ

لما رأينا اقبال الناس على الكتابة والتأليف والطبع والتشريع اشتغال
 مطبعتنا في الاكثر بطبع مطبوعاتنا الخصوصية حتى كثيرا ما كنا نضطر
 الى الاعتذار عن طبع شيء للمؤلفين الآخرين . فبعثنا نستحضر عددا اخرى
 من أتقن طرز واجمل وضع في اوربا فوق ما لدينا من المدد وقد وصل منها
 آلة « ماكنة » كبيرة من طرز الرزية المشهور بدقته وسرعته فاصبحت
 مطبعة المهللان مستعدة للقيام بطابع الكتب على ما اشتهرت به من الجودة
 والانقان . واذا كان صاحب الكتاب او مؤلفه خارج القاهرة او في حال
 تحول بينه وبين مراجعة المسودات فالمطبعة تقوم بذلك بعد المخاطرة

٢٢ ٣٠ ٨	ر
٤٩	ر
٤٣٨	

